علي الكوراني

المهدوون للمهدي (ع)

الدار الإسلامية
بيروت

المهدون للمهدي (ع)

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الثانية منقحة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠
تلكس ٢٣٢١٢ - غدير

علي الكوراني

الممهدون للمهدي (ع)

الدار الإسلامية

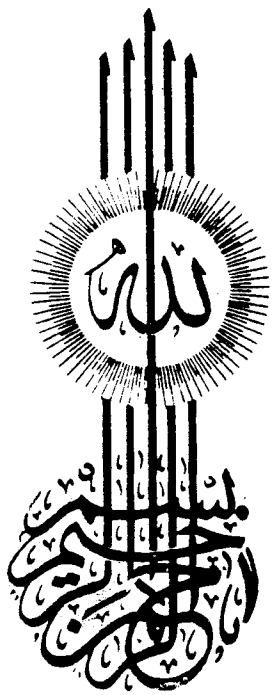
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في نهضة الإسلام المعاصرة لم تأخذ أحاديث البشارة النبويّة الشريفة بالمهدي (عليه السلام) حقّها من الاهتمام النظري والعملي لدى المسلمين .

نعم لقد ظهرت في السنوات الأخيرة كتب ومقالات عديدة في العراق ومصر وإيران والحجاز ، وغيرها ، حول عقيدة المسلمين في ظهور المهدي ونزول المسيح (عليهما السلام) . . ولكن ذلك لا يتناسب من ناحية النوعية ولا من ناحية الكميّة مع الأهمية العقائدية والسياسية الخاصّة للموضوع .

إنَّ عقيدة المهدي (عليه السلام) تعيش في وجدان المسلمين في شرق الأرض وغربها ، ولعلّك لا تجد مسلماً إلاَّ ولها في وجدانه نبض بشكل من الأشكال لما سمع من أحاديث النبي (ص) ؛ وقد اختبرت ذلك في موسم الحجّ مع أكثر من ثلاثين مسلماً من بلاد مختلفة ومستويات متفاوتة . . فهي إذن طاقة تستطيع أن تحرّك جماهير المسلمين وأن تكون عاملاً في صنع تاريخهم . . وبالفعل فقد اتّخذت حالات تشكيل مختلفة في تاريخنا

الحديث ، فكانت المحرّك الأول في مقاومة الاستعمار البريطاني في حركة الأنصار السودانيّة ، وكانت المحرّك الأول في حركة المسجد الحرام على يد العتيبي والقحطاني ، وكانت محرّكاً أساسيّاً في حركة الجهاد والهجرة على يد الشهيد مصطفى شكري في مصر ، كما كان لها دورها الهام في الثورة الإسلامية في إيران على يد الإمام الخميني دام ظلّه ، وبانتصار هذه الثورة المباركة انبعثت عقائد الإسلام في أعماق المسلمين من جديد ، وصار لعقيدة المهدي من بينها وقع خاص في قلوبهم ، وفي أذهان العالم .

وَلَسَوْفَ تستأثر هذه القضيّة باهتمام المسلمين والعالم أكثر فأكثر كلّما حقّقت مسيرة الإسلام نصراً جديداً ، أو دخلت مع أعدائها في مرحلة مواجهة جديدة .

إنَّ الكُتَّابَ المسلمين يواجهون منذ اليوم طلباً مُلِحّاً من جماهير المسلمين والعالم أن يقدّموا لهم الكثير والمزيد عن قضيّة المهدي (عليه السلام) ، ومن الطبيعي أن تتزايد هذه الحاجة باطّراد . . . وأن تكثر الاتجاهات والاجتهادات في تلبيتها .

*

في عقيدة المهدي في الإسلام ليست مشكلة الباحث في قلة النصوص من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلّقة بالموضوع . . ولكنّها في منهج التعامل مع النصوص وأسلوب دراستها ونشر نتائجها بين المسلمين .

لقد اهتمّ الرواة والعلماء المسلمون على مرّ الأجيال وعلى اختلاف مذاهبهم بأحاديث المهدي (عليه السلام) ، وأفردوا لها أبواباً في كتب الحديث حتى

لا يكاد يخلو منها مصدر ، وألّف فيها العديدون رسائل وكتباً خاصّة . . وكانوا بذلك يؤدّون الأمانة ويلبّون حاجة عصرهم ، جزاهم الله عن المسلمين خيراً .

أمّا في حركة الإسلام المعاصرة الممهّدة لظهور المهدي (عليه السلام) فإنّ الحاجة تدعو إلى جهود مكثّفة وبحوث متعدّدة من قبل أفراد ومؤسسات ، لكي نقدّم لأمتنا وللعالم كلّ ما في الإسلام عن المهدي (عليه السلام) .

وأحسب أن استخراج الخريطة السياسية أو تقديم التصوّر العام لعصر الظهور يقع في طليعة البحوث التي تمس الحاجة إليها .

إنّ هذه المجموعة الحديثيّة الشريفة التي قد تزيد على خمسمئة حديث والتي تتحدّث عن مرحلة الانفجار العالمي في حركة الإسلام . . لترسم خريطة سياسية لحركة الأمّة والعالم في عصر الظهور ، وكلّما اقتربت من زمن الحدث أو منطقة الحدث (الحجاز وإيران والعراق وبلاد الشام وفلسطين) كثرت فيها التفاصيل حتى تتناول الأمكنة والأسماء والأيام والساعات !

ومهما كان الجهد الذي يحتاجه هذا العمل فهو في سبيل واحدة من عقائد الإسلام ، التي من شأنها أن تبعث في أمّتنا اليقين والطمأنينة الثوريّة .

أرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع إسهاماً في توجيه الاهتمام لتناول قضيّة المهدي (عليه السلام) من هذا الاتجاه الأصيل المفيد في حركة جهاد أمّتنا المتصاعد

*

إجماع المسلمين على صحّة البشارة النبويّة

أجمع المسلمون على مرِّ أعصارهم ومختلف مذاهبهم على صحة أحاديث البشارة النبويّة الشريفة في المهدي المنتظر ، ولم يشذّ عن الإجماع إلاَّ أفراد اعتمدوا على الاستغراب والاستبعاد ، وقام العلماء بردّهم وتفنيد قولهم .

والسبب في هذا الإجماع أن الأحاديث الشريفة عن النبي (ص) في الموضوع متواترة وكثيرة ، تبلغ العشرات بل المئات . . ومعنى الحديث المتواتر أن يكثر رواته ويتنوّعوا بحيث لا يمكن اتّفاقهم على الكذب .

قال صاحب غاية المأمول : «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً أنّه في آخر الزمان لا بدَّ من ظهور رجل من أهل البيت يسمّى المهدي . . وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة ، وخرّجها أكابر المحدّثين : كأبي داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، والطبراني ، وأبي يعلى ، والبزّاز ، والإمام أحمد ، والحاكم رضي الله عنهم أجمعين . ولقد أخطأ من ضعّف أحاديث المهدي كلّها . قال الحافظ في فتح

الباري : تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمّة وأن عيسى بن مريم سينزل ويصلّي خلفه »[1] .

وقال الشوكاني في رسالته المسمَّاة (التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدّجّال والمسيح) بعد سرد الأحاديث : « وجميع ما سقناه بالغ حدّ التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع » .

وقال الصبّان في إسعاف الراغبين : « وقد تواترت الأخبار عن النبي (ص) بخروجه ، وأنّه من أهل بيته ، وأنّه يملأ الأرض عدلاً »[2] .

وقال الشيخ عبد الحق في اللمعات : « قد تظاهرت الأحاديث البالغة حدّ التواتر في كون المهدي من أهل البيت من أولاد فاطمة»[3].

وقال ابن حجر الهيثمي : « والأحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهدي كثيرة متواترة »[4] .

وقال السويدي : « الذي اتّفق عليه العلماء أن المهدي هو القائم في آخر الوقت ، وأنّه يملأ الأرض عدلاً ، والأحاديث في ظهوره كثيرة »[5] .

وقال ابن خلدون : « اعلم أنَّ المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممرِّ الأعصار أنّه لا بدَّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويسمَّى بالمهدي »[6] .

وقد عدّد الشيخ عبد المحسن العبّاد المدرس بالجامعة الإسلامية

---

(١) فتح الباري ج ٥ ص ٣٦٢ .
(٢) إسعاف الراغبين ج ٢ ص ١٤٠ .
(٣) حاشية صحيح الترمذي ج ٢ ص ٤٦ .
(٤) الصواعق المحرقة ج ٢ ص ٢١١ .
(٥) سبائك الذهب ص ٧٨ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧ .

بالمدينة المنورة ستة وعشرين صحابيّاً ممّن سمعوا من النبي (ص) أحاديث البشارة بالمهدي المنتظر ، وثمانية وثلاثين محدثاً ومؤلفاً أخرجوا هذه الأحاديث ، وعشرة من العلماء خصّوا الموضوع بمؤلفات خاصّة . جاء ذلك في محاضرة موسّعة بعنوان (عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر) وقد علّق الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية اليوم على المحاضرة وأشاد بها وقال : « إن الحقّ والصواب هو ما أبداه فضيلته في هذه المحاضرة كما بيّنه أهل العلم ، فأمر المهدي أمر معلوم والأحاديث فيه مستفيضة بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها كما حكاه الأستاذ في هذه المحاضرة ، وهي متواترة تواتراً معنويّاً لكثرة طرقها ، واختلاف مخارجها ، وصحابتها ، ورواتها ، وألفاظها ، فهي بحقّ تدلّ على أنّ هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حقٌ » . . كانت هذه المحاضرة والتعليق عليها في سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ونشرتها مجلة الجامعة الإسلامية في عدد ذي القعدة من تلك السنة .

وقد استخرج الباحث الشيخ لطف الله الصافي في موسوعته (منتخب الأثر) أحاديث المهدي (عليه السلام) من أكثر من ستين مصدراً من كتب السنة من ضمنها الصحاح الستة ، وأكثر من تسعين مصدراً من كتب الشيعة من ضمنها الكتب الأربعة ، وقام بتبويب أحاديثها . وسنختم هذه الدراسة إن شاء الله بذكر أسماء مجموعة من المصادر والكتب كي يرجع إليها من أراد التوسّع في الموضوع .

*

البشارة النبويّة بين الجانب النفسي والعلمي

الناظر في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة الشريفة التي تتحدّث عن مستقبل الأمّة الإسلامية والعالم . . يراها ترسم مسيرة الإسلام والمسلمين في خطّين يسيران معاً :

الأول : خطّ ابتعاد المسلمين عن الله تعالى وانحرافهم عن الإسلام،وغلبة الأمم الكافرة والمشركة عليهم ، في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] .

وعن النبي (ص) : « إنَّ الإسْلامَ بَدَأَ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبىٰ لِلْغُرَبَاءِ . قِيلَ وَمَنِ الغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ »[2] . والنُّزّاع من القبائل : الأفراد القلائل الذين يخرجون عن مألوف أهليهم وأقوامهم .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٢) مسند أحمد ج ١ ص ٣٩٨ .

وعنه (ص) : « لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِراعاً بِذِراع حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهُمْ . قلنا يا رَسُولَ الله : اليَهُودَ وَالنَّصارىٰ ؟ قَالَ : فَمَنْ ؟ »[1] .

وعنه (ص) : « يُوشِكُ أنْ تَدَاعىٰ عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعىٰ الْأَكَلَةُ عَلىٰ قَصْعَتِهَا . قُلْنا يا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلكِنْ تَكُونُونَ غُثاءً كَغُثاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ اللَّهُ المَهابَةَ مِنْ قلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ في قلُوبِكُمْ الْوَهْنَ . قُلْنا وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الحَياةِ وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ »[2] .

والثاني : خط حفظ الإسلام وثباته وصموده ، ثمّ انتصاره وشموله لكلّ العالم . . في مثل قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[3] .

وعن النبي (ص) : « لا يَزالُ ناسٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهِرِينَ . . حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله وَهُمْ ظاهِرُونَ »[4] .

وعنه (ص) : « لَنْ يَزالَ أَمْرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيماً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ »[5] .

ومن أهمّ معالم هذا الخط بشارة النبي (ص) بظهور المهدي ونزول المسيح (عليهما السلام) لكي يدعو النصارى إلى الإسلام .

---

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ٨٤ . وقريب منه في فتح الباري ج ١٧ ص ٦٣ .

(٢) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٧٨ .

(٣) سورة التوبة : ٣٣ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري ج ٧ ص ٤٤٥ .

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام ص ١٠ .

وبهذين الخطين معاً كانت مسيرة تاريخنا الإسلامي وحاضره . . حتى يتمّ وعد الله تعالى ، ويشرق نور الإسلام على الأرض كلّها .

*

واذا أخذنا هذين الخطين من ناحية تأثيرهما في البناء النفسي في شخصية المسلمين نَرَ أنّهما: مؤثر سلبي - إذا صحّ التعبير - ومؤثر إيجابي ، ونتيجتهما الطبيعية هي التوازن ما بين التشاؤم لسوء الواقع والتفاؤل بازدهار المستقبل .

غير أنّه يوجد عاملان آخران يشاركان في بناء (سيكلوجية) المسلمين بفعالية وهما : عقيدة التسليم لله تعالى وأنّه المهيمن على الحياة ، فإذا أدّى المسلم ما عليه فلا عليه أن يجري التاريخ بما أذن الله وأراد . وعقيدة النصر والفوز في الآخرة . . وبذلك يملك المسلمون ثلاثة عوامل إيجابية في مقابل عامل سلبي ، والنتيجة الطبيعية لذلك : حالة نفسية متفائلة واثقة بنفسها وغدها ، عاملة لهدفها بإقدام .

ولكن لماذا لا يعيش المسلمون هذه الحالة الروحية العالية ؟

الجواب البسيط : أنّنا لم نبن حالتنا النفسية بهذه العقائد الأربع التي هي أهمّ مكوّنات السيكلوجيّة الإسلامية .

فأولئك الذين يرون الخط السلبي من تاريخنا وحاضرنا ، ولا يرون الخط الإيجابي الذي صمد على مرّ العصور والظروف وواصل نموه كميّاً ونوعيّاً ، وها هو يعطي ثماره تياراً إسلاميّاً قويّاً في الأُمة بمهّد لانتصار الإسلام الكبير الموعود . . هل بنوا حالتهم النفسية من مكوّنات إسلامية ؟ كلاّ .

وأولئك المتشائمون الذين يندبون الزمان وأهله ويقرأون، العزاء

على واقع المسلمين ، ثمَّ يقعدون ويثبّطون الناس عن العمل ، بل يشتغلون في انتقاد العاملين وعرقلة عملهم . . هل بنوا حالتهم النفسية بمصادر الإسلام ومكوّنات الحالة النفسية فيه ؟ كلاَّ .

إنَّ النزعة المتشائمة التي لا ترى الخير الذي في الأُمّة ولا تأمل بنصر الله تعالى إنَّما هي ناتجة من ضغط مفاهيم الثقافة الغربية والسيطرة الكافرة ، ومن التخلّف والشعور بالصَّغار الذي يركزه في نفوسنا الغربيّون ، وصاحب هذه الحالة غربي الروحيّة ، حتى لو كان بزيّ علماء المسلمين ، أو كان من أريافنا البعيدة عن الشريحة الاجتماعية المتغربة الموجودة عادة في العواصم والمدن .

لقد آن لنا في عصر الإسلام والشعوب أن نتخلّص من رواسب الحملة الغربية على (روحيّات وعواطف الشرقيين) أي على البناء النفسي للمسلمين ، وأن نبني روحيّة جماهيرنا بناء إسلاميّاً كاملاً . . وقد آن لعلماء المسلمين أن ينهضوا بهذه المسؤوليّة التي هي من صلب العمق العلمي والفقهي ، ومن أولى المسؤوليات .

إنَّ عقيدة (حتميّة تحقّق بشارة النبي (ص) بظهور القائد المظفّر والخليفة والإمام المهدي ، وظهور الإسلام على أرجاء المعمورة) يجب أن تهزّ أعماق قلوبنا بلهفتها وفرحتها وحرارتها ، وتدفعنا لأن ننشرها بين جماهيرنا ونلهج بها ، ونرفع لها الشعارات ، ونبتكر التركيزها الوسائل ، حتى تمتلىء قلوب شعوبنا شوقاً وأملاً وعملاً إلى لقاء قائدها المؤيَّد (عليه السلام) .

قد يقول البعض : نعم إنَّ لإحياء هذه العقيدة الإسلامية تأثيرات هامة وبركات كثيرة على سيكلوجيّة شعوبنا ، خاصّة ونحن نواجه هجمة شرسة من أعدائنا وحالة صَغار في حكّامنا . . ولكن لها تأثيراً

سلبياً هو الإفراط في التفاؤل ، وهـذا قد يساعد الجماهير في تحقيق أهداف وانتصارات ، ولكن مردوده في النهاية الإحباط وخيبة الأمل .

لا نطيل في الردّ على ذلك بالتحليل التاريخي النفسي وما حقّقته هـذه العقيـدة من زخم إيجـابي في صنـاعـة التـاريـخ وتصحيحـه ولا تزال . . ولكن نستدلّ بأصل أمر الله عزَّ وجلَّ لرسوله (ص) بتبليغ هذه البشارة .

إنَّه تعالى يعلم أن بعث الأمل بانتصـار الإسلام في العـالم على يد المهدي (عليه السلام) سينتج عنه في المسلمين حالة تَوقّع نفسيـة كثيراً ما تكون مفرطـة في التفاؤل . . ومـع ذلك أمـر رسولـه (ص) أن يبلغ هذه البشارة ويركزها في نفوس المسلمين ، ومـا ذلك إلاَّ لأنَّـه لا ضـرر من حصول هـذا التفـاؤل ، بـل هنـاك ضـرورة لتحقيق هـدفين أسـاسيّين من تبليغ النبي (ص) للبشـارة بالمهـدي (عليـه السـلام) ، أولهما : تحذيـر المسلمين من الانحراف مـع موجـة الانحراف العـامّة التي ستحدث . وثانيهمـا : بعث الأمل في نفـوس المسلمين بانتصـار الإسلام مجدداً وظهوره على الدين كلّه . .

*

وأوّل ما ينبغي للباحث في أحاديث البشارة النبـويّة أن يميّـز بين صفات آخر الزمان الذي منه عصـر ظهور المهـدي (عليه السـلام) ، وبين صفـات وردت عن النبي (ص) والأئمة (عليهم السـلام) لأزمنـة وعصور أخرى سـوف تأتي على الأمّـة . . فإنَّ مجـرد قول النبي (ص) سيأتي على أمّتي زمان يكون فيه كذا ، لا يدلّ على أنَّه آخر الزمان مـا لم يوجد نصّ أو قرينة تحـدّد ذلك ، وأن يفـرّق كذلـك بين العلامـات والصفـات العامـة لآخر الـزمان ، والأحـداث القريبـة المتصلة بظهـور

المهـدي (عليـه السـلام) . . فمن الممكن للبـاحث أن يصـل إلى الاطمئنـان أو القطع بـأن هذا الـزمان هـو آخر الـزمان بسبب مجمـوع الصفات والعلامات الواردة عن النبي (ص) وانـطباقهـا بصورة كليّـة أو تفصيليّة على الواقع ، ولكن كيف يمكن أن يحكم أنَّ آخر الزمان فترة محـدّدة بخمسين سنة أو بقـرن واحد مثـلاً ، وما يمنـع أن تكون عـدة قرون ؟

وكذلك لا يكفي انطباق الصفات العامة لآخر الزمان لكي نحكم أن هذا القرن ، أو نصف القرن ـ مثلاً ـ هو عصر الظهور بـل لا بدَّ من انـطباق الأحـداث المحددة التي ورد النصّ على أنَّهـا قريبـة نسبياً من الظهور ، وعلى ذلك اعتمدنا في هذه التسمية لعصرنـا . ومن البديهي أن تطبيق الحدث المنصوص على الحدث الواقع لا بدَّ أن يكون علميّاً مقنعـاً ، سواء من جهـة وضوح النصّ ووضـوح الحدث ، أو من جهـة نفي احتمال أن يكون الحدث قد مضى أو سوف يأتي . . الخ .

وهكذا نجد أحاديث البشارة النبوية تتسلسل في تحديـد الفترات الزمنية وأوصافها وأحداثها كالتالي :

١ ـ عصور وأزمان مـطلقة ، أخبـر النبي (ص) أنَّها ستـأتي على الأمة من بعده ولم يسمّها آخر الزمان ، ووصف فيهـا جوانب من حـالة الأمة وظروفها المحيطة .

٢ ـ آخر الزمان ، وقد تضمّنت أحاديثه بـالإضافـة إلى الأوصاف العامة لحالة الأمة وظروفهـا المحيطة أحـداثاً معيّنـة زيادة عمّـا ذكر من صفات وأحداث العصور المطلقة .

٣ ـ عصر الظهـور ، وقد حـدّد له (ص) صفـات عامـة وأحداثـاً معيّنة .

٤ ـ سنوات الظهور ، ويزداد في أحاديثها تحديد الأحداث والإرهاصات .

٥ ـ سنة الظهور ، وتحدّد أحاديثها أحداثاً مفصلة تحديداً دقيقاً ، خاصة في النصف الثاني منها ابتداءً من خروج السفياني في رجب ، إلى النداء في رمضان . . إلى قتل النفس الزكيّة في ٢٥ ذي الحجّة . . إلى ظهور المهدي (عليه السلام) في اليوم التاسع أو العاشر من شهر محرّم .

٦ ـ عصر أو عصور الدولة الإسلامية العالمية بقيادة المهدي (عليه السلام) .

٧ ـ علامات وإرهاصات القيامة ، مثل خروج الدابة من الأرض تكلّم الناس . . والنار التي تخرج من عدن وغيرها فتسوق الناس إلى المحشر . . الخ .

والأحاديث التي وصفت عصوراً وأزماناً ستأتي على الأمة قد تبلغ المئات . . بينما الأحاديث التي وصفت آخر الزمان بهذا الاسم ، أو بما يدلّ عليه لا تتعدى العشرات ، مثلاً في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف) الذي يشمل تسعة مصادر هي الصحاح الستة مع مسند الدارمي وموطّأ مالك ومسند أحمد ، نجد في مادة (زمن) حوالي ثلاثين حديثاً ، منها أكثر من عشرين عن أزمان مطلقة تأتي على الأمة ، وأقل من عشرة أحاديث عن آخر الزمان ، وكذلك الأمر في مصادر الحديث الشيعية .

وأمّا الأحاديث التي تصف أحداثاً قريبة يمكن بواسطتها أن نحدّد عصر الظهور ، أو تلك التي تصف أحداث سنوات الظهور ،

وبـالأخص سنة الـظهور ، فهي كثيـرة تبلغ المئـات ، والأحـداث التي وصفتها تبلغ العشرات .

وكذلك فإنَّ الأحاديث التي تصف أحداث قيام الدولة الإسـلامية العالمية وازدهارها وامتدادها إلى علامات القيامة وإرهاصاتهـا . . تبلغ العشرات .

*

وكمـا هو الحـال في أيّ بحث روائي تاريخي سيـواجه البـاحث عدة مشاكل ، منها : الأحاديث الموضـوعة بسبب محـاولات استغلال البشارة النبوية الشريفـة منذ صـدر الإسلام وعلى مـرّ العصور تقـريباً . وأكثرها تأثيراً في ذلـك محاولات الحسنيّين والعبـاسيّين في قضيّة رفـع الرايات السـود في خراسـان ، وتسمية كـل من إبراهيم بن عبـدالله بن الحسن ومحمـد بن المنصـور بـ (المهـدي) وتسميـة محمـد بـن عبدالله بن الحسن بالنفس الزكية .

وسبب آخر في وجود الأحاديث الموضوعة هـو قابليـة الموضـوع للوضع والأسطورة ، فـإنَّ الجانب الغيبي والإعجـازي والمستقبلي في هذه البشارة المقـدّسة قـد استهوى بعض ذوي الخيـالات ممّن لا دين لهم ، فكـذبـوا على رسـول الله (ص) وعلى الأئمـة من أهـل البيت (عليهم السـلام) ، وأضـافـوا من ظـروف عصـرهم وأهـوائهم أو من الإسرائيليّات مجموعة من الروايات ، وقـد ذكر علمـاء الحديث عـدداً من الأحـاديث الموضـوعة في هـذا المجـال ، منهم:ابن الجـوزي في كتابه (الموضوعات) والذهبي في (ميـزان الاعتدال) وابن عـراق في (تنـزيه الشـريعة) وأخيـراً المحـدّث الألبـاني في كتـابـه (الأحـاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأمة) .

ومنها : مشكلة الخلط بين الفترات الزمنية وبين أحداثها خلطاً كثيراً لم يقتصر على المؤلفين في البشارة ، بل شمل بعض الرواة أنفسهم فأصبحت مادة الرواية مشوشة ومشوهة في بعض الحالات .

ومنها : مشكلة تطبيق الأحداث الواردة على أحداث ماضية أو حاضرة . . الخ .

ومن نافلة القول أنَّ وسيلة الإثبات لدى الكاتب في مثل هذا البحث تختلف عنها في البحث الفقهي ؛ لعدم إمكان الاعتماد على قاعدة حجيّة خبر الواحد هنا لخروج البحث غالباً عن دائرة هذه الحجيّة الشرعية المحددة بالمنجزية والمعذرية ، أي بتنجيز التكليف وتعذير المكلّف ، بل يتعيّن على الباحث أن يعتمد وسيلة إثبات مركّبة ومعقدة هي تجميع القرائن العامة والخاصة في عملية من التتبع والمحاكمة والاستنتاج كثيراً ما تكون دقيقة وشاقة . . يفتح الله بها على من يشاء من عباده أبواباً من الهداية،ويبقى الباب مفتوحاً لمزيد من البحث والهداية الإلهية . سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم .

*

الفصل الأول

دراسة أولية لعلامات الظهور

دراسة أولية لعلامات الظهور

يتردّد القارىء أو الباحث في علامات ظهور المهدي (عليه السلام) طويلاً بين الرغبة والتلهّف الذي يلحّ عليه وعلى المسلمين ، وبين منهج التثبّت الذي تمليه عليه التقوى وأمانة البحث . . ففي هذا الحشد المتنوع من الروايات يلمس حيناً نور الوحي وصدقه فيخشع لله تعالى الذي أطلع رسوله (ص) على شيء من غيبه فوصل إلينا . . ويلمس حيناً التناقض والوضع والسجع المفتعل . . وحيناً آخر يحسّ بشيء من نور وأثارة من علم ، وعليه أن يجد طريقه إليها بين طبقات الأصداف وظلمات التحريف والتخليط من بعض الرواة .

فمن الرواة من وعى وحفظ الأمانة وأدّاها . ومنهم من وسوس له الشيطان أن يحرِّف الحديث أو يختلقه ؛ فكذبوا على النبي (ص) والأئمة (عليهم السلام) ، فأهلكوا أنفسهم وأتعبوا من بعدهم ، أعاذ الله المسلمين من شرِّهم .

وجاء المؤلِّفون في هذا الموضوع فقام بعضهم بإجلاء بعض الجوانب وإلقاء عدد من الأضواء ؛ جزاهم الله عن الإسلام وأهله

خيراً . وجاء بعضهم كحاطب ليل ، كأنّما أُشرب حبّ التخليط ، يقبل كلّ ما روي ، ويعمل لإقناعك به ، ويتعسّف الجمع بين متضاده ومتناقضه وهيهات . . أو يطبق العلامات على أحداث عصره بتفسيرات لا سند لها إلاّ الاحتمال المطلق ، وكأن العلامات كلّها تخصّ عصره وما بعده بسنوات ، وليس منها علامة تحققت في الماضي الطويل أو تجيء في المستقبل البعيد . وقد أصبح من المتعارف في الكتب المتأخرة عدّ الصفات العامة لعصور ما بعد النبوة في علامات الظهور، وعدُّ علامات الساعة والقيامة في علامات الظهور ، حتى أن بعضها ينصّ على أنّه من علامات الساعة ، ويعدّه بعضهم في علامات الظهور ويفسّر الساعة بساعة الظهور ! مع أنَّ مصطلح (الساعة) في نصوص الإسلام يعني القيامة بداهةً .

من أجل ذلك فإنَّ الدراسة الكاملة لعلامات الظهور تحتاج إلى مزيد من التتبع والدقة والمقارنة .

وفي هذا البحث الأوّلي عن المهدي (عليه السلام) أقدم فهرساً أوليّاً لأهمّ العلامات مع بعض الملاحظات حولها .

*

شخصيّات ورد ذكرها في علامات الظهور

١ ـ نزول عيسى بن مريم (عليه السلام) ، وأحاديثه كثيرة صريحة متواترة في مصادر الشيعة والسنة ، وأصل نزوله (عليه السلام) موضع إجماع المسلمين . ويذكر المفسّرون هذه الأحاديث عادةً في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً** ﴾[1] ؛ وكذلك في

(١) سورة النساء : ١٥٩ .

أحاديث الفتن وأشراط الساعة .

وتُجمع الأحاديث على أن وقت نزوله يكون بعد ظهور المهدي (عليهما السلام) وأنّه يصلّي خلف المهدي ، وعليه فعدّ نزوله من علامات الظهور مبني على التسامح وشمول العلامات لما كان من آيات ودلالات ربانيّة قبل الظهور وأثناءه وبعده .

٢ ـ النفس الزكية وابنا عمّه ، والأحاديث فيهم من مصادر الشيعة كثيرة تبلغ حدّ التواتر ، وتعدّ هذه العلامة من المحتومات الخمس . وأحاديثها من مصادر السنة أقل ولكنّها عديدة ، وقد ورد في بعضها أنّه حسني وفي أكثرها أنّه حسيني وأن اسمه محمّدُ بن الحسن وأن ابني عمّه أخ وأخت اسماهما محمد وفاطمة ، يفرّون من جيش السفياني من العراق ويدخلون المدينة ، فيقبض الظالمون على ابن عمّه وأخته ويقتلونهما ويصلبونهما في المدينة المنورة ، ويفرّ هو إلى مكة فيقتلونه ظلماً وعدواناً بغير ذنب في الخامس والعشرين من ذي الحجّة الحرام في المسجد الحرام بين الركن والمقام ، وليس بين قتله وظهور المهدي (عليه السلام) إلاّ خمس عشرة ليلة .

٣ ـ خمسة أشخاص ، ورد ذكرهم في أحاديث رايات المشرق وخراسان ، هم : رجل يخرج من قم . والخراساني الحسيني ويعبر عنه في مصادر السنة بالهاشمي . والسيد الأكبر . وشعيب بن صالح قائد قوات الخراسانيين ، ثم قائد قوات المهدي (عليه السلام) . والسيد الجيلاني الذي يعاون شعيباً بن صالح .

والأحاديث في الخراساني وشعيب كثيرة متواترة من مصادر السنة والشيعة ، كما ورد ذكر السيد الأكبر عند الطرفين أيضاً . أما الثائر من قم وأصحابه والمتحرّك من جيلان (كيلان) فقد ورد ذكرهما في

مصادر الشيعة خاصة ـ في حدود اطلاعي ـ .

وسيأتي ذكر الجميع في موضوع الممهّدين للمهدي (عليه السلام) إن شاء الله تعالى ، وأنَّ المرجّح أن يكون السيد الأكبر والثائر من قم شخصاً واحداً .

٤ ـ اليماني ، أحاديثه من مصادر الشيعة متواترة وقد عدّته من المحتومات الخمس ، وأنَّه يظهر في اليمن قبل السفياني ، أو مقارناً له ، وأنَّه يدعو إلى الحقّ وتجب إجابة دعوته ، وأنَّه يتوجّه إلى العراق وسوريا ويشارك مع الخراساني في قتال السفياني ، وأنَّه من ولد زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) .

وربما كانت رواية : ـ «يَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا كَرْعَةُ »[1] ـ واردة فيه ثمَّ نسبت اشتباهاً إلى المهدي (عليه السلام) ، كما قد يكون هذا اليماني هو المقصود بحديث « يَخْرُجُ مَلِكٌ بِصَنْعاءَ اسْمُهُ حَسَنٌ أَوْ حُسَيْنٌ » ووردت فيه في مصادر السنة أحاديث قليلة .

وممّا يساعد على القول بصحة هذه العلامة ـ حتى لو لم تكن أحاديثها متواترة ـ عدم وجود قرائن منافية أو ظروف سياسية توجب الشك في صحّتها . وتفسيرها بمن ظهر من الزيديّين في اليمن لا يتّفق مع نصوص أحاديثها الصريحة في اتّصال حركته بظهور المهدي (عليه السلام) .

٥ ـ السفياني ، وأحاديثه كثيرة متواترة من مصادر الشيعة والسنة ، وقد تضمن الكثير منها تفاصيل خروجه في دمشق وحركته في سوريا والعراق وأطراف إيران والحجاز . . والقول بأن أحاديثه من

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ٣٨٠ .

وضع الأمويين لكي يقابلوا بها أحاديث المهدي الصحيحة ، جنوح في الاحتمال وإغماض عن مئات الأحاديث الشريفة عند المسلمين . نعم نجد الاتجاه الأموي وراء وضع أحاديث مدح السفياني ، وأنّه يسلم الأمر للمهدي ! أو ذم الهاشمي الخراساني وادعاء أنه يموت في طريقه إلى بيت المقدس ولا يبلغ هدفه ، أو أن السفياني ينتصر عليه !

٦ ـ تسعة أشخاص ورد ذكر أربعة منهم في تحرّك السفياني . وهم ، الأصهب أي الأحمر شعر الرأس ، والأبقع أي الأبرص ، والربيعي ، والجرهمي ، يقاومون حركة السفياني فيقتلهم جميعاً . وورد وصف الأصهب بالعلج ، وهي صفة للكفار من غير العرب . والخمسة الآخرون هم : الهجري ، والعطرفي ، والرقطي ، والمرواني ، والشيصباني ، ورد ذكرهم في روايات متفرقة وأنّهم يخرجون قبل ظهور المهدي (عليه السلام) ، وأن الشيصباني يخرج في العراق فيقتله السفياني .

وقد ورد ذكر الأبقع والأصهب في أحاديث السفياني في مصادر السنة ، وورد ذكر الباقين في مصادر الشيعة خاصة ـ في حدود اطلاعي ـ .

٧ ـ عبدالله آخر من يحكم الحجاز ، فقد وردت أحاديث عديدة في مصادر السنة والشيعة تكاد تكون متواترة بأن ظهور المهدي (عليه السلام) يكون على أثر موت حاكم أو ملك أو خليفة ، واختلاف على من يكون بعده ، وحصول أحداث داخلية وفراغ سياسي في الحجاز . . وقد تفرّدت مصادر الشيعة بحديثين ـ في حدود اطلاعي ـ فيهما تفصيل عن هذا الحاكم : أحدهما عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَوْتَ عَبْدِ الله أضْمَنْ لَهُ القَائِمَ ، أَمَا إنَّهُ إذا مَاتَ عَبْدُ الله لَمْ يَجْتَمِعِ النَّاسُ بَعْدَهُ عَلىٰ أحَدٍ وَلَمْ يَتَنَاهَ هٰذا

الأَمْرُ دُونَ صَاحِبِكُمْ إِنْ شَاءَ الله ؛ وَيَذْهَبُ مُلْكُ السنِينَ وَيَصِيرُ مُلْكُ الشُّهُورِ وَالأَيَّامِ . قَالَ أَبُو بَصِيرٍ فَقُلْتُ : يَطُولُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لا »[1] .

والحديث الآخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) : « يَمُوتُ سَفِيهٌ مِنْ آلِ (العَبَّاسِ) يَكُونُ سَبَبُ مَوْتِهِ أَنَّهُ يَنْكِحُ خَصِيّاً فَيَقُومُ فَيَذْبَحُهُ وَيَكْتُمُ مَوْتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً . فَإِذَا سَارَتِ الرُّكْبَانُ فِي طَلَبِ الخَصِيِّ لَمْ يَرْجِعْ أَوَّلُ مَنْ يَخْرُجُ (إِلىٰ آخِرِ مَنْ يَخْرُجُ) حَتَّى يَذْهَبَ مُلْكُهُمْ »[2] .

أمَّا الحديث الأول فواضح الصلة بظهور المهدي (عليه السلام) ، وأمَّا الثاني فالظاهر أن المقصود بالسفيه هو عبدالله المذكور ولعلّ أصل الحديث « يموت سفيه من آل (فلان) » وليس من آل العباس ، ولكن الراوي سمى آل العباس لأنَّه تصور أن الإمام (عليه السلام) استعمل الكناية عنهم . . وتوجد قرائن أخرى في الأحاديث عن أحداث الظهور في الحجاز تصلح للربط بين الحديثين .

٨ ـ الدجال الأعور، وأحاديثه في مصادر السنة كثيرة جداً، وفي مصادر الشيعة قليلة ، وتتّفق تقريباً على أنَّه من علامات الساعة ، وأنَّه مولود وموجود منذ عهد رسول الله (ص) وأنَّه يستعمل عجائب السحر فيغري أتباعه ، ويضلهم ويدّعي الربوبية ، وأن المهدي والمسيح (عليهما السلام) يقاتلانه . وتتضمن أحاديثه غرائب غير مألوفة تحيط بشخصيّته وحركته وأفعاله .

وأقوى الاحتمالات في أمره أن يكون شخصاً حقيقيّاً، يستغلّ التطوّر الذي تصل إليه العلوم الطبيعيّة في ظلّ الدولة الإسلامية بقيادة

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٢١٠ .

(٢) كمال الدين للصدوق ص ٦٥٥ .

المهدي (عليه السلام) في أساليب من السحر ، كما يستغلّ ردة الفعل السلبية للرفاهية الشاملة التي يعيشها الناس،فيغري أتباعه بالمحرَّمات والإباحية ويلبّس عليهم بالسحر والشعوذة . وعلى هذا فإن الطابع الأسطوري الذي تتصف به أحاديثه يكون له أساس من الصحة . وإن أضاف عليه بعض الرواة .

ويليه في القوة أن يكون الدجال هو الشيطان إبليس الذي طلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون فأجابه عزّ وجلّ:﴿ فإنَكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إلىٰ يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ ﴾وقد ورد أن قتله في يوم الوقت المعلوم يكون على يد المهدي (عليه السلام) .

ويوجد احتمال آخر،أن يكون الدجال نفس السفياني وقد وقع التضخيم في أوصافه وأحاديثه ، وقد ذكرت بعض الروايات أن السفياني يبدو أعور وليس بأعور . . ولكن يبقى هذا الاحتمال ضعيفاً لأنَّ أكثر الصفات الواردة في الدجال لا تنطبق على السفياني ، ومنها ادعاء الربوبيّة وعجائب السحر .

واحتمال آخر ، أن يكون الأعور الدجال أو الدجال تعبيراً مجازياً عن إغراء الحضارة المادية الكاذبة المزيّفة ، أو إغراء الدنيا ورفاهيتها الكاذبة . . وهو أيضاً ضعيف لصراحة الأحاديث بأنَّه شخص حقيقي من نوع خاص يقود حركة عسكرية إضلالية في آخر الزمان .

وينبغي التحرّز في بحث أحاديث الدجال من أمرين أحدهما : أن غالبية أحاديثه تقريباً عن كعب الأحبار . والثاني : أن من عقائد اليهود أن مسيحهم المنتظر يقتل الدجال .

ومن طريف ما اطّلعت عليه كتابان للدكتور مارسيل حدّاد أحد القساوسة اللبنانيّين يحاول فيهما إثبات أنَّ الأعور الدجال هو إسرائيل

ويشرح في أحدهما سفر الرؤيا من التوراة ، ويفسّر في الثاني أحاديث النبي (ص) في شأن الدجال بأنّها تقصد إسرائيل .

٩ ـ ادعاء مئة شخص للنبوة ، وادعاء عدة أشخاص للمهديّة ، وخروج زنديق بقزوين ، ورد فيها بعض أحاديث في مصادر الشيعة . وإذا صحّ أنّها من علامات الظهور فيمكن أن تكون قد تحقّقت . فالذين ادّعوا النبوة منذ مسيلمة الكذّاب أو منذ صدر الإسلام إلى الآن كثيرون قد يزيدون على المئة ، وقد يكون رقم المئة من باب التكثير . والذين ادعوا المهديّة منذ ادعاها المختار لمحمد بن الحنفيّة ، إلى موسى بن طلحة بن عبيدالله المعاصر للمختار ، مروراً بالحسنيّين ، والعبّاسيّين ، والفاطميّين والهنود ، والسودانيّين ، والبهائيّين . . إلى جهيمان والقحطاني . . أكثر من خمسة عشر شخصاً[١] . أمّا زنديق قزوين فقد ورد في بعض الأحاديث أنّه من جملة مدّعي النبوّة . وينقل عن رضا خان بهلوي أنّه عندما أراد أن يطبّق على إيران الخطّة الكافرة التي طبّقها أتاتورك في تركيا فأجبر المسلمات على السفور فقاومه العلماء أنّه قال : أو ليسوا يروون أنّه يخرج زنديق من قزوين فيهتك ستورها ، فأنا ذلك الزنديق !

١٠ ـ المغربي والمصري ، وردت فيهما أحاديث قليلة ، فَهِمَ منها بعضهم أنّهما صاحبا حركتين تكونان قبل السفياني ، وعدّهما في علامات الظهور ، أمّا المصري ففيه حديث أو أكثر يقول : « يَخْرُجُ قَبْلَ السُّفْيانِيِّ مِصْرِيٌّ وَيَمانِيٌّ »[٢] . فأمره محتمل ، وأمّا المغربي فسيتّضح

---

(١) أحصى أحد الفضلاء تسعة أشخاص ادعيت لهم المهدية أو ادعوها إلى المهدي العباسي ، أي في القرن الأول ونصف القرن الثاني .

(٢) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٢١٠ .

ضعف كونه من علامات الظهور في تحرّك المغربيّين والمصريّين الآتي إن شاء الله تعالى .

١١ ـ عوف السلمي ، ورد فيه حديثان أو أكثر ، أحدهما عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : « يَكُونُ قَبْلَ خُرُوجِهِ (أي المهدي عليه السلام) خُرُوجُ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ عَوْف السَّلَمِي بِأَرْضِ الجَزِيرَةِ يَكُونُ مَأْوَاهُ تِكْرِيتَ (أو كريت أو كويت) وَقَتْلُهُ بِمَسْجِدِ دِمَشْقَ ثُمَّ يَكُونُ خُرُوجُ شُعَيْبِ بْنِ صَالِحٍ »[1] . والأرجح أن المقصود بأرض الجزيرة المنطقة الواقعة عند ملتقى الحدود العراقية السورية التركية فهي التي تسمَّى بلاد الجزيرة أو الجزيرة مجردة ، أمَّا جزيرة العرب فلا تستعمل مجردة منذ صدر الإسلام إلاَّ مع وجود قرينة تدلّ عليها . وعلى هذا تكون تكريت أقرب إلى هذه المنطقة من كريت أو كويت ، ولا يكون في النصّ ما يدلّ على علاقة عوف هذا بالبصرة أو بصاحب الزنج الذي ظهر في القرن الثالث كما تصور البعض ، وفي حدود استقصائي لم أجد ثائراً باسم عوف السلمي ، فيكون احتمال صحة العلامة باقياً .

*

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٢١٣ .

أقوام ورد ذكرهم في علامات الظهور

ورد في أحاديث الظهور ذكر تحركات عسكرية وسياسية مختلفة ، لأقوام عديدين ، ومناطق واسعة ، تكاد تشمل كل العالم ، وأهمّها :

تحركات الترك .
تحركات الروم .
تحركات العرب .
تحركات العجم (الإيرانيين) .
تحركات أقوام شرق آسيويّين .
تحركات اليهود .

وبالنظرة السطحيّة إلى هذه المجموعات من الأحاديث التي تشترك في روايتها بشكل عام مصادر الشيعة والسنة وإن كانت عند الشيعة أكثر تداولاً . . قد يقبل القارئ هذه الأحاديث على أنّها علامات سوف تأتي،ويبحث لها عن تفاسير من الخريطة السياسية الحاضرة أو المستقبلة لهؤلاء الأقوام وهذه المناطق .

مثلاً يفسّر حديث « نَفْرُ أَهْلِ المَغْرِبِ إلىٰ مِصْرَ » بالمسيرة الشعبية الليبيّة التي توجهت إلى مصر لفرض الوحدة بين البلدين . . الخ .

ولكن ماذا يصنع إذا وجد أن هذه النصوص تصف تحركات قد حدثت من هؤلاء الأقوام وفي نفس تلك المناطق ، بل وبنفس التفاصيل في بعض الأحيان . . مثلاً يجد حركة الفاطميّين من المغرب إلى السودان إلى مصر إلى الشام . . وتهديدهم للعراق . . حرفياً في أحاديث علامات المهدي ! وتحركات زحف المغول (الذين كان يسمّيهم العرب : الترك المغول أو الترك) أيضاً في أحاديث علامات

المهدي في مثل أحاديث:« يخرج قوم من الشرق فيقتلون المسلمين . يتغلبون على خراسان . يستبيحون بعض مناطق العجم . يفتحون العراق . تكون بحلب موقعة رهيبة . يهاجمون دمشق » . . الخ . إنَّها حركة الغزو المغولي حرفياً ، فكيف نعدّها من علامات الظهور ونفسرها بتحرّك تركي سوف يكون في المنطقة ؟!

وكذلك تتضمن هذه الأحاديث خطوطاً واضحةً من تحركات الروم والمسلمين في حركة صراعهم الطويلة ، ومن تحركات الإيرانيّين داخل إيران وخارجها ، وتتضمن معالم الصراع السياسي وأحياناً العسكري داخل الدولة الإسلامية بين العرب والموالي (حركة القومية والشعوبية) .

وبهذه الملاحظة قد يصل الباحث إلى نتيجة بسيطة هي أن هذه الأحاديث إمَّا أن تكون مكذوبة وضعت بعد وقوع الأحداث التي وصفتها ، أو أنها صحيحة صادرة عن النبي (ص) والأئمة (عليهم السلام) لوصف هذه الأحداث فقط ، وفي أحسن الحالات تكون علامات بعيدة لظهور المهدي (عليه السلام) ، ولكنَّها ليست بأي حال من علامات عصر الظهور ما دامت تحققت منذ قرون طويلة .

ولكن هذا التبسيط لا يَحُل المشكلة أيضاً ، لأن عدداً من أحاديث هذه التحركات تأبى التفسير بالماضي ، مثلاً أحاديث أن الروم (أي النصارى) سوف يتغلّبون على الأرض ، وأن المهدي (عليه السلام) سوف يقاتل بعضهم . وأحاديث قتال المسلمين لليهود بعد أن يكون لليهود وجود عسكري ، ويكشفون جانباً من هيكل النبي سليمان (عليه السلام) ، وأن المهدي (عليه السلام) يستخرج لهم التوراة من جبل بفلسطين ويحاجّهم بها ويقاتلهم . وأحاديث رايات

المشرق وخراسان الممهّدة للمهدي التي لا تنطبق على تحركات الإيرانيين الماضية . . وغير ذلك من الأحاديث التي تنصّ على أنّها علامات لعصر الظهور وسنة الظهور وليس فيها أثر من التحركات الماضية ؟؟

الذي أطمئن إليه في هذه الأحاديث أن قسماً منها صحيح فعلاً لروايته وتداوله بين المسلمين قبل حدوث التحركات التي وصفتها ، فتكون من دلائل صدق نبوة رسول الله (ص) ولكن لا علاقة لها من قريب ولا بعيد بعلامات عصر الظهور،وإنّما حشرها المؤلفون حشراً في الموضوع من دون قرينة على صلتها به ، أو أن الوضّاع أضافوا لها ربطاً بالظهور اشتباهاً أو افتراء على النبي (ص) والأئمة (عليهم السلام) . والقسم الأقل منها هو من أحاديث علامات عصر الظهور ، ويصحّ أن يبحث تحت هذا العنوان ، وهو بنظري : أحاديث حركة المسلمين واليهود ، وقسم من أحاديث حركة الروم ، وقسم من أحاديث حركة العرب ، وقسم من أحاديث حركة العجم ، وقليل من أحاديث الترك . وأمّا أحاديث المغربيّين فينبغي الأخذ بعين الاعتبار عند بحثها أن حركة الفاطميّين الإسماعيليّين كانت في أواخر القرن الثالث الهجري أكبر خطر داخلي هدّد الخلافة العباسية ، وقد ترك هذا الانقسام والصراع بين شطري الدولة الإسلامية الشرقي والغربي آثاراً كبيرة على المسلمين ، من أبسط مظاهرها أنّه كان يعبّر أول الأمر عن الفاطميين بالعلويين أو الفاطميين ، ولكن العباسيين تبنوا الطعن في نسبهم وأشهدوا على ذلك بعض القضاة والفقهاء فلم يعد أحد في مشرق الدولة الإسلامية يجرؤ أن يسمي الخليفة الفاطمي بالعلوي أو الفاطمي بل انتشرت تسمية (المغربي) أي الخارج عن الخلافة العباسية في المغرب أو حاكم المغرب الإسلامي . . وهذه هي كلّ

قصة المغربي الـذي تحول إلى شخصيّـة من علامـات ظهور المهـدي (عليه السلام) . إنَّ قراءة مجملة لحركة الفاطميين ولأحاديث « ظهور المغـربي » تكفي للاطمئنـان بعدم عـلاقتها بعصـر الظهـور ، وإن كان الكثيـر منها كمـا أشرنـا من معجزات النبي (ص) ، ومـا أخبـر بـه من الملاحم والأحداث الآتية فلأنَّه كان مرويّاً ومدوّناً قبل حركة الفـاطميين المغربيين بقرن أو أكثر .

ويمتد التأثيـر السلبي لأحاديث المغـربيين في علامـات الظهـور إلى الأحـاديث التي يـرد فيهـا ذكـر المغـرب والمشـرق أو الغـرب والشـرق ، فهي تحتـاج إلى تحقيق المقصـود منهـا ؛ هـل هـو شـرق الأرض وغـربها أو شـرق الدولـة الإسلاميـة وغربهـا ، وكـذلـك تعبيـر الشرقيين والغربيين وأهل الشرق وأهل الغرب .

من أجل ذلك وجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع التاريخي في أحاديث المغربي وكذلك واقـع غزو التتـار في الأحاديث المتعلقـة بالأتراك أو الترك . وبهذا المقياس لا يبقى لدينا منها إلاَّ القليل .

*

الآيات السماوية

١ ـ النداء من السماء ، ويسمّى في الأحاديث الشريفة أيضاً الصوت ، والصيحة .

وأحاديث هذه العلامة في مصادر الشيعة كثيرة متواترة وتعدّه إحدى المحتومات الخمس (اليماني ، والسفياني ، والنداء ، وقتل النفس الزكية ، وخسف البيداء[1] وأنه يكون في ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان في سنة ظهور المهدي (عليه السلام) على أثر خوف عام يشمل الناس بسبب الحرب ، يسمعه أهل الأرض كلّ قوم بلغتهم فيذهلون له ، ويخرجون إلى الشوارع ، يبشرهم بظهور المهدي ، يسمّيه باسمه واسم أبيه ويدعوهم إلى بيعته ، وأن قضية المهدي بعد النداء تصبح الشغل الشاغل للناس .

وفي مصادر السنة ورد في هذه العلامة عدة أحاديث أيضاً ، قسم منها يوافق ما ورد في مصادر الشيعة ، وأكثرها يذكر أن النداء يكون من ملك يسير في غمامة مع المهدي يقول : « هٰذا الْمَهْدِي فَاتَّبِعُوهُ » أو « هٰذا الْمَهْدِي خَلِيفَةُ الله فَاتَّبِعُوهُ » .

من أحاديث النداء :

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَنانٍ قالَ : « كُنْتُ عِنْدَ أبِي عَبْدِ الله الصَّادِقِ (عليه السلام) فَسَمِعْتُ رَجُلاً مِنْ هَمْدانَ يَقُولُ لَهُ : إنَّ هٰؤُلاءِ الْعامَّةَ يُعَيِّرُونَنا وَيَقُولُونَ لَنا : إنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أنَّ مُنادِياً يُنادِي مِنَ السَّماءِ بِاسْمِ صاحِبِ هٰذا الأمْرِ ! وَكانَ مُتَّكِئاً فَغَضِبَ وَجَلَسَ ثُمَّ قالَ : لا تَرْوِه عَنِّي وَارْوِهِ

---

(١) كما وردت بذلك الأحاديث وكما عدها النعماني في كتاب الغيبة ص ٥١ .

عَنْ أَبِي وَلاَحَرَجَ عَلَيْكُمْ في ذٰلِكَ،أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبِي (عليه السلام) يَقُولُ : والله إنَّ ذٰلِكَ في كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ بَيِّنٌ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1] .

وَعَنْ سَيْفِ بْنِ عُمَيْرَةَ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ فَقَالَ ابْتِدَاءً : يَا سَيْفُ بْنُ عُمَيْرَةَ لاَ بُدَّ مِنْ مُنَادٍ يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ بِاسْمِ رَجُلٍ مِنْ وُلْدِ أَبِي طَالِبٍ . فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرْوِي هٰذَا ! قَالَ : إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِسَمَاعِ أُذُنِي لَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هٰذَا الْحَدِيثَ مَا سَمِعْتُهُ قَبْلَ وَقْتِي هٰذَا . قَالَ : يَا سَيْفُ ، إِنَّهُ لَحَقٌّ ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ فَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يُجِيبُ ، أَمَا إِنَّهُ نِدَاءٌ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَمِّنَا . فَقُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا سَيْفُ ، لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ يُحَدِّثُنِي بِهِ وَلَوْ يُحَدِّثُنِي أَهْلُ الأَرْضِ كُلُّهُمْ مَا قَبِلْتُهُ مِنْهُمْ ، وَلٰكِنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ »[2] .

وَعَنِ النَّبِيِّ (ص) : « إِذَا نَادَىٰ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّ الْحَقَّ فِي آلِ مُحَمَّدٍ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَظْهَرُ الْمَهْدِيُّ عَلَىٰ أَفْوَاهِ النَّاسِ ، يُشْرَبُونَ ذِكْرَهُ فَلاَ يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُهُ »[3] .

٢ ـ طلوع الشمس من مغربها ، وردت هذه العلامة في عدة أحاديث في مصادر الشيعة والسنة . ولكن أكثر الأحاديث التي في مصادر السنة وقسماً منها في مصادر الشيعة تذكر أنها من علامات الساعة،أي القيامة ، وهو المرجّح عندي .

أمَّا الرواية التي تقول عن المهدي (عليه السلام)«وَهُوَ الشَّمسُ

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٢٩٢ .

(٢) الإرشاد المفيد ص ٤٠٤ .

(٣) كتاب الفتن لنعيم بن حماد ص ٩٢ (مخطوطة) ورواه في بشارة الإسلام عن الملاحم للمناوى .

الـطَّالِعَةُ مِنْ مَغْـرِبِهَا »[1] فـلا تصلح أن تكون قـرينـة على أنَّ المقصـود بـطلوع الشمس من مغربهـا في هذه الأحـاديث المعنى المجـازي،أي طلوع شمس الإسلام بعد غيابها،أو طلوع المهدي (عليه السلام) بعد غياب . . فإن صراحة أحاديث طلوع الشمس من مغربهـا تدلّ على أنَّ المقصود هو المعنى الحقيقي للشمس والطلوع .

٣ ـ الكسـوف والخسـوف في غيـر وقتهمـا ، وردت فيـه بضعـة أحاديث في مصادر الشيعـة وبعض أحاديث في مصـادر السنة ، وتتّفق على أنَّهما يكونـان في شهر رمضـان بعد الصيحـة ، وأن ذلك لم يكن منـذ هبط آدم ومنـذ خلق الله السمـوات والأرض . . وتختلف هـذه الأحاديث في تحديد يوم حدوث هاتين الآيتين .

٤ ـ علامات أخرى في الشمس ، وردت في أحاديث متفرقة في مصـادر الشيعة وأحـاديث قليلة في مصادر السنـة ، مثل : ذهـاب نـور الشمس من طلوعهـا إلى ثلثي النهـار ، وتـوقفهـا مـن الـزوال إلى الغروب ، وظهور وجه إنسان وصدره في الشمس ، وقد فسّـره بعضهم بـالمسيـح (ع) وظهـور كفّ أو يـد في الشمس أو في السمـاء تشيـر : هذا . . هذا . وفي روايـة نعيم بن حمَّاد عن أسمـاء : « إنَّ أمَارَةَ ذٰلِـكَ الْيَوْمِ أَنَّ كَفّاً مِنَ السَّمٰاءِ مُدّلاةً يُنْظَرُ إلَيْهَا مِنَ النَّاسِ »[2] .

٥ ـ ظهور حمرة تجلل آفاق السماء،وتبقى ثلاثة أيام.وردت فيها بعض أحاديث في مصادر الشيعة والسنة وفيها إجمال ، ويبدو أنَّ وقتها قبل ظهور المهدي (عليه السلام) بمدة لـردع الناس عن معـاصيهم ؛ كما ورد في أكثر من حديث .

---

(١) إلزام الناصب ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الفتن لابن حماد ص ٩٣ (مخطوطة) .

٦ ـ الكوكب المذنب ، ورد أنه نجم يطلع في المشرق يضيء كما يضيء القمر ، ثمَّ ينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه ، وفي بعضها أن ذنبه يضيء فقط ، وأنه يفزع العرب . ولا يفهم من أحاديثه المتفرّقة التي وردت في مصادر الشيعة والسنة تحديد وقته ، ويظهر أنّه ليس كبقية المذنبات التي هي من آيات الله الكونية المتعارفة ، بل له مواصفات خاصة فهمها المسلمون في صدر الإسلام،فقد روى نعيم بن حمَّاد في الفتن عن الوليد قال : «رَأَيْنا رَجْفَةً أَصابَتْ أَهْلَ دِمَشْقَ في أَيّامٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضانَ فَهَلَكَ ناسٌ كَثِيرٌ فِي شَهْرِ رَمَضانَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاثِينَ وَمائَةٍ ، وَلَمْ نَرَ ما ذُكِرَ مِنْ الْواهِيَةِ وَهِيَ الْخَسْفُ آلَّذِي يُذْكَرُ فِي قَرْيَةٍ يُقالُ لَها حَرَسْتا ، وَرَأَيْتُ نَجْماً لَهُ ذَنَبٌ طَلَعَ فِي آلْمُحَرَّمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَمائَةٍ مَعَ الْفَجْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ،فَكُنَّا نَراهُ بَيْنَ يَدَيِ الْفَجْرِ بَقِيَّةَ الْمُحَرَّمِ ، ثُمَّ خَفِيَ ، ثُمَّ رَأَيْناهُ بَعْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ في الشَّفَقِ،وَبَعْدَهُ فِيما بَيْنَ الْجَوْفِ لِشَهْرَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ ، ثُمَّ خَفِيَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً . ثُمَّ رَأَيْنا نَجْماً خَفِيّاً لَهُ شُعْلَةٌ قَدَرُ الذِّراعِ رَأْيَ الْعَيْنِ قَرِيباً مِنَ الْجَدْيِ، يَسْتَدِيرُ حَوْلَهُ بِدَوَرانِ الْفَلَكِ فِي جَمادَيْنِ وَأَيّاماً مِنْ رَجَبٍ،ثُمَّ خَفِيَ . ثُمَّ رَأَيْنا نَجْماً لَيْسَ بِالأَزْهَرِ طَلَعَ عَنْ يَمِينِ قِبْلَةِ الشّامِ، مادّاً شُعْلَتَهُ مَنِ الْقِبْلَةِ إلىٰ الْجَوْفِ إلىٰ أَرْمِينِيَّةَ ، فَذَكَرْتُ ذٰلِكَ لِشَيْخٍ قَدِيمٍ عِنْدَنا مِنَ السَّكاسِكِ فَقالَ : لَيْسَ هٰذا بِالنَّجْمِ الْمُنْتَظَرِ . قالَ الْوَلِيدُ : وَرَأَيْتُ نَجْماً فِي سُنِيّاتٍ بَقِينَ مِنْ سِنِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ (المنصور) ثُمَّ انْعَقَدَ حَتَّى الْتقىٰ طَرَفاهُ فَصارَ لِطَوْقٍ ساعَةً مِنَ آللَّيْلِ ، قالَ الْوَلِيدُ : وَقالَ كَعْبٌ:هُوَ نَجْمٌ يَطْلُعُ مِنَ الْمَشرِقِ وَيُضيءُ لأَهْلِ آلأَرضِ كإضاءةِ القمرِ ليلَةَ البدرِ .

قالَ الوَلِيدُ : وَالْحُمْرَةُ وَالنُّجُومُ الَّتِي رَأَيْناها لَيْسَتْ بِالآياتِ، إنَّما نَجْمُ آلآياتِ نَجْمٌ يَتَقَلَّبُ فِي آلآفاقِ في صَفَرٍ وَفي رَبِيعَيْنِ أَوْ في رَجَبٍ ، وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَسِيرُ خاقانُ بِالأَتْراكِ تَتْبَعُهُ رُومُ الظَّواهِرِ بِالرّاياتِ وَالصُّلُبِ ، قالَ الْوَلِيدُ قالَ : بَلَغَنِي عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قالَ : يَطْلَعُ نَجْمٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَبْلَ خُرُوجِ

الْمَهْدِيِّ لَهُ ذُنَابٌ »[1] .

٧ ـ كثرة الأمطار ، ورد فيها عدة أحاديث في مصادر الشيعة وأن سنة ظهوره (عليه السلام) تكون سنة غَيْداقةً كثيرة الأمطار ، وأنَّ العلامات تختم بأربع وعشرين مطرة يرى أثرها وبركتها ويحيي بها الله الأرض فتخرج خيراتها .

وأحاديث هذه العلامة تحتاج مضافاً إلى التحقيق العادي فيها إلى ملاحظة إشكالين أولهما ، معارضتها بأحاديث أخرى تذكر أن من علامات الظهور الجدب وقلة الأمطار . وثانيهما ، أن الأحاديث التي تحدّد الأربعين يوماً التي يتواصل مطرها بأنَّها تكون في جمادى والعشر الأُوَل من رجب ، تتعارض مع كونها خاتمة العلامات ، لأن خاتمة العلامات النداء والكسوف والخسوف في رمضان،وحملها على رجب من السنة الثانية ضعيف لأنَّ ظهوره (عليه السلام) في محرَّم،فيكون مطر الأربعين يوماً بعد الظهور وليس ختام العلامات ، ولا يبعد أن يكون هذا المطر المتواصل في جمادى ورجب بعد ظهوره (عليه السلام) وأن عدّه من علامات الظهور من باب التوسّع في التسمية .

*

(١) الفتن لابن حماد ص ٦٠ (مخطوطة) .

الآيات الأرضية

٨ ـ نار الحجاز ، وفي هذه العلامة أحاديث متعددة في مصادر الشيعة والسنة ، وأكثرها يحدّد مكانها في الحجاز بجبل الورّاق أو بحَبْس سَيْل كما في مستدرك الحاكم ج ٤ ـ ص ٤٤٢ أو في وادي حسيل وهو كما يبدو من تصحيف النساخ عن حبس سيل . وقد ذكر الحموي في معجم البلدان أن حبس سيل إحدى حَرَّتَيْ بني سُلَيْم. والحرّة منطقة صحراويّة داكنة ، وحرة بني سليم قرب المدينة المنوَّرة .

وبعضها تحدد مكانها في واد بقعر عدن من حضرموت ، أو تذكر أنَّها بالمشرق دون تحديد . وأكثر أحاديث هذه العلامة الواردة في مصادر السنة تنص على أنَّها من علامات الساعة ، وبعضها تؤكد وقوعها قبل الساعة بشكل مطلق دون تحديد ، كما في صحيح مسلم ج ٨ ـ ص ١٨٠ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ بِالْحِجَازِ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبِلِ بِبُصْرىٰ » أي يصل نورها إلى مدينة بصرى قرب الشام ، ويوافق هذه الأحاديث بعض ما في مصادر الشيعة من أنَّ نار عدن تسوق الناس إلى المحشر ، أو تسوق الناس من المشرق إلى المغرب . والأحاديث الباقية تذكر أنَّها علامة لظهور المهدي (عليه السلام) وأنَّها قدّام قيامه بقليل ، أو قبل غرق البصرة والفتن المتلاحقة .

ولا يبعد أن تكونا نارين إحداهما علامة لظهور المهدي (عليه السلام) والأخرى من علامات الساعة .

٩ ـ الزلازل والخسف ، والثابت المتواتر من هذه العلامة

أحاديث الزلزلة وخسف البيداء بجيش السفياني الـذي يتوجّـه إلى مكة المكرَّمة لقتـال المهدي (عليـه السلام) ، وكـذلك الـزلازل والخسف في دمشق ، قبـل خروج السفيـاني ، وأحاديث هـذه العلامـة كثيرة في مصادر الشيعة والسنة ، وسيأتي ذكرها في أحداث الظهـور إن شاء الله تعالى .

أمّا الأحاديث المتفرّقة البـاقية فيـذكر بعضهـا خسفاً بـالمشرق ، وخسفـاً بالمغـرب ، وخسفاً في بغـداد وخسفـاً في البصـرة ، ويـذكـر بعضها كثرة الزلازل في الأرض .

*

الفصل الثاني

تصوّر عام لظهور المهدي (ع)

تصوّر عامّ لظهور المهدي (عليه السلام)

مع أن هذا التصوّر الذي سنقدّمه صحيح في نظرنا بشكل عام ، فإن هذا الفصل ليس بحثاً علمياً بل هو عرض قصصي لظهور المهدي (عليه السلام) وتصوّر كليّ لهذا الحدث الفريد كما استفدناه من أحاديث بشارة النبي (ص) بظهور المهدي (ع) ، فإن اطلاع القارىء على الصورة الكليّة والخطوط العامة يمكّنه من متابعة البحث الاستدلالي في موضوعاته بشكل أفضل .

الساحة الجغرافية للحدث

تتركّز الساحة الجغرافية للحدث في (بلاد الشام وفلسطين ، وفي إيران والعراق ، وفي الحجاز) فهذه المنطقة بالتحديد هي مصدر الموج الإسلامي الهادر الذي تتحدث عنه النصوص ، وهي ملتقى الصراع السياسي والعسكري بين ثورة المهدي (ع) وبين الاتجاه التحريفي العميل للغرب ـ حركة السفياني ـ أولاً ، ثمَّ بينها وبين اليهود والغرب مباشرة . . وكل الأحداث التي تحصل في البلاد القريبة من هذه المنطقة كمصر والمغرب الإسلامي واليمن ، أو البعيدة عنها كبلاد الروم وشرق الأرض وغربها ، على حد تعبير الأحاديث الشريفة ، تكون امتداداً وانعكاساً لموج وأحداث هذه الساحة التي يصنع فيها مستقبل العالم وتصاغ أوضاعه الجديدة .

وهذه الحقيقة تساعد عليها اعتبارات حركة الصراع الحضارية التاريخية والفعلية في هذا العالم . . فإن مركز الثقل السياسي منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) لم يتعد هذه الساحة وما حولها . فهو لم ينتقل من بلد منها إلاَّ ليحلّ في بلد آخر . ولم يبتعد عن المنطقة إلاَّ ليعود إليها .

لقد كانت هذه المنطقة قلب العالم القديم والقوة الفاعلة في حضارته ، ولذلك تركزت جهود الأنبياء (عليهم السلام) على شعوبها لكي تحمل رسالتهم . . فكانت نينوى قاعدة العالم الجديد على يد نوح (عليه السلام) . وفلسطين والحجاز ومصر قاعدة لرسالات موسى وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) . . ولأمر ما أقسم الله تعالى بجغرافية هذه المنطقة في قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ والزيتُون* وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذا البَلَدِ الأمِينِ ﴾ .

بل نلاحظ في مطلع الدعوة الإسلامية أن إفريقيا كانت حقلاً سهلاً أمام رسول الله (ص) ولكنه اكتفى بأن اتّخذ منها ملجأً للمسلمين من الاضطهاد ، وأبقاهم لعدة سنوات بعد إقامة الدولة الإسلامية في المدينة قاعدةً احتياطيةً وخطاً ثانياً . . ووجه جهوده للامتداد بالإسلام نحو آسيا . . وبالذات نحو هذه المنطقة ذات القابلية الخاصة في حمل الرسالة إلى العالم .

بل نلاحظ من اهتمام القرآن الكريم بمسألة الارتباط العقائدي للمسلمين بإبراهيم (عليه السلام) . . ومن الربط الجغرافي بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . .

ومن حديثه عن علاقة التناقض بين المسلمين وأهل الكتاب اليهود والنصارى . . أنَّ الوضع العالمي يتلخّص في صراع حضاري

طويل ، ساحته هذه المنطقة من العالم .

*

وفي المقابل كانت المنطقة هدفاً لسيطرة كلّ الحضارات والقوى الحيوية التي نشأت في أطراف العالم ، والتي من أمثلتها اليونان والرومان والصينيون . ومن أمثلتها الحديثة أنَّ المنطقة ظلّت هدفاً للسيطرة لدى الروم والأوروبيين ومن تفرّع عنهم من الروس والأمريكان ما يقرب من عشرة قرون . . وبعد أن استطاعوا القضاءعلى كيانها السياسي والسيطرة عليها في مطلع هذا القرن بدا وكأنَّ الثقل السياسي قد ودّع بلدان المنطقة البائسة الخاضعة للاحتلال ليستقرّ في عواصم الدول الكبرى التي أصبحت (قلب) العالم ومصنع أحداثه . . ولكن سرعان ما ظهرت المنطقة مركز الثقل السياسي العالمي من جديد ، ليس بسبب ظهور أنَّها البئر النفطي للعالم ، ولا بسبب موقعها الستراتيجي فحسب . . بل بسبب انكشاف أنَّها ساحة الصراع الحاسم بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية .

إنَّ ما يبدو مستغرباً من تركزّ أحداث ظهور المهدي (ع) في هذه الساحة الجغرافية هو الطبيعي في المنطق الإسلامي ، ومنطق التاريخ ، ومنطق الصراع الحضاري في عصرنا ، والذي يضطر للاعتراف به كل الباحثين في تاريخ الحضارة .

وليس جديداً أن نشير إلى أن الغربيّين يدركون أهميه المنطقة مادياً واستراتيجياً وحضارياً ، ولذلك يعملون لإبقاء سيطرتهم وقمع مقاومة أهلها بكل ما أوتوا من قوّة ووسائل ، بحجة أنَّها منطقة المصالح الحيوية لبلدانهم .

وفي هذه الساحة الجغرافية نقرأ عن مدينة تمثل مركز الثقل

ونقطة الهدف في أحداث الظهور . . هي القدس ، أو بيت المقدس ، أو إيلْيَاء ، كما تسميها النصوص .

فمكة المكرمة وإن كانت مركز الانطلاقة لتحرك المهدي (ع) فإن القدس هي الهدف وهي الميزان الفصل في الصراع الحضاري الذي تصفه الأحاديث ، لأن الانتصار في معركتها يعني الانتصار الشامل في كل العالم ، خاصة وأن عيسى (عليه السلام) ينزل في القدس ـ بعد أن يدخلها المهدي (عليه السلام) ـ ويؤدي دوره الهام في حسم المعركة لصالح الإسلام .

عندما نقرأ في هذه الأحاديث الشريفة مسيرة المهدي الزاحفة من مكة إلى القدس نشعر بأنَّها التأويل الحضاري لإسراء النبي (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾[1] .

نعم ، إنَّ مستقبل العالم يتقرّر في الانطلاق من المسجد الحرام والوصول إلى المسجد الأقصى . . ولكن هذه الحركة ـ كما تدلّ النصوص ـ لا تكون ابتدائية ، وإنَّما تأتي تتويجاً لحركة الأمة باتجاه القدس ، فالأمة الممزّقة المغلوبة على أمرها تتحرك بالإسلام من جديد . . فهي في بلاد الشام وفلسطين تتحرك لرفض الخضوع . وفي إيران تحطم قيودها وتتجه نحو القدس مُصِرَّةً على إزالة العقبات التي تعترض طريقها . وفي اليمن يظهر قائد مسلم يتوجه نحو القدس . . .

وفي المقابل فإنَّ حركة أعداء الأمّة تكون كذلك باتجاه القدس ، فالروم واليهود ينزلون فلسطين ، وتأتي قواتهم « تحت ثمانين راية » وتنزل في شواطىء عكّا وصور وأنطاكية .

---

(١) سورة يونس : ٣٩ .

والحركة الوحيدة الناشزة عن الاتجاه إلى نقطة الهدف ، هي حركة السفياني التي هي في الواقع حركة اعتراضية لزحف الأمة تتجه من بلاد الشام نحو العراق وإيران . . لكنّها سرعان ما تنتهي .

*

الوضع السياسي العالمي

تصف الأحاديث الشريفة الوضع السياسي العالمي في عصر الظهور بفقدان الاستقرار وكثرة الاختلافات والحروب الجزئية التي تنتهي بحرب عالمية يقع أكثر دمارها على دول الغرب « وتشبّ في الحطب الجزل في غربي الأرض » وتكون عاملاً مساعداً في انتصار حركة المهدي (عليه السلام) ودخوله إلى القدس ، ونزول المسيح (عليه السلام) فيها .

« أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِي يُبْعَثُ في أُمَّتِي عَلىٰ اخْتِلاٰفٍ مِنَ النَّاسِ وَزِلْزَال » ،

« وَيَوْمَئِذٍ يَكُونُ اخْتِلافٌ كَثِيرٌ في الأَرْضِ وَفِتَنٌ » ،

«قَبْلَ هٰذَا الأَمْرِ قَتْلٌ بَيُوحٌ . . قِيلَ وَمَا الْبَيُوحُ ؟ قالَ : دٰائِمٌ لاٰيَفْتُرُ » ،

« قُدَّامَ الْقَائِمِ مَوْتَانِ : مَوْتٌ أَحْمَرُ ، وَمَوْتٌ أَبْيَضُ ، حَتَّى يَذْهَبَ مِنْ كُلِّ سَبْعَةٍ خَمْسَةٌ » .

وتحدد النصوص سبب هذه الحرب بمشكلة بلاد الشام وفلسطين التي تبدأ في أولها صغيرة « أَوَّلُهَا كَأَنَّهُ لَعِبُ الصِّبْيَانِ » ثم تكبر وتتعقد وتعجز كل المحاولات عن حلها،وتفشل كل المبادرات المطروحة لها « لاٰ يَهْدَأُ مِنْهَا جٰانِبٌ إِلاَّ جٰاشَ فِيهَا جٰانِبٌ » و « لاٰ تَرْتُقُونَ مِنْهَا جٰانِباً إِلاَّ انْفَتَقَ مِنْهَا جٰانِبٌ » .

وتشير بعض الأحاديث إلى أن هذه الحرب تكون بعد دخول

جيش السفياني وجيش الإيرانيين إلى العراق . وتذكر أن خسائرها كبيرة جداً تبلغ في بعض الأحاديث الثلثين من سكّان الأرض وأكثر . وأمّا عبارة « يُقْتَلُ فِيهَا ثَلاثَةُ آلاف ألف » ، الواردة في بعض الأحاديث فالظاهر أن المقصود بها الكناية عن الكثرة وليس التحديد بثلاثة ملايين ، لأن عامة الأحاديث الأخرى تذكر أن خسائرها أكثر من ذلك .

*

القوى الفاعلة في ساحة الظهور

١ ـ بلاد الشام وفلسطين :

بالرغم من حالة الضعف السياسي الشديد التي تذكرها الأحاديث الشريفة عن مسلمي بلاد الشام (لبنان وسوريا والأردن) بسبب تسلط عدوهم عليهم واختلافاتهم المتعددة « يُرْسِلُ الله عَلىٰ أَهْلِ الشَّامِ مَنْ يُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ أَنَّ الثَّعَالِبَ قَاتَلَتْهُمْ لَغَلَبَتْهُمْ » ، إلاّ أن لهم دوراً هاماً في تفشيل الحلول الاستسلامية التي يعمل أعداء الأمة على فرضها . فتشتيت قوة المسلمين المحيطين بفلسطين وجعلهم ساحة للتناقضات السياسية،وإنْ أفقدهم الدور الموحد الفعال في مواجهة العدو ، فإن الأصالة والحيوية التي يتمتّعون بها من جهة ، ونفس حالة التناقضات الدولية والمحلية من جهة . . سوف تمكّنهم من الاحتفاظ بسخونة المواجهة مع العدو .

وقد ورد في الأحاديث أن فتنة بلاد الشام تدوم ثمانية عشر عاماً وفي حديث أنّها تدوم اثني عشر عاماً ، وقد يكون هذا الرقم رمزياً ، أو لبيان الكثرة . . وفي أواخرها تحدث « هَزَّةٌ » أو « رَجْفَةٌ » يقتل فيها مئة ألف ، وقد تكون حرباً خاطفة أو هزة أرضية . . ويدخل على أثرها

إلى الشام جيش المغاربة وهو مصطلح لمغرب الدولة الإسلامية ، ثمَّ يكون اختلاف أهل الشام على ثلاث رايات بقيادة الأصهب أي الشديد الشقرة المائل إلى الصفرة ، والأبقع أي الأبرص ، والسفياني وهو شخص اسمه عبد الله أو عثمان قد يكون من ذرية عنبسة بن أبي سفيان ، ويتمكّن السفياني من تصفية خصومه والسيطرة على سوريا والأردن ، ثمَّ لا يكون له همة إلاَّ التوجّه إلى العراق .

يظهر أن الغربيين عندما يشعرون بخطورة التهديد الإيراني العراقي لإسرائيل يعتمدون أسلوباً جديداً غير أسلوب التمزيق في المنطقة المحيطة بفلسطين ، فيقومون بمساندة السفياني لكي يسيطر على سوريا والأردن،ويحوّل توجه الأمة عن القدس إلى العراق وإيران .

وتصف الأحاديث شخصية السفياني وتحركه بأوصاف كثيرة مفصّلة : منها ارتباطه بالغرب وأنه يتحالف مع (الروم) خوفاً من المهدي ، وأن جماعته يلجأون بعد هزيمته إلى الروم فيسترجعهم أصحاب المهدي ويقتلونهم .

ومنها ، أنه يظهر أول الأمر بمظهر المسلم المتديّن ثمّ تنكشف حقيقته .

ومنها ، أنه يثير التعصّب المذهبي بين المسلمين ويطرح نفسه حامياً للمذهب السني ويرفع شعار القضاء على الشيعة .

ومنها ، أن حركته تحقق نجاحاً سريعاً في شهور معدودة ولكنَّها لا تلبث أن تنهار في أقل من سنتين .

وأنَّه يخوض معركة مع الأتراك وبعض الروم في منطقة قرقيسيا (دير الزور) وينتصر عليهم ، وهي المعركة الموصوفة في الأحاديث

بأنّها مـأدبة الله التي تشبـع فيها سبـاع الأرض وطيور السمـاء من لحوم الجبارين ، أمّا سببها فهو اكتشاف كنز من ذهب وفضـة أو غيرهمـا في دلتا الفرات أو في مجرى الفرات عند الحدود السورية التركية العـراقية تختلف عليه ثلاث فئات ثمَّ لا يكون لأحد منهم .

وبعد معركة قرقيسيا يستغل السفياني حالة الضعف السياسي في العراق فيقوم بحملة عسكرية تدخل العـراق وترتكب مجـازر في بغداد وغيرها لأسابيع محدودة ، حتى تدخل قوات الإيرانيين فتهزمها .

كما يحاول السفياني ملء حالة الفراغ السياسي والعسكري التي تحـدث في الحجاز ، فيـوجـه جيشـاً إلى الحجـاز يتمكن من احتـلال المـدينة المنـورة ويرتكب فيهـا مجازر ، ثم يتـوجه إلى مكـة المكرمـة لقمع حركة المهدي (ع) التي تكون في بدايـات ظهورهـا،فيخسف الله تعـالى بجيشه الأرض قبيل وصولهم إلى مكـة فـلا ينجـو منهم إلاَّ نفـر يسيـر . وتسمَّى هـذه الحـادثـة في الأحـاديث خسف البيـداء بجيش السفياني وتكون آية لانطلاقة المهدي (ع) وتحركه من مكة .

« فَيَبْلُغُ أَمِيرَ الْجَيْشِ أَنَّ الْمَهْدِيَّ قَدْ خَرَجَ إِلىٰ مَكَّةَ فَيَبْعَثُ جَيْشاً عَلىٰ أَثَرِهِ فَلا يُدْرِكُهُ حَتَّى يَدْخُلَ مَكَّةَ خائِفاً يَتَرَقَّبُ عَلىٰ سُنَّةِ مُوسىٰ بْنِ عِمْرانَ ، وَيَنْزِلُ أَمِيرُ جَيْشِ السُّفْيانِي فِي الْبَيْداءِ،فَيَأْمُرُ الله الْأَرْضَ فَتَأْخُذُهُمْ مِنْ تَحْتِ أَقْدامِهِمْ.وَهُوَ قَوْلُهُ تَعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ﴾ .

. . . وبعـد هلاك قـوات السفياني في الحجـاز والهـزيمـة التي تمنى بها على يد رايات المشرق في العراق تعود المعركة إلى سـاحتها الأساسية ، بلاد الشام وفلسطين،فيقوم السفياني بتجميع قواته في الشام استعـداداً لأكبر معـارك المنطقـة في أحداث الـظهور ، معـركة تحـرير

القدس، التي يمتد محورها من دمشق إلى طبرية فالقدس ، ممّا يدلّ على أن قوات السفياني تكون في خندق واحد مع القوات الإسرائيلية والغربية « إِذا قامَ الْقائِمُ وَبَعَثَ جَيْشَهُ إِلىٰ بَنِي أُمَيَّةَ هَرَبُوا إِلىٰ الرُّومِ، فَيَقُولُ لَهُمْ الرُّومُ لاٰنُدْخِلُكُمْ حَتّىٰ تَدْخُلُوا فِي دِينِنَا فَيَفْعَلُونَ » .

وتشير الأحاديث إلى فترة تحشيد القوات لهذه المعركة ، ووصول قوات المهدي (ع) بقيادة شعيب بن صالح قائد قوات الخراسانيين إلى مرج عذراء قرب دمشق ، وانضمام جماعات من مسلمي المنطقة إلى صفّهم (أبدال أهل الشام) وفرار جماعة من جيش المهدي (ع) والتحاقهم بالسفياني ، وأن ذلك الفرز مصداق قوله تعالى: ﴿ وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ويسمّى يوم التمايز .

كما تشير إلى العنايات الإلٰهيّة التي ترافق قوات المهدي (ع) في معركة فتح القدس « فَيَغْضَبُ اللهُ عَلىٰ السُّفْيانِيِّ وَيَغْضَبُ خَلْقُ آللهِ لِغَضَبِ اللهِ تَعالىٰ فَتَرْشُقُهُمْ الطَّيْرُ بِأَجْنِحَتِهَا وَالْجِبالُ بِصُخُورِهَا وَالْمَلاٰئِكَةُ بِأَصْوٰاتِهَا » وأن قوات المهدي (ع) تحقق انتصاراً سريعاً وساحقاً يستسلم على أثره اليهود ويهرب السفياني فيقبض عليه رجل اسمه صباح عند طبريّة ، بينما يهرب جماعته إلى الروم (أوروبا) فيطالب بهم أصحاب المهدي ويهددون الدولة التي تعطيهم حق اللجوء السياسي فتضطّر إلى تسليمهم .

وهكذا تدل أحاديث المهدي (عليه السلام) على أن انهيار إسرائيل وتحرير القدس يتم في معركة ضارية غير طويلة ، تكون نتيجتها مفاجئة تماماً ، ويقودها المهدي (عليه السلام) . . ولكنها لا تنفي أن تقوم الأمة قبل ظهوره بمعارك ناجحة تحقق فيها انتصارات على اليهود وتحصر فيها رقعة إسرائيل ، بل قد يكون ذلك هو المقدمات الطبيعية للمعركة النهائية الحاسمة .

٢ ـ إيران :

تأتي إيران في طليعة القوى الفاعلة في أحداث عصر الظهور ويسمّى الإيرانيون في الأحاديث الشريفة : « أَهْلُ الْمَشْرِقِ الْمُوَطِّئُونَ لِلْمَهْدِيِّ ، وَقَوْمُ سَلْمانٍ وَرايَاتُ الْمَشرِقِ ، وَأَصْحابُ الرّايَاتِ السُّودِ ، والْخُراسَانِيُّونَ » .

وتسمّي الأحاديث عدداً ، من قادتهم كالسيد الأكبر الذي تكون راياتهم مختومة بخاتمه ، والهاشمي الخراساني الزعيم السياسي الذي بكفّه اليمنى خال ، وشعيباً بن صالح الفتى الأسمر الحديدي من أهل الريّ (طهران) قائد قواتهم الذي يجعله المهدي (ع) قائداً لقواته ، وكنوز الطالقان ، وهم شبان من منطقة الطالقان ، إلى الشمال من طهران ، من أصحاب المهدي (ع) وَصَفَتْهُم الأحاديث بأنّهم من كنوز الله،وأنّهم عرفوا الله حقّ معرفته ، ووصفت صلابتهم العقائدية والعسكرية وحبّهم للمهدي (ع) .

وتمدح الأحاديث بلدة قم التي يظهر فيها العلم ويفيض على أهل المشرق والمغرب وتكون حجة على الناس ، وأنّه يخرج منها رجل يدعو الناس إلى الحقّ،وأن قلوب أصحابه كقطع الحديد كناية عن صلابة عقيدتهم وقوتهم ، وأنّهم « لا تُزَعْزِعُهُمْ الْعَواصِفُ ، أَرْسىٰ مِنَ الْجِبالِ الرَّوَاسِي ، لا يَكِلُّونَ مِنَ الْقِتالِ وَلا يَجْبُنُونَ ، يُؤَيِّدُ الله بِهِمُ الدِّينَ » .

وتصف الأحاديث الإيرانيين بأنّهم يطلبون الحقّ فلا يُعْطَوْنَه ثمّ يطلبونه فلا يعطونه ، فيقاتلون ويصبرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلون . . حتى يدفعوا الراية إلى المهدي (ع) . ويقتضي أن يكون الحقّ الذي يطلبونه من أعدائهم هو أن لا يعتدوا عليهم ، ولا يعملوا

على منعهم من انتهاج سياستهم الإسلامية في داخل دولتهم وفي علاقاتهم الخارجية .

والأحاديث عن الإيرانيين منها أحاديث عامة في مدحهم وبيان دورهم في التمهيد للمهدي (ع) وهي أحاديث كثيرة في مصادر السنة والشيعة على السواء . ومنها ما يتعلّق بمرحلة ما قبل ظهور الهاشمي الخراساني وشعيب بن صالح وهي قليلة نسبياً وأكثرها في المصادر الشيعية ، ولم أعثر على تحديد لمدة هذه المرحلة مما يساعد على احتمال أن تمتد سنين طويلة .

ومنها ما يتحدّث عن مرحلة الهاشمي وشعيب ، ويصف تحركاتهما وأوضاعهما ، وهي أحاديث كثيرة مفصّلة في مصادر الشيعة والسنة،ولكنّها في مصادر السنة أكثر . وهي تحدد الفترة من ظهور الهاشمي وشعيب إلى أن يسلموا الأمر إلى المهدي (ع) باثنين وسبعين شهراً ، ولكنّها لا تحدد المدة ما بين الرجل الذي يخرج من قم أو السيد الأكبر وما بين شعيب والهاشمي كما ذكرنا .

وتشير الأحاديث إلى أنّهم يكونون في حرب مع أعدائهم حتى إذا رأوا أن الحرب قد طالت عليهم بايعوا الهاشمي الخراساني الذي يختار ـ على أثر مبايعته أو انتخابه ـ شعيباً بن صالح قائداً لقواته .

وتتركّز الأحاديث على وصف معارك الإيرانيين خارج إيران في العراق وبلاد الشام وفلسطين ، ممّا يدلّ على استقرار وضعهم السياسي الداخلي ، ويشير بعضها إلى حالة خلل واحدة في الوضع الإيراني الداخلي عند معركة قرقيسيا ـ وهي مدينة قديمة على الحدود السورية العراقية التركية تقع آثارها قرب المدينة السورية المعروفة دير الزور ـ التي تكون أساساً بين السفياني والأتراك وبعض الروم

(الغربيّين) ، وتكون قوات الإيرانيين قريباً منهم ، وكأنَّهم يريدون المشاركة فيها ولكنَّهم ينسحبون من قرقيسيا لمعالجة « فَتْقٍ يَنْفَتِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » فيرجعون إلى بلادهم ويعالجون الوضع الداخلي ويستعدون لمواجهة السفياني بعد انتصاره في قرقيسيا .

يتركّز تحرّك الإيرانيين في هذه الأحاديث الشريفة باتجاه القدس عبر العراق ، ولا تذكر لهم تحركاً باتجاه الحجاز أو الجزيرة ، ما عدا الزحف الشعبي إلى منطقة إصطخر وهي منطقة شيراز التي تقابلها في الضفّة الأخرى من الخليج منطقة الحجاز الشرقية ، الأحساء والقطيف . . وذلك عندما تتصاعد أحداث الحجاز ويخرج المهدي (عليه السلام) في مكة فيخرج أهل المشرق لاستقباله وهو متّجه من الحجاز إلى العراق ، فيوافيهم في إصطخر ويبايعونه هناك ، ويقاتلون السفياني معه هناك ، في الوقت الذي تكون قواتهم متمركزة في الكوفة ، وتكون في مواجهة بقايا قوات السفياني في مناطق أخرى من العراق ، وتكون هذه القوات قد بعثت بالبيعة إلى المهدي (عليه السلام) وهو في مكة .

تدلّ الأحاديث إذن أنَّهم سوف ينتصرون في حربهم مع النظام العراقي ، وأنَّه سيقوم في العراق نظام إسلامي ، ولكن العراق سيبقى مشكلة للإيرانيين ، فالسفياني يتمكن قبل دخول قواته إلى العراق من إسقاط هذا النظام بمساعدة أنصاره العراقيين ، حيث يبعث إليهم أن يقتلوا حاكمهم الموالي للمهدي (عليه السلام) فيقتلونه .

كما تدلّ الأحاديث بصراحة ووضوح على أن الإيرانيين يدخلون مع المهدي (عليه السلام) دمشق والقدس ، ويكون دورهم فعّالاً في معركة التحرير . أمّا قبل هذا التحرير النهائي للقدس فتوجد بعض الأحاديث التي تشير إلى أنَّهم يدخلون دمشق ويخوضون معارك .

وتـذكر الأحـاديث رجلاً من أهـل بيت المهدي (عليـه السلام) يحكم أو يقود الجيش ثمانية أشهر أو ثمـانية عشـر شهراً ، يتـوجّه إلى بيت المقـدس فلا يبلغـه حتى يمـوت دونـه ، ويبـدو أن هـذا الـرجـل الهاشمي ، وأن هذا الحديث عن موته والأحاديث المشابهة عن هزيمته على يد السفياني واختفائه . . ومـا شابههـا ، من موضـوعات الاتجـاه الأمـوي ، لأنها تخـالف عـامـة الأحـاديث الـواردة بشـأنـه عنـد السنـة والشيعـة ، والتي تصف انتصـاراتـه المتـواليـة حتى يسلم الأمـر إلى المهدي (ع) ويبايعه وينضم إليه مع قواته . .

وتذكر منـطقتين لدخـول القوات الإيـرانية إلى العـراق ، منطقـة البصرة ومنطقة خانقين باتجاه بغداد والكوفة . وتشير إلى أنهم يدخلون العراق أكثر من مرة . ولم أجد اشارة إلى قتال بين الإيـرانيين والأتراك قبل ظهور المهدي (ع) ، ولكن أول بعث عسكري يبعثـه المهدي (ع) من الكوفة يكون موجهاً إلى تركيا .

٣ ـ العراق :

تـذكر الأحـاديث أن العراق سيكـون عاصمـة العالم بـأجمعـه ، وستكـون الكوفـة مقر حكم الإمـام المهـدي (ع) ، وتصف الأحـاديث مسجد الجمعة العالمي الذي يأمر المهدي (ع) ببنائه خارج الكوفة بأن لـه ألف ألف باب ، وأن أهـل الكوفـة سيكونـون أسعـد النـاس حـالاً بجوارهم للمهدي (ع) .

أمَّا قبل ظهـوره (ع) فتتحدث عن اضـطهاد شـديد وخـوف ذريع يشمل أهل العراق لا يقرّ لهم معـه قرار . وعن رجـال صالحين يقتلون في بغـداد وظهر الكـوفة ، وعن قتـل رجل هـاشمي أو نفس زكيـة في سبعين من الصالحين ، وعن حركة قبل السفياني بقيادة شخص يسمَّى

الشيصباني ، وعن مقاومة جزئية يقوم بها أهل الكوفة للسفياني . . وعن شخصيات عراقية هامة تكون من أنصار المهدي (ع) كالنفس الزكية رسول المهدي (ع) إلى أهل مكة الذي يقتلونه قبل ظهور المهدي بخمس عشرة ليلة ، وابن عمّه محمد وشقيقته فاطمة اللذين يقتلونهما في المدينة المنورة بوشاية أحد عملاء السفياني، الذي يكون قد هاجر معهما من العراق .

وتتحدّث أخبار الظهور عن أزمة اقتصادية تكون في العراق « يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لاَ يُجْبَىٰ إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلاَ دِرْهَمٌ » .

وتشير الأحاديث إلى الحرب العراقية الإيرانية ، وإلى دخول القوات الإيرانية إلى البصرة وبغداد والكوفة . وإلى قيام نظام إسلامي في العراق ، ولكن يبدو أن هذا النظام لا يتمكّن من إعداد الشعب العراقي لدور فعّال ، وأن عملاء السفياني يتمكنون من قتل حاكم العراق الموالي للمهدي (ع) ، ومساعدة جيش السفياني في دخوله العراق ، وارتكاب المجازر الفظيعة ، التي لا تتوقّف إلاّ بدخول القوات الإيرانية بقيادة الخراساني .

بشكل عام نجد العراق في أحاديث علامات وأحداث الظهور ميداناً لمعارك متعددة وهامة ، وأن تيارين سياسيين يتنافسان عليه وفيه : تيار الإيرانيين أصحاب المهدي (ع) وتيار السفياني (الغربي) وأن شعبه المسلم أرضية مؤيدة للإسلام ، ولكنه يبتلى بحالة ضعف سياسي ، ويقع تحت تأثير حركات انحرافية ، الأمر الذي يجعل دوره في أحداث عصر الظهور الانفعال أكثر من الفعل .

٤ ـ الحجاز :

تسمّي الأحاديث الشريفة حدثاً في الحجاز سيكون مدخلاً لسلسلة الأحداث الممهّدة لظهور المهدي (ع) ، وهو الفراغ السياسي

الـذي يحصـل بمـوت آخـر حـاكم من « بني فـلان » على حـدّ تعبيـر الأحاديث الشريفة « إِذا مٰاتَ عَبْدُ الله لَمْ يَجْتَمِعِ النَّاسُ بَعْدَهُ عَلىٰ أَحَـدٍ ، وَلَمْ يَتَنٰاهَ هٰذا الأَمْرُ دُونَ صٰاحِبِكُمْ إِنْ شٰاءَ الله ، وَيَذْهَبُ مُلْكُ السِّنِينَ وَيَصِيرُ مُلْكُ الشُّهُورِ وَالأَيَّامِ » .

ويذكر حديث آخر سبب موته فيقول « يَكُونُ سَبَبُ مَوْتِهِ أَنْ يَنْكِـحَ خَصِيّاً فَيَقُومُ وَيَذْبَحُهُ وَيَكْتُمُ مَوْتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً ؛ فَإِذٰا سٰارَتْ الرُّكْبٰانُ فِي طَلَبِ الْخَصِيِّ لَمْ يَرْجِعْ أَوَّلُ مَنْ يَخْرُجُ حَتَّى يَذْهَبَ مُلْكُهُمْ » .

وتشير الأحاديث إلى أنَّ هـذا الفراغ السيـاسي يتحوّل إلى أزمـة بين القوى السياسية في الحجاز ـ القبائل ـ تصل إلى اشتباكات مسلّحة ولكنَّها غير حاسمة .

ويفهم من هذه الأحاديث وغيرها أن المحاولات المتتابعة لتثبيت النـظام الحـاكم في الحجـاز تفشـل بسبب عــدم العثـور على شخص ترضى به الأطراف المتناحرة .

ويبدو أن التفكّك العشائري يشمل الجيش الحجازي ، حيث لا تذكر الأحاديث له دوراً في حسم الوضع المتـدهور ، وتـذكر أن الأمـر يحتـاج إلى استقدام قـوات من خارج الحجـاز لتهدئـة وضع الحـرمين الشـريفين ، وأن قوات السفيـاني تدخـل المـدينـة المنـورة ثمَّ تحـاول دخول مكة المكرمة .

إنَّ هـذا التردّي في الـوضـع الـداخلي للحجـاز لا يـأتي نتيجـة لعوامل داخلية من فساد الأسرة الحاكمة وطموح القبائل الحجـازية إلى السلطة فقط ، بل إنَّ العوامل الخارجية الممهدة لـظهور المهـدي (ع) ستكون ذات تأثير خاص على الساحة الإسلامية الحجازية .

فحالة الانهماك والتوتر التي تصاب بها القوى الكبرى التي تكون على وشك حرب عالمية . . أو حالة الضعف والارتباك التي تصاب بها

القوى المتبقية بعد حرب عالمية يكثر فيها الدمار وتذهب فيها نفوس الملايين .

والنداء السماوي الذي يهزّ العالم ويسمعه أهل الأرض،كل قوم بلغتهم،يدعوهم إلى الله تعالى ويبشّرهم بالمهدي باسمه واسم أبيه . . .

والمدُّ الإسلامي الذي يتعاظم في بلاد المسلمين ويصبح تياراً جماهيرياً متحفّزاً باحثاً عن المهدي (ع) .

والتحركات والأحداث الكبيرة الجارية في المنطقة ، في اليمن وإيران والعراق وبلاد الشام وغيرها . . .

. . هذه العوامل الخارجية التي توجه أنظار المسلمين والعالم نحو الحجاز ، ستجعل من قضية المهدي (ع) في مسلمي الحجاز تياراً قوياً يعمل لتهيئة الوضع السياسي للمهدي (ع) ويبحث عنه لمبايعته .

بل تدلّ الأحاديث على أن مبعوثين من بلاد العالم الإسلامي يفدون إلى الحجاز ويبحثون عن المهدي سرّاً ليبايعوه .

« إِذا انْقَطَعَتِ التِّجارَاتُ وَالطُّرُقُ وَكَثُرَتِ الْفِتَنُ خَرَجَ سَبْعَةُ رِجالٍ عُلَماءُ مِنْ أُفُقٍ شَتَّى عَلىٰ غَيْرِ مِيعادٍ ، يُبايِعُ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ثَلاثُ مِايَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً حَتَّى يَجْتَمِعُوا بِمَكَّةَ فَيَلْتَقِي السَّبْعَةُ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ما جاءَ بِكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ جِئْنا فِي طَلَبِ هٰذا الرَّجُلِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَهْدَأَ عَلىٰ يَدَيْهِ ، وَتُفْتَحُ لَهُ القُسْطَنْطِينِيَّةُ قَدْ عَرَفْناهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَحِلْيَتِهِ . فَيَتَّفِقُ السَّبْعَةُ عَلىٰ ذٰلِكَ فَيَطْلُبُونَهُ » .

في هذه الأثناء يكون المهدي (ع) قد خرج من المدينة المنورة متوجّهاً إلى مكّة المكرَّمة خائفاً يترقّب على سنّة موسى بن عمران

(عليهما السلام) ، فيدخل إلى -حرم الله تعالى في حين يبدأ وزراؤه - صفوة العالم الإسلامي - بالتوافد إلى مكة«يَجْمَعُهُمُ الله تَعالىٰ قِزَعاً كَقِزَعِ السَّحابِ وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، عَلىٰ عِدَّةِ أَصْحابِ بَدْرٍ ، لَمْ يَسْبِقْهُمُ الأَوَّلُونَ وَلاٰيُدْرِكُهُمُ الآخِرُونَ ، عَلىٰ عِدَّةِ أَصْحابِ طالُوتَ الَّذِينَ جاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ » .

وتصف الأحاديث في هذه المدة اضطراباً يقع بين الحجّاج في منى ، ويبدو أنّه امتداد للخلاف بين أهل الحجاز حول السلطة .

« يَحُجُّ النَّاسُ مَعاً عَلىٰ غَيْرِ إمامٍ وَيُعَرِّفُونَ مَعاً ، فَبَيْناهُمْ فِي مِنىٰ إِذْ أَخَذَهُمْ مِثْلُ الْكَلَبِ فَسارَتْ الْقَبائِلُ بَعْضُها إلىٰ بَعْضٍ فَاقْتَتَلُوا حَتّىٰ تَسِيلَ جَمْرَةُ الْعَقَبَةِ دَماً » ، ويفهم من النصّ أن الناس يعيشون حالة التوتّر إلى حدّ أنهم بمجرد أن يكملوا أداء مناسكهم أو قبل إكمالها يشتبكون في منى المقدسة !

وبعد أسبوعين من اضطرابات منى - أي في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من ذي الحجّة - يرتكب بقايا النظام في الحجاز جريمة قتل النفس الزكية،وهو فتى هاشمي اسمه محمد بن الحسن يرسله المهدي (ع) إلى أهل مكة في عملية اختبار وتهيئة للثورة المباركة ، فيدخل المسجد الحرام ويقف بين الركن والمقام،وما أن يتكلّم بكلمات يدعو فيها الناس إلى بيعة المهدي (ع) حتى يقوموا إليه ويقتلوه في الحال ، فتكون هذه الجريمة إيذاناً بنهاية حكمهم .

« أَلا أُخْبِرُكُمْ بِآخِرِ مُلْكِ بَنِي فُلانٍ ؟ قَتْلُ نَفْسٍ حَرامٍ ، فِي يَومٍ حَرامٍ ، فِي بَلَدٍ حَرامٍ ، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما لَهُمْ مِنْ مُلْكٍ بَعْدَهُ غَيْرَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً » .

وبعد أن يكون قد تمّ في مكة أعظم لقاء بين أناس منذ قرون ،

لقاء المهدي (ع) بأصحابه وحواريه ووزرائه (عليهم السلام) ، يلتقي أول الأمر باثني عشر منهم هم نقباؤهم وأفضلهم . . يبدأ التحرّك كما تذكر الأحاديث مساء يوم الجمعة التاسع من محرَّم،إذ يتقدّم المهدي (ع) بعد صلاة العشاء ويقف بين الركن والمقام ويوجه بيانه الأول إلى أهل مكة يقول فيه :

« أُذَكِّرُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَقَامَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَدْ أَكْمَلَ الْحُجَّةَ ،وَبَعَثَ الأَنْبِيَاءَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَأَمَرَكُمْ بِأَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَنْ تُحَافِظُوا عَلىٰ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَأَنْ تُحْيُوا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَتُمِيتُوا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ ، وَتَكُونُوا أَعْوَاناً عَلىٰ الْهُدىٰ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ دَنَا فَنَاؤُهَا وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ . . وَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَإِمَاتَةِ الْبَاطِلِ . . » . .

وما أن يكمل (ع) كلامه حتى يحاول شرطة بقايا الطاغوت أن يعتقلوه أو يقتلوه ، ويعاونهم في ذلك إمام المسجد ، فيتقدّم أصحاب المهدي ويدفعونهم عنه ويحيطون به ويتقدّم أحدهم ليبدأ بمبايعته،فإذا بجبرائيل (ع) ينزل من على ظهر الكعبة فيكون أول المبايعين ، ثمَّ يبايعه أصحابه .

ويبدو أنَّهم بعد هذا الإعلان والبيعة ينسحبون تلك الليلة من المسجد الحرام أو يَتَخفَّوْنَ فيه . ولا تذكر الأحاديث ما يجري في تلك الليلة وقبلها من إعداد لتحرير مكة ، لكن يبدو أنه بالرغم من وجود بقايا الطاغوت فإن الوضع العام لأهل مكة يكون مساعداً للمهدي (ع) حيث يتمّ له في صبيحة اليوم التالي السيطرة على مكة المكرَّمة ويذيع فيها بيانه الأول إلى العالم .

من فقرات هذا البيان المقدس كما تذكر الأحاديث :

« أَيُّهَا النَّاسُ . . مَنْ يُحَاجُّنَا فِي آللَّهِ تَعَالىٰ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِاللَّهِ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا فِي آدَمَ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِآدَمَ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا بِنُوحٍ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِنُوحٍ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا بِمُحَمَّدٍ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِمُحَمَّدٍ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا بِالنَّبِيِّينَ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِالنَّبِيِّينَ ،
وَمَنْ يُحَاجُّنَا بِكِتَابِ آللهِ فَإِنَّا أَوْلىٰ النَّاسِ بِكِتَابِ الله . . ،
فَأَنَا بَقِيَّةٌ مِنْ آدَمَ ، وَذَخِيرَةٌ مِنْ نُوحٍ ، وَمُصْطَفىً مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَصَفْوَةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ (ص) أَلا وَمَنْ حَاجَّنِي فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله فَأَنَا أَوْلىٰ النَّاسِ بِسُنَّةِ رَسُولِ الله . . .

أَنَا ابْنُ نَبِيِّ الله ، أَدْعُوكُمْ إِلىٰ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ نَبِيُّ الله . . فَاللَّهَ آللَّهَ فِينَا لا تَخْذُلُونَا . . إِنَّا نَسْتَنْصِرُ الْيَوْمَ كُلَّ مُسْلِم » .

بعد نجاح هذه المرحلة (تحرير مكة واتخاذها قاعدة لمخاطبة العالم) يمكث المهدي في مكة ويطيل المكث كما تذكر الأحاديث ، ولا تشير إلى وجود ما يهدّد سيطرته عليها من داخلها أو من أجوائها ما عدا جيش السفياني الذي توجّه من المدينة للقضاء على حركة المهدي . . وتتجه الأنظار إلى هذا الجيش لترى فيه الآية الموعودة على لسان النبي (ص) التي يرويها كافة المسلمين :

« يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ » ، « فَيُخْسَفُ بِهِمْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالُ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيُبَايِعُونَهُ » .

وتحدد بعض الأحاديث المكان الذي سيقع فيه الخسف باسم (أَمَا صِهْرا) على بعد اثني عشر ميلاً من منطقة (ذات الجيش) وأن

عدد الجيش ثلاثون ألفاً يخسف بهم في وسطهم ، فيرجع المتقدّمون فيخسف بهم ، ويلحق المتأخرون منهم فيخسف بهم ، ولا ينجو إلاّ بضعة نفر ـ يحدثون الناس بالحادثة وتكون وجوههم مقلوبة إلى أقفيتهم من هول ما رأوا . .

تكون هذه الحادثة آية للعالم ؛ يبدأ المهدي (ع) بعدها بزحفه المقدّس من مكة إلى المدينة ، إلى منطقة إصطخر في جنوب إيران ، إلى العراق ، فسوريا فالقدس . . وتستغرق هذه المسيرة ثمانية أشهر .

*

ينبغي الإلفات هنا ، وبشكل يتناسب مع هذا التصور العام إلى (عناصر الفعل الإضافية) التي يعتمد عليها عمل المهدي (ع) ، فإن الأحاديث عند السنة والشيعة تتفق ـ وإن تفاوتت في التفاصيل ـ على أن عدداً من الكرامات والمعجزات الإلٰهية تجري على يد المهدي (ع) وترافق مسيرته الموعودة من مكة إلى القدس ، فالعالم . . وكذلك في إدارته لحكم العالم الجديد . منها آيات لإقناع الناس وإقامة الحجّة عليهم ، كالنداء السماوي باسمه واسم أبيه ، ونزول المسيح (ع) . ومنها في صفاته وصفات أصحابه (ع) ومنها في معاركه . ومنها في الوسائل المادية التي يستخدمها . .

وإنّما سمّيناها عناصر فعل إضافية لأن عناصر الفعل العادية والقوانين الطبيعية للعمل الإنساني وحركة المجتمع هي الأصل في عمل المهدي (ع) ، وتأتي هذه المعجزات عند الحاجة لتعزيز المنطق الذي يطرحه ، وإسناد حركة التحرير التي يقودها .

إنَّ المهدي (ع) يطرح منطق الإسلام من جهة « يَمْلأُ ٱلأَرْضَ قِسْطاً وعَدْلاً » ومنطق فساد الواقع العالمي وضرورة إنقاذه من جهة

أخرى « بَعْدَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً » ولكن عندما يوجد جدار سميك يمنع الشعوب من سماع هذا المنطق والتفكير به . . فإنَّ الأمر يحتاج إلى فعل إلهي يحطّم هذا الجدار ويعيد إلى الناس قدرتهم على الاستماع .

إنَّ النظام الذي دبّره الطاغوت لحياة الناس جعل الإنسان جهازاً يركض طوال عمره لتأمين ما هو ضروري لمعيشته وما تقول له الحضارة المادية إنه ضروري ! ومضافاً إلى ذلك فهي تلاحقه في حلّه وترحاله وليله ونهاره بإعلامها وثقافتها !

جعل الإنسان كائناً متورطاً في عمل لا يسمح له أن يحك رأسه ، وملاحقاً بعملية غسل دماغ لا تسمح له أن يرفع رأسه . . يحتاج إلى صعقة كهربائية لتجعله يفكر حقّاً باللون الآخر للحياة ، إلى نداء سماوي يهزّه ليصبح قابلاً للاستماع .

إنَّ معجزة النداء السماوي وقسماً من معجزات المهدي (ع) هي عناصر فعل إضافية في قانون الهداية الإلٰهي ، احتاج الناس إليها لأن طاغوت الحضارة الغربية أبعدهم بعداً إضافياً عن المنطق .

وقسم آخر من معجزاته (ع) يتعلق بحركة الصراع العسكري ، فالقانون الذي يقوم عليه عمل المهدي (ع) بالأصل هو قانون المعركة الاعتيادي في الأرض ، والمعجزات والكرامات في معاركه (ع) هي عناصر إضافية لمقابلة ذلك التفاقم الربوي في رأس المال العسكري للطاغوت .

أمَّا القسم الثالث من المعاجز فهو في مجال الوسائل التي يستخدمها (ع) من قبيل :

« تُطْوىٰ لَهُ وَلأَصْحابِهِ آلأَرْضُ » .

« يَرْفَعُ ٱللَّهُ لَـهُ كُلَّ مُنْخَفِضٍ مِنَ الأَرْضَ ، وَيَخْفِضُ لَـهُ كُلَّ مُـرْتَفِعٍ حَتَّى تَكُـونَ الدُّنْيا عِنْدَهُ بِمَنْـزِلَةِ راحَتِـهِ ، فَأَيُّكُمْ إِذا كَـانَ فِي راحَتِهِ شَعْـرَةٌ لا يُبْصِرُها ؟ » .

وأن وزراءه حكّام العالم يتّصلون به مباشرة «لا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بَرِيدٌ فَيَسْمَعُونَهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي مَكانِهِ » .

وأنّه « ما كَانَ مِنْ سَحابٍ صَعْبٍ فِيهِ رَعْدٌ وَبَرْقٌ فَصاحِبُكُمْ يَرْكَبُهُ ، أَمَا إِنَّهُ يَرْكَبُ السَّحابَ وَيَرْقىٰ فِي الأَسْبابِ أَسْبابِ السَّماواتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ ، خَمْسٌ عَوامِرُ ، وَاثْنَتانِ خَرابانِ » .

وأن « لهُ في الهَواءِ خَيْلاً مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً لها أَجنحةٌ » .

وأنّـه ينزل في العـراق « في سبـعِ قِبَـابٍ منْ نـورٍ لا يُعْلَمُ في أَيِّهـا هُـوَ » . . الخ . . فهي من أبـواب العلم التي يستخدمهـا المهـدي (ع) ويعلمها للناس ، وقد أصبح طرف منها مألوفاً للناس في عصرنا .

وقـد ورد في حديث شـريف أن مـا يفتحـه المهـدي من أبـواب العلوم هو أضعاف أضعاف ما يكون لديهم .

« الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَـرْفـاً ، فَلَمْ يَعْـرِفِ النَّـاسُ حَتَّى الْيَـوْمِ غَيْـرَ الْحَرْفَيْنِ،فَإِذا قامَ قائِمُنـا أَخْرَجَ الْخَمْسَـةَ وَالْعِشْرِينَ حَـرْفاً فَبَثَّهـا فِي النَّاسِ، وَضَمَّ إِلَيْها الْحَرْفَيْنِ حَتَّى يَبُثَّها سَبْعَةً وَعِشْرِينَ حَرفاً ! » .

وتذكر الأحـاديث أن عند المهـدي (ع) مواريث الأنبيـاء (صلى الله عليهم) يستخرجها من أماكنها في الأرض ، أو تكون مودعةً له عبر الأجيال .

فمن رسول الله (ص) عنده عهد مكتوب له يأمره فيه بأوامره .

وعنده راية رسول الله (ص) التي تحفّ بها الملائكة ، وعنده قميص رسول الله (ص) وعمامته ودرعه السابغة .

وعنده قميص إبراهيم (ع) الذي نزل إليه به جبرئيل (ع) لمّا أوقدت له النار « أَلْبَسَهُ إِيَّاهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ مَعَهُ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ جَعَلَهُ فِي تَمِيمَةٍ وَعَلَّقَهُ عَلَىٰ إِسْحَاقَ ، وَعَلَّقَهُ إِسْحَاقُ عَلَىٰ يَعْقُوبَ ، فَلَمَّا وُلِدَ يُوسُفُ عَلَّقَهُ عَلَيْهِ وَكَانَ فِي عَضُدِهِ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، فَلَمَّا أَخْرَجَهُ يُوسُفُ مِنَ التَّمِيمَةِ وَجَدَ يَعْقُوبُ رِيحَهُ ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونَ ﴾ .

وعنده عصا موسى (ع) التي هي « مِنْ آسٍ مِنْ غَرْسِ الْجَنَّةِ أَتَاهُ بِهَا جَبْرَئِيلُ (ع) لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ، وَهِيَ وَتَابُوتُ آدَمَ فِي بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ وَلَنْ يَبْلَيَا وَلَنْ يَتَغَيَّرَا حَتَّى يُخْرِجَهُمَا » ، « وَهِيَ خَضْرَاءُ كَهَيْئَتِهَا حِينَ ٱنْتُزِعَتْ مِنْ شَجَرِهَا ، وَإِنَّهَا لَتَنْطِقُ إِذَا ٱسْتُنْطِقَتْ وَإِنَّهَا لَتَرَوَّعُ وَتَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ وَتَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ بِهِ . . يُفْتَحُ لَهَا شُعْبَتَانِ إِحْدَاهُمَا فِي الْأَرْضِ وَٱلْأُخْرَىٰ فِي السَّقْفِ وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعاً ! » .

ويستخرج المهدي (ع) من جبل من جبال الشام أسفار التوراة يحاجّ بها اليهود فيسلم على يديه جماعة منهم ، و « يَسْتَخْرِجُ التَّوْرَاةَ وَسَائِرَ كُتُبِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ غَارٍ بِأَنْطَاكِيَةَ فَيَحْكُمُ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ بِتَوْرَاتِهِمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ » .

كما أنّه (ع) تطوى له ولأصحابه الأرض ، وتخرج له كنوزها من ذهب وفضة وجواهر فيجمعها ويقول للناس : تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام ، وقتلتم فيه النفس الحرام . . .

وتخرج الأرض خيراتها وتنبت نباتاً وأشجاراً لم تكن موجودة ، وأنّه يلهمه الله تعالى وأصحابه رؤية الواقع في القضايا والمشاكل فيحكم بين الناس بالحقّ كما هو لا يحتاج إلى بيّنات وشهود . . . الخ .

*

ينشر المهدي (ع) راية النبي (ص) السوداء التي « لَمْ تُنْشَرْ مُنْذُ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ (ص) وَلاَ تُنْشَرُ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَهْدِيُّ ، وَالَّتِي يَسِيرُ الرُّعْبُ أَمَامَهَا شَهْراً وَعَنْ يَمِينِهَا شَهْراً وَعَنْ يَسَارَهَا شَهْراً » « وَيَمُدُّهُ اللَّهُ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ وَأَدْبَارَهُمْ » ويتوجّه من مكة مع أصحابه الثلاثمئة وثلاثة عشر على رأس جيش من بضعة عشر ألف مقاتل ، ويشير بعض الأحاديث إلى أن أكثر هذا الجيش من أهل الحجاز وفيه من أهل الشام وإيران والعراق ، حتى إذا وصلوا إلى مكان الخسف بجيش السفياني وقف عنده المهدي (ع) وتلا قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الأَرْضَ * أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[1] .

وفي المدينة المنورة يخوض جيش المهدي (ع) مع قوات النظام وقوات السفياني معركة عنيفة فيحقّق عليها نصراً كاسحاً .

وبتحرير الحرمين الشريفين يتمهّد له حكم الحجاز ، حيث تذكر الأحاديث فتح الحجاز بعد فتح المدينة بعبارة مقتضبة مثل « يَفْتَحِ اللَّهُ لَهُ الْحِجَازَ » ، « فَيَفْتَحِ اللَّهُ لِلْمَهْدِي أَرْضَ الْحِجَازَ » ممّا يشير إلى

(١) سورة النحل : ٤٥ ـ ٤٦ .

أنَّ تحرير الحرمين يكون حاسماً في السيطرة على الحجاز ، خاصة إذا كانت بعض القبائل الحجازية قد بايعته في مكة .

إلى إيران والعراق

بعد انتصار المهدي (عليه السلام) في الحجاز يشدّد السفياني قبضته على العراق وتقوم قواته بتهديد الحدود الإيرانية . . فيتحرك الإيرانيون عسكرياً لِمواجهته ، ويتحركون سياسياً لغرض الانضمام إلى المهدي (عليه السلام) . وتدلّ بعض الأحاديث على أنّه يتوجّه من المدينة المنورة إلى العراق مارّاً بجنوب إيران حيث يلتقي بالخراساني وقائده شعيب قرب إصطخر ، المدينة التاريخية الواقعة قرب عبادان والأهواز ، والتي يروى أنَّها من مدن النبي سليمان (عليه السلام) ، وتقع بقربها مدينة مسجد سليمان التي تضم آبار النفط الإيرانية . وبعد لقائهم في إصطخر يخوضون معركة حاسمة مع جيش السفياني يكون انتصارهم فيها مؤثّراً في انطلاق المدّ الجماهيري تجاه المهدي (عليه السلام) .

« إِذَا خَرَجَتْ خَيْلُ السُّفْيَانِي إِلىٰ الْكُوفَةِ فِي طَلَبِ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَيَخْرُجُ أَهْلُ خُرَاسَانَ فِي طَلَبِ الْمَهْدِي ، فَيَلْتَقِي هُوَ وَالْهَاشِمِي بِرَايَاتٍ سُودٍ عَلىٰ مُقَدِّمَتِهِ شُعَيْبُ بْنُ صَالِحٍ فَيَلْتَقِي هُوَ وَالْمَهْدِي وَالْهَاشِمِي بِبَيْضَاءَ إِصْطَخْرٍ فَيَكُونُ بَيْنَهُمْ مَلْحَمَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَتَظْهَرُ الرَّايَاتُ السُّودُ وَتَهْرُبُ خَيْلُ السُّفْيَانِي . . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَمَنَّى النَّاسُ الْمَهْدِيَّ وَيَطْلُبُونَهُ » .

وقد سألت بعض أهل المنطقة فأخبروا أنه يوجد جبل معروف قرب مسجد سليمان يسمى الجبل الأبيض « كوه سفيد » يبدو أنه هو « بيضاء إصطخر » الوارد ذكرها في الأحاديث الشريفة . .

في هذه الأثناء تكون قوات الإيرانيين قد دخلت العراق من جهة

أخرى ووصلت الكوفة ، وبعثت بالبيعة إلى المهدي (عليه السلام) ووضعت نفسها تحت قيادته .

ويدخل المهدي (عليه السلام) إلى العراق « فِي سَبْعِ قِبَابٍ مِنْ نُورٍ لَا يُعْلَمُ بِأَيِّهَا هُوَ » ممَّا يبدو أنَّه إشارة إلى دخوله ليلاً في سرب من الطائرات . . ويخوض جيشه عدة معارك تكميلية لتحرير العراق يهزم فيها بقية قوات السفياني وأعوانه ويسيطر على العراق ويتّخذ الكوفة مقراً له ، ويمكث فيها ويطيل المكث كما تذكر الأحاديث ، ويبدو أنّ ذلك من أجل تثبيت حكمه في المنطقة الإسلامية المحرّرة : الحجاز وإيران والعراق ، ومن أجل الإعداد للزحف الكبير نحو القدس ، وفي هذه الفترة يقضي المهدي (ع) على حركات الخوارج التي تواجهه في العراق .

« لَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى تَخْرُجَ عَلَيْهِ مَارِقَةٌ بِرُمَيْلَةِ الدَّسْكَرَةِ فَيَدْعُو رَجُلاً مِنَ الْمَوَالِي فَيُقَلِّدُهُ سَيْفَهُ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَا يُبْقِيَ أَحَداً » ، وتذكر الأحاديث حركات أخرى يقوم بها الخوارج ضد المهدي (ع) وتشير إلى عمليات قتل واسعة يقوم بها في العراق في أعدائه تشمل سبعين رجلاً بزيِّ علماء الإسلام ، وأن أحد أصحابه يذعر لما يرى من كثرة القتل فيقوم إليه و « هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ بِبَدَنِهِ وَأَشْجَعُهُمْ بِقَلْبِهِ مَا خَلَا صَاحِبَ هَذَا الْأَمْرِ فَيَقُولُ لَهُ : يَا هَذَا مَا تَصْنَعُ ؟ إِنَّكَ لَتُجْفِلُ النَّاسَ إِجْفَالَ النَّعَمِ ! أَفَبِعَهْدٍ مِنْ رَسُولِ آللَّهِ أَمْ بِمَاذَا ؟ فَيَقُولُ الْمَوْلَى الَّذِي وَلِيَ الْبَيْعَةَ : لَتَسْكُتَنَّ أَوْ لَأَضْرِبَنَّ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ ؟ فَيَقُولُ الْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اسْكُتْ يَا فُلَانُ . إِي وَآللَّهِ إِنَّ مَعِيَ عَهْداً مِنْ رَسُولِ آللَّهِ (ص) ، هَاتِ يَا فُلَانُ الْعَيْبَةَ فَيَأْتِيهِ بِهَا فَيَقْرَأُ الْعَهْدَ مِنْ رَسُولِ آللَّهِ (ص) فَيَقُولُ الرَّجُلُ : جَعَلَنِي آللَّهُ فِدَاكَ أَعْطِنِي رَأْسَكَ أُقَبِّلْهُ ، فَيُعْطِيهِ رَأْسَهُ فَيُقَبِّلُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : جَعَلَنِي آللَّهُ فِدَاكَ جَدِّدْ لَنَا بَيْعَةً ، فَيُجَدِّدُ لَهُمْ بَيْعَةً » .

وفي حديث آخر « أَوَّلُ لِوَاءٍ يَعْقِدُهُ الْمَهْدِي يَبْعَثُهُ إِلىٰ التُّرْكِ فَيَهْزِمُهُمْ » « يُقَاتِلُ السُّفْيَانِي التُّرْكَ ، ثُمَّ يَكُونُ اسْتِئْصَالُهُمْ عَلىٰ يَدِ الْمَهْدِيِّ ، وَأَوَّلُ لِوَاءٍ يَعْقِدُهُ الْمَهْدِيُّ يَبْعَثُهُ إِلىٰ التُّرْكِ » .

وفي حديث آخر: « يَسِيرُ مِنْ مَكَّةَ . . حَتَّى يَأْتِيَ الْكُوفَةَ فَيَنْزِلُ عَلىٰ نَجَفِهَا عَلىٰ قُرْبٍ مِنْهَا ، ثُمَّ يُفَرِّقُ الْجُنْدَ فِي الأَمْصَارِ » .

وتشير بعض الأحاديث إلى أنَّه (عليه السلام) يقوم بتجميع طاقات المسلمين في العراق استعداداً للزحف إلى القدس « إِذَا دَخَلَ الْقَائِمُ الْكُوفَةَ لَمْ يَبْقَ مُؤْمِنٌ إِلَّا وَهُوَ بِهَا أَوْ يَحِنُّ إِلَيْهَا ، فَيَقُولُ الْقَائِمُ : سِيرُوا بِنَا إِلىٰ هَذَا الطَّاغِيَةِ » .

وتشير بعضها إلى أنَّه في فترة وجود المهدي (عليه السلام) في العراق تقع الحرب العالمية التي يهلك فيها عدد كبير من سكان العالم ، والتي يتركز تدميرها وخسائرها على « الحطب الجزل في غربي الأرض » أي الحطب الكثير الملائم للاشتعال ، ويفهم منها أن الغربيين واليهود يخرجون منها أقوياء نسبياً ، ولكن قبضتهم على بلاد المسلمين تضعف كثيراً ، وأن اليهود يتراجعون عسكرياً ويكون رهانهم على حليفهم السفياني .

الزحف إلى القدس

نلاحظ في الأحاديث التي تصف معركة المهدي (عليه السلام) في تحرير المسجد الأقصى وما حوله أنَّها تذكر السفياني على أنَّه الطرف الآخر في المعركة ، ولا تذكر اليهود مباشرة ، ولكنَّها من جهة أخرى تدلّ على أن السفياني يتراجع من عاصمته دمشق إلى داخل فلسطين ، فيكون مقرّه في الرملة ـ قرب تل أبيب ـ وتكون ساحة

المعركة طبرية والقدس ، وأن المهدي (عليه السلام) يقاتل في هذه المعركة سبع رايات ، ممّا يشير إلى أنّها قيادات سياسية متحالفة أو متحدة في قيادة واحدة ضدّ المهدي (عليه السلام) ، وتؤكد من جهة ثالثة أنه (عليه السلام) يستخرج أسفار التوراة وتابوت السكينة من غار أنطاكية ومن جبل بالشام وفلسطين ويحاج بها اليهود . . ممّا يكشف عن أن السفياني إنّما هو واجهة لليهود في حربهم للمهدي (عليه السلام) ، وأنّه الشخصية التي يجد فيها اليهود وحلفاؤهم الغربيون المواصفات المطلوبة لمقاومة المدّ الإسلامي ، وأنّهم يساندونه ويعطونه دوراً واسعاً في المنطقة ، ولكنه بعد هزيمته في الحجاز والعراق ينكفىء إلى دمشق ، بل إلى داخل فلسطين المحتلة ، ويضعف أمره حتى أنه لا يستطيع أن يرد زحف المهدي (عليه السلام) ، بل يحاول أن يثنيه عن عزمه بالمساعي السياسية . . ولكن المهدي يتقدّم بجيشه الكبير داخل سوريا حتى يعسكر في مرج عذراء ، على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق .

« ثُمَّ يُسِيرُ حَتَّى يَأتِيَ الْعَذْرَاءَ وَقَدْ أُلْحِقَ بِهِ نَاسٌ كَثِيرٌ وَالسُّفْيَانِي يَوْمَئِذٍ بِوَادِي الرَّمْلَةِ » ممّا يشير إلى أن المدّ الجماهيري الإسلامي يضطر السفياني لمغادرة دمشق التي لا تذكر الأحاديث وقوع معارك فيها أو حولها .

ويبدو من الأحاديث أن فترة المفاوضات تكون طويلة نسبياً ومَرِنَة حيث تسمح لعدد من أهل المنطقة بالالتحاق بمعسكر المهدي (عليه السلام) ولعدد آخر يكونون مع المهدي بالالتحاق بالسفياني ، ويسمَّى ذلك اليوم يوم الأبدال بمناسبة التحاق أبدال أهل الشام بالمهدي (عليه السلام) ، ويوم التمايز بمناسبة الفرز والتمييز مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وتـذكر الأحـاديث أن المهدي (عليـه السـلام) في هـذه الفتـرة يطلب اللقاء بالسفياني ويتقابلان بالفعل ، فيأتيه السفياني ويستمع إلى منطقه فيتأثّر ، أو ينهزم نفسياً ، ويبايع المهدي ! ويرجـع إلى جماعتـه لإقناعهم بموقفه الجديد ، ولكنَّهم يوبخونه فيرجع إلى موقفه الأول !

وتكـاد تجمع الأحـاديث على أن عنصـر الإعجـاز الإلٰهي يـرافق هذه المعركة التي يبدو أنَّهـا أكبر معـارك الظهـور على الإطلاق ، ففي بـدايتهـا يكـون النـداء من السمـاء « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ آللَّـهِ هُمْ أَصْحَـابُ الْمَهْدِي » وفي أثنائهـا يغضب الله تعالى على أعـداء المهدي فتغضب عليهم الـطبيعة لغضب الله ويكـون ذلـك عـامـلاً مسـاعـداً لأصحـاب المهدي ويكتب الله لهم النصر الأكبر ويهزم أعـداؤهم شرّ هـزيمة فـلا يبقى منهم إلَّا الشـريـد والمتخفيّ فيسـاعـد النـاس في القبض عليهم « حَتَّى يَقُـولَ الحَجَـرُ لِلْمُسْلِمِ هٰـذَا يَهُـودِيٌّ وَرَائِي فَـاقْتُلْهُ » وهـو ـ على الأقل ـ تعبير عن حالة فلول المنهزمين الذين يـطاردهم الغضب الإلٰهي والجماهيري .

ويـدخل المهـدي (عليه السـلام) إلى القدس فـاتحـاً ومـطهـراً للمسجد الأقصى وما حوله ، ويدخل العالم مرحلة جديدة هي مـرحلة ما بعد القضاء على اليهود .

نزول المسيح (عليه السلام)

أيّاً كان الوضع السيـاسي العالمي فـإنَّ القضاء على السفيـاني ، وانكسار اليهود وتحرير القدس ، سيكون مفاجأة عالمية تحدث هزة في مختلف الشعوب .

أمَّا الشعوب الإسلامية فتكون الموجة فيها إيجابية وعارمة بـاتجاه الانضمام إلى دولة المهدي (عليه السـلام) وقيادتـه ، فإن الأحـاديث

تـذكر سيـطرة المهدي (عليـه السلام) على بـلاد المسلمين بعد فتـح القـدس « وَتَرْجِـعُ إِلىٰ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَتُهُمْ وأُلْفَتُهُم وَقٰاصِيهِمْ وَدٰانِيهِمْ » ولا تذكر أيّ معارك يخوضها المهدي (عليـه السلام) لتحـرير بقيـة أجزاء الوطن الإسلامي الكبير .

ولكن المـوجة السلبيـة تكون في العـالم المسيحي الذي يفـاجأ بانهيار حلفائه اليهـود وانتهائهم دفعـة واحدة ، ويـرى نفوذه على بـلاد المسلمين قد اكتسحته موجة جـديدة لم تكن بـالحسبان ، بـل يرى أن هذه الموجة أصبحت تهدد وجوده في عواصمه وبلاده !

تذكر الأحاديث الشريفـة معالجتين لحـالة الـذعر والتـأهّب التي تحدث في العالم المسيحي ، لم أتبيّن أيهمـا تسبق الأخرى : الهـدنة الإسـلامية المسيحيـة التي يعقـدهـا الإمـام المهـدي (عليـه السـلام) معهم . ونزول المسيح (عليه السلام) من السماء .

فقد ورد أن آخر هدنة تكون بين المسلمين والروم تكون على يد المهدي (عليه السلام) ثمّ ينقضها الروم ، وأن مدتها تدوم سبع سنين حسب بعض الأحاديث وتسعة أشهر حسب بعضها الآخر . . ممَّا يـدلّ على أنَّ المهدي (عليه السلام) يعمل بعد فتح القدس لتطمين العالم المسيحي بأنَّه لا ينوي التوسّع العسكري أو الدخول في حرب معهم ، مـا داموا يحتـرمون بنـود الهدنـة المعقودة بينهم وبينـه ، وبذلـك يفتح المجـال واسعاً أمـام المسيـح (عليـه السـلام) للعمـل مـع الشعـوب المسيحية ، ويبدو أنه يكون الـوسيط في الهدنـة بين الغرب والمهـدي (عليهما السلام)

قـالَ عَزَّ وَجَـلَّ : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِـهِ وَيَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ وقد ورد في تفسيرها « إِنَّ عِيسىٰ قَبْـلَ

يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلىٰ الدُّنْيا فَلا يَبْقىٰ أَهْلُ مِلَّةٍ يَهُودِيٌّ وَلا غَيْرُهُ إِلاَّ آمَنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيُصَلِّي خَلْفَ الْمَهْدِيِّ » .

وفي أحاديث أخرى : « يَنْزِلُ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ » .

« فَإِذا كَانَ يَوْمُ الْجُمْعَةِ وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلاةُ يَنْزِلُ عِيسىٰ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنَ السَّماءِ وَعَلَيْهِ ثَوْبانِ أَحْمَرانِ ، كَأَنَّما يَقْطُرُ مِنْ رَأْسِهِ الدُّهْنُ ، وَهُوَ رَجُلٌ صَبِيحُ الْمَنْظَرِ وَالْوَجْهِ أَشْبَهُ الْخَلْقِ بِإِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَيَأْتِي الْمَهْدِيَّ وَيُصافِحُهُ وَيُبَشِّرُهُ بِالنَّصْرِ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقُولُ لَهُ الْمَهْدِيُّ : تَقَدَّمْ يا رُوحَ اللَّهِ وَصَلِّ بِالنَّاسِ . فَيَقُولُ عِيسىٰ : بَلِ الصَّلاةُ لَكَ يَابْنَ رَسُولِ اللَّهِ . فَعِنْدَ ذٰلِكَ يُؤَذِّنُ عِيسىٰ وَيُصَلِّي خَلْفَ الْمَهْدِيِّ » .

وفي حديث : « يَنْزِلُ واضِعاً يَدَيْهِ عَلىٰ أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ وَمَعَهُ أُلُوفُ الْمَلائِكَةِ » .

وأمر نزوله (عليه السلام) في القدس محل إجماع الأحاديث والمسلمين ، ولكن السؤال : هل ينزل ويعلن مباشرة موقفه من الإسلام ويأمر الناس باتّباع المهدي (عليهما السلام) والانضمام إلى قيادته ؟

الذي أفهمه من طبيعة الأمور أن عيسى (عليه السلام) ينزل للعمل مع أتباعه في خطة تدريجية تجعلهم يتقبلونه ويؤمنون به جميعاً بدون استثناء ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ وأنّه يعمل مع الجماهير المسيحية لإحداث تحوّل فيها نحو الإسلام ولإخضاع حكوماتهم وقساوستهم ، وأن الصلاة خلف المهدي (عليهما السلام) تكون ختام عمله معلناً بذلك للمسيحيين اقتداءه هو بالمهدي (عليه السلام) .

ولم أجد في الأحاديث ما يخالف هذا الافتراض المنطقي إلاَّ الحديث القائل بأنَّ المهدي يصلّي في بيت المقدس بالناس أيّاماً فإذا كان يوم الجمعة وقد أقيمت الصلاة ينزل المسيح فيصلّي خلفه . . ولكن وجدت نصاً آخر للحديث أن المهدي « يُصَلِّي بِالنَّاسِ إِمَاماً (لا أيّاماً) حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَأُقِيْمَتْ الصَّلاةُ يَنْزِلُ المَسِيحُ عَلَيهِ السَّلاَمُ » ممّا يدلّ على أنَّ كلمة (أيّاماً) جاءت من اشتباه النسّاخ بدل كلمة (إماماً) .

وعلى هذا فإن مدة عمل المسيح (عليه السلام) منذ نزوله إلى أن يصلّي خلف المهدي (عليه السلام) قد تكون طويلة تصل إلى سنوات . . وقد يبدأ عمله (عليه السلام) بالانتقال من القدس إلى روما ، أو المدينة الروميّة الكبيرة كما سمّتها بعض الأحاديث ، وقد يزور العديد من عواصم البلاد المسيحيّة ، لأنَّ نزوله (عليه السلام) هو كالبعثة الجديدة إلى النصارى واليهود ، بل إن رفعه إلى السماء وادّخاره حيّاً لمدة ألفي سنة أو أكثر أو أقل وإعادته إلى الأرض إنَّما هو خطة إلٰهيّة اتّضح لنا من أهدافها : أن يكون عَلَماً للساعة ودليلاً عليها كما ذكر الله تعالى . وأن يدعو أتباعه النصارى مجدّداً بعد أن تصبح في يدهم أكثر مقدّرات الأرض ، ويصحّح علاقتهم باليهود ويقيم على اليهود الحجّة . ويقربهم من المسلمين حتى يصل بهم إلى الدخول في الإسلام ، والانضمام إلى دولة المهدي (عليه السلام) .

ولنا أن نتصوّر مدى فرحة النصارى في العالم بنزوله (عليه السلام) والتظاهرات المليونية العارمة التي ستشهدها بلادهم ترحيباً بالمسيح،وتصوّرهم أن هذا الموج الذي أحدثه ظهوره سيرجّح كفّتهم على الموج الإسلامي الذي أحدثه ظهور المهدي (عليهما السلام) .

وعلى ضوء هذا يمكننا الاعتماد على الأحاديث القائلة بـأنَّه بعـد فتح القدس يفتح الله تعالى للمهدي شرق الأرض وغربها بدون قتال . وأن نفسّر العديد من أحاديث حركة ظهور المهدي بعد فتح القـدس ، مثـل حديث أن المهـدي والمسلمين يفتحون مـدينة الـروم الكبـرى أو القسطنطينية الكبرى بـالتكبير ، الـذي يمكن تفسيره بـدخول المهـدي وأنصاره (عليهم السلام) بشعار التكبير إلى عاصمة النصـارى الدينيـة روما ، أو إلى إحدى عـواصم دولهم الأخرى ، واعتبـاره وصفاً لبـداية بسط المهدي لحكم الإسلام على العالم المسيحي بمساعـدة المسيح (عليهما السلام) .

وممّـا تـذكـره الأحـاديث في ختـام دور عـيسـى بن مـريـم (عليه السلام) خبر وفاته وقيام المهدي (عليه السلام) بمراسم تكفينه والصلاة عليه ودفنه على مرأى من جماهير الناس حتى لا تدّعى ألوهيته ويعبد مرة ثانية . . وأنَّه يكفّنه بثوب من نسج أمّه الصدّيقة مريم ويدفنه في القدس إلى جانب قبرها (عليهما السلام) .

المسيرة الجديدة للعالم

الأحاديث في مدة حكم المهدي (عليه السلام) وما يكون بعده متفاوتة ومضطربة ، ويقـل في رواتها الثقـات المشهورون ويكثـر فيهم الرواة العاديّون والمجهولون والضعفاء ، ويصلَ التفاوت في عـدد منها إلى التضاد والتناقض . وقد تتبّعت أحاديث مدة حكمه (عليه السلام) بشكل أولي ، والتي يذكر بعضها أنَّه سبع سنوات ، ويصل بعضها إلى ثـلاثمئة وتسـع سنين وقليل منهـا يـذكـر امتـداده إلى يـوم القيـامـة . . فألفتني ما يذكره بعضها من أن النبي (ص) عبّر عن مدة حكم المهدي بطريقة رمـزية فقـال : « يَحْكُمُ : وَفَتَحَ أَصابِعَ الْيَـدِ الْيُمْنىٰ ، ثُمَّ أَضافَ

إِلَيْها إِصْبَعَيْنِ مِنَ الْيَدِ الْيُسْرىٰ ، وَلَمْ يَزِدْ على هٰذا » . ولذلك روى بعض الرواة الدقيقي الرواية أن المهدي يحكم خمساً واثنين . فسئل عن معناه فقال : لا أدري ، هكذا رويته !

- إنَّ هذا الرمز المقصود من النبي (ص) يساعد على افتراض أن التطوّر الذي يحصل في العالم في عصر المهدي (عليه السلام) يشمل حتى السنة كوحدة زمنية للتاريخ . ويساعد على هذا الافتراض عدد من الأحاديث والأمور نشير إليها في هذا العرض المجمل :

منها : أن دولة سليمان (عليه السلام) والتي هي نموذج محدود ومشهد خاطف للحياة الإنسانية على الأرض كما يمكن أن تكون وكما يريدها الله تعالى ، محدودة من حيث المساحة ، فقد وصلت كما تذكر الأحاديث الشريفة إلى حدود مصر وإلى اليمن وإلى إصطخر في جنوب إيران ولم تتعدَّها ، ومحدودة من حيث الوسائل التي سخرت فيها لتطوير الحياة . . هذه الدولة كان يجب أن تبقى أربعين سنة وتشمل جيلاً من الناس حتى تؤدّي غرضها في إراءة النموذج والاحتفاظ به في ذاكرة الأجيال . . فكيف بالدولة الإسلامية العالمية على يد المهدي (عليه السلام) وهي ذات التطبيق الشامل للحياة الإنسانية بالهدىٰ الإلٰهي ، التي جاهد من أجلها مئة وأربعة وعشرون ألف نبي (صلوات الله على نبيّنا وعليهم) ، وواصل جهادهم عدد أكبر من الأئمة (سلام الله عليهم) . . ؟

ومنها : أنَّ ضخامة حدث ظهور المهدي ونزول المسيح (عليهما السلام) وإقامة الدولة الإلٰهية الكبرى . . بل إنَّ عدداً من مفردات الإنجازات والنعم الإلٰهية التي تصفها أو تشير إليها الأحاديث الشريفة . . تقتضي زمناً طويلاً ، ولا تتناسب مع فرضية أن يكون هذا الحدث شعلة تضيء على العالم لحظة ثمَّ تنطفئ ليعود الظلام من

جديد ! بل إن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ الْمُشرِكُونَ ﴾ أن نور الإسلام يتوهّج ويأخذ مداه إلى آخره لا أنّه يخمد دفعة واحدة .

ومنها : أن الناس قد وصلوا بالحرفين من العلم اللذين يملكونهما إلى اكتشاف القمر وبعض الكواكب ، وإلى وضع أقمار وسفن صناعية وغيرها في المدار الخارجي للأرض ، وقد طوّروا شكل الحياة وموادها تطويراً كبيراً . . فكيف سيكون شكل الحياة ومداها بعد أن يُخرج المهدي (عليه السلام) الخمسة وعشرين حرفاً من العلم ويضمّها إلى الحرفين ويبثّها في الناس سبعة وعشرين حرفاً كما تذكر الأحاديث ؟

إنَّ ذلك يقتضي أن يصبح السفر من الأرض إلى المناطق البعيدة البعيدة من الكون وإقامة الاتصال بسكّانها أمراً طبيعيّاً .

ومنها : أن حركة الحياة الدنيا باتجاه الآخرة وحركة الشهادة باتجاه الغيب تقتضي أن يحدث في تراكم أجيال الإنسان وقرون الزمن تغير نوعي في الحياة على الأرض يصل إلى حالات انفتاح الغيب على الشهادة والآخرة على الدنيا . وهذه الحالات التي ورد بشأنها عدد من الآيات والأحاديث والتي يمكن أن نسمّيها المراحل التمهيدية للقيامة ، إنّما يبدأ ظرفها بظهور المهدي (عليه السلام) .

على ضوء ذلك يمكن أن نرجح أن دولة الإسلام العالمية التي تبدأ على يد المهدي (عليه السلام) تمتدّ إلى يوم القيامة ، وأن ضمان استمرارها يكون في خطين : أحدهما حالة الرشد التي يصل إليها الناس في ظلّ نمو الوعي وظروف الحياة الجديدة،والتي قد تصل الى حالة العصمة الاجتماعية عن الكفر والانحراف . وثانيهما : حالة

انفتاح الأرض على الكون والآخرة ممّا يجعل من الطبيعي مجيء بعض الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) إلى الأرض لتوجيه مسيرة البشرية الجديدة كما في بعض الأحاديث .

كما أنَّ بعض الأحاديث والأقوال الموروثة لدى المتديّنين عن مجتمع اللانقد الذي يتحقّق في عصر المهدي (عليه السلام) أمر منطقي إلى حدّ بعيد .

وكذلك إمكانية أن يصل المجتمع البشري في عصره (عليه السلام) وما بعده إلى مجتمع اللامحكمة ، ومجتمع اللادولة بمفهومها المعروف . وأن يعيش المجتمع الإنساني في ظلّ الهدىٰ الإلهي أجيالاً عديدة في حركة خيّرة منسجمة لا ينشز عنها إلاَّ الدّجال وأصحابه في أول الأمر ، ومجموعة الأشرار الذين تقوم عليهم الساعة كما ورد في الأحاديث الشريفة .

وبصورة كلية ينبغي أن ندخل في حسابنا التطورات الأساسية التي تطرأ على حركة المجتمع البشري والحياة على الأرض في عصر المهدي (عليه السلام) ، هذه التغييرات التي أبقاها النبي (ص) والأئمة (ع) غيباً عن عامة المسلمين لعدم قدرتهم على استيعابها أو لحكمة يعلمها الله تعالى . .

روى صاحب البحار ج ٦ ص ٣١٢ عن عبدالله بن الحارث قال : قلت لعليَ (عليه السلام) ، يا أمير المؤمنين أخبرني بما يكون من الأحداث بعد قائمكم ، قال : « يابن الحارث ذلك شيء ذكره موكول إليه ، وإن رسول الله (ص) عهد إليّ أن لا أخبر به إلا الحسن والحسين » .

*

من ملامح شخصيّة المهدي (عليه السلام)

يناسب في ختام هذا العرض لحدث الظهور أن نقدّم صورة عن شخصيّة المهدي (عليه السلام) مقتبسة من أوصافه العديدة التي تضمّنتها الأحاديث الكثيرة في مصادر المسلمين :

« اسْمُهُ اسْمِي ، وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي ، وَشَمائِلُهُ شَمائِلِي » .

وما أشوق الأرض إلى شمائل يتيم مكة . . فإنَّ لقلبها نحوه وجيباً لا يبلغه وجيبها إلى أحد أبداً . .

خطاه على متنها تاريخ .
وأنفاسه في هوائها أريج .

وحيثما عفّر جبينه بالسجود فثمَّ خشوع إلى الأعماق ، وفوار نور إلى عنان السماء .

وفيض دموعه على ثراها . . روّى قلبها أكثر من أنهارها .
وحبّات دموعه . . أعزُّ لديها من جواهرها ولآليها .

وكلمات ذلك القلب العامر بالله . . لا زالت تُدَوِّي في جنبات بقاعها ، وتَودُّ لو يؤذن لها فتنطق بها للأجيال ، وتود لو تسمع منها المزيد .

والأجيال . . ما أشوقها إلى شمائل رسول الله . . شمائل أكبر مهندس لتاريخ الأرض . . وأمهر بانٍ لإنسانها . .

وجيل أمتنا الحاضر . . جيل المليار مسلم . . المستضعفين في الأرض . . الذين تزدريهم عيون حفنة من اليهود وبحر محيط من الأعداء ، ويعزّ فيهم القادة الرجال . . ما أشوقهم إلى إسراء من

المسجد الحرام الحزين إلى المسجد الأقصى المستغيث . . وإلى نسمة من شمائلك يا حبيب الله تسري في شمائلهم فتبعثهم إلى الحياة . .

ويجيء جواب الرسول الرحيم :

« اسْمُهُ اسْمِي ، وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي ، وَشَمائِلُهُ شَمائِلِي ، وَسُنَّتُهُ سُنَّتِي . . يُقِيمُ النَّاسَ عَلىٰ شَرِيعَتِي »[1] .

« اَلْمَهْدِيُّ مِنِّي . . أَجْلىٰ الْجَبْهَةِ ، أَقْنىٰ الأَنْفِ ، يَمْلأُ اَلأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً ، كَمٰا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً »[2] .

« اَلْمَهْدِي مِنَّا أَهْلَ اَلْبَيْتِ ، أَشَمُّ الأَنْفِ ، أَقْنىٰ ، أَجْلىٰ ، يَمْلأُ اَلأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمٰا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً »[3] .

والشمائل : الصفات الجسمية ، وقد تطلق على الصفات الأخلاقية .

وأجلى الجبهة : واسع الجبهة وقد انحسر عنها الشعر .

وأقنى الأنف ، وأشمّ الأنف : تقال لصاحب الأنف الدقيق المستطيل الذي في وسطه علو وتقوس .

وقد ذكرت الأحاديث الشريفة عدداً آخر من صفاته الشخصية (عليه السلام) مثل أنّه :

« مَرْبُوعُ الْقَامَةِ ، أَمْيَلُ إِلىٰ الطُّولِ » .

« حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الشَّعْرِ . كَثُّ اللِّحْيَةِ » .

« أَبْيَضُ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ . عَلىٰ خَدِّهِ الأَيْمَنِ خَالٌ » .

---

(١) أخرجه الصدوق في كمال الدين ص ٣٨٦ ، وغيره .

(٢) أخرجه أبو داود في صحيحه ج ٢ ص ٢٠٧ ، وغيره .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٥٥٧ ، وغيره .

« أَزَجُّ الْحاجِبَيْنِ مُشْرِفُهُما . غائِرُ الْعَيْنَيْنِ واسِعُهُما ، أَفْرَقُ الثَّنايا بَرّاقُها » .

« بِظَهْرِهِ شامَتانِ ، شامَةٌ عَلىٰ لَوْنِ جِلْدِهِ ، وَشامَةٌ عَلىٰ شِبْهِ شامَةِ النَّبِيِّ (ص) » .

« يَكُونُ شَيْخَ السِّنِّ ، شابَّ الْمَنْظَرِ كَابْنِ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ » .

« قَوِيٌّ فِي بَدَنِهِ لَوْمَدَّ يَدَهُ إِلىٰ شَجَرَةٍ لَقَلَعَها » .

« عَلَيْهِ جَلابِيبُ النُّورِ تَتَوَقَّدُ » .

« يومىءُ لِلطَّيْرِ فَتَسْقُطُ عَلىٰ يَدِهِ وَيَغْرِسُ قَضِيباً فَيَخْضَرُّ وَيُورِقُ » .

« أَشْفَقُ عَلىٰ النّاسِ مِنْ آبائِهِمْ وَأُمَّهاتِهِم » .

« آخَذُ النّاسِ بِما يَأْمُرُ بِهِ ، وَأَكَفُّ النّاسِ عَمَّا يَنْهىٰ عَنْهُ » .

« شَدِيدٌ عَلىٰ الْعُمّالِ ، جَوادٌ بِالْمالِ ، رَحِيمٌ بِالْمَساكِينَ » .

«كَأَنَّما يُلْعِقُ الْمَساكِينَ الزُّبْدَ» .

« أَشَدُّ النّاس تَواضُعاً لِلَّهِ تَعالىٰ » .

« خاشِعٌ لِلَّهِ كَخُشُوعِ النَّسْرِ بِجَناحَيْهِ » .

(الْمَهْدِيُّ خاشِعٌ لِلَّهِ كَخُشُوعِ النَّسْرِ بِجَناحَيْهِ)[1]

هذا التشبيه النبوي من جوامع الكلم التي خصّ الله تعالى بها رسوله (ص) والتي يجتمع فيها : الجمال ، والعمق ، والأبعاد .

---

(١) أخرجه ابن حمّاد في الفتن والملاحم ص ١٠٠ (مخطوطة) .
والسيوطي في العرف الوردي ج ٣ ص ٣٧ .
والسفاريني في لوائح الأنوار ج ٢ باب صفة المهدي .
وابن حجر في كتابه القول المختصر ، وغيرهم .

فأقصى ما يملك النسر من مظهر الخشوع جناحاه حيث يخفضهما إلى أسفل من بدنه ويخفض رأسه ، فيبدو ثابتاً في مكانه محدقاً في الأرض خاشعاً .

والخشوع في الإنسان أمر غريزي يكاد يكون تكوينياً ، ذلك أن الوجود المحدود لا بدَّ له أن يستمد من الوجود المطلق عزَّ وجلَّ فيعظمه ويحبّه ويستعطفه . . فإن هو لم يفعل التجأ إلى ما يتصوّره مطلقاً أو كبيراً فخشع له ، فأفسد وجوده وأفسد الحياة من حوله . وأكثر ما يتجلّى أمر هذا الخشوع في الحكّام،فترى الواحد منهم يخشع لوجود آخر يعظّمه ويستند إليه ويسبح بحمده . . وإن شئت فانظر إلى حالة عشرين حاكماً على العرب وستين حاكماً على المسلمين !

والمهدي (عليه السلام) خاشع لله تعالى ، يعظّمه ويحبّه ويستعطفه . . ولكن لماذا كخشوع النسر بجناحيه أو لجناحيه أو لجناحه كما في بعض الروايات ، أي خشوعاً يصل إلى جناحيه كما تقول خشوعاً يصل إلى قمة رأسه ؟

يريد النبي (ص) بهذا التشبيه أن يبيّن بُعدين على الأقل في شخصية حفيده المهدي (عليه السلام) ينسجمان مع هذا الخشوع وينبعان منه : القوة على أعدائه ، والتحليق والسمو عليهم وعلى الدنيا .

فالمهدي (عليه السلام) قوي على أعدائه كقوة النسر على بغاث الطير ، يحدق بالطاغوت كالنسر من أعلى وينقض عليه فيرديه ولا يمهله . . فهذه ثمرة الخشوع الكامل لله عزَّ وجلَّ لا كخشوع الضعفاء الذين يخشعون لله ويرون أنَّه أكبر ، ويخشعون في نفس

الوقت للقوى الحاكمة ويرون أنَّها أكبر أيضاً ! فذلك خشوع القطيع يطلب من ربّه النجاة من الذئاب ويستسلم لها ، بل خشوع الدجاج لربّه يطلب منه النجاة من الثعلب ولا يجرؤ أن يطلق في وجهه صراخاً أو ينقره بمنقار !

والمهدي (عليه السلام) يمسك بزمام الدنيا ويسيطر على أطرافها ، يكنس منها الجور والظلم ، ويملؤها بالقسط والعدل . . ولكنَّه محلق عنها كالنسر ، يراها أصغر من قدره وأصغر من هدفه . . ومن يزهد في مناصب الدنيا وأموالها ومتاعها فلا يراها لنفسه قدراً ، فذلك زهد النسور المحلّقة .

« مِنْ عَلاٰمَةِ الْمَهْدِيِّ : أَنْ يَكُونَ شَدِيداً عَلىٰ الْعُمَّالِ ، جَوٰاداً بِالْمٰالِ ، رَحِيماً بِالْمَسٰاكِينَ »[1]

الفقراء في مصطلح فقهاء المسلمين هم (الذين لا يملكون كفاية نفقتهم السنوية ، سواء كانوا عاطلين عن العمل أو كانوا يعملون ولكن واردهم لا يكفيهم) وتحسب كفاية النفقة السنوية بالمستوى المتوسط للمجتمع الذي يعيشون فيه . وعلى هذا فإن أكثر من أربعة مليارات إنسان من أصل حوالي خمسة مليارات ونصف عدد سكّان الأرض هم فقراء بالمفهوم الإسلامي .

والمساكين هم الفقراء الأسوأ حالاً ، من الذين لا يكادون يسدّون رمقهم ، أو الذين لا يستطيعون كسب معيشتهم لقصورهم الذهني أو البدني ، ولا مورد لهم .

وأساس مشكلة المساكين والفقراء تأتي من أن الأرض والحياة

(١) أخرجه الترمذي ج ٣ ص ٣٢٣ والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ص ٧٥ .

الدنيا المحدودة لا تتسع لمطامع الناس التي يتصورون أنَّها مصالحهم ، فتتعارض مصلحة الفقراء مع مصلحة الحاكم ومجموعة من بيدهم الثروة في المجتمع فيستأثرون ويظلمون . . ويستحكم التعارض وتصبح المشكلة مستعصية ومزمنة .

وتتجه الكنيسة المسيحية إلى معالجة المشكلة بالوعظ والتربية الأخلاقية .

وتتجه الشيوعية إلى معالجتها بتثوير الفقراء (البروليتاريا) على أصحاب القدرة والثروة (البرجوازيّين) .

وتدعي الدول الغربية أن الضوابط القانونية هي المعالجة التي تحقّق التوازن بين مصلحة فئات المجتمع .

وتتميّز معالجة الإسلام بأنَّها تتضمّن العناصر الإيجابية من هذه المعالجات وتضيف إليها عنصراً جديداً أساسياً .

فالتربية الأخلاقية وما يتفرّع عنها من تشريعات مالية وقيم وعادات اجتماعية . . عنصر ضروري لمعالجة المشكلة ، ولكنَّه عنصر تكميلي وتجميلي وليس أساسياً .

وتثوير الطبقة المستضعفة أمر ضروري ولكن بالطريقة والمحتوى الإسلامي ، أمَّا الثورة بالطريقة والمحتوى الشيوعي فلا تعني أكثر من نقل القدرة والثروة من يد فئة إلى يد فئة جديدة ، وتكون المعالجة بالتالي تغيير أحد طرفي المشكلة لا أكثر .

والقوانين التي تضبط حدود مصالح الأفراد والفئات في المجتمع أيضاً ضرورية ، ولكن الإسلام لا يثق بالقوانين الوضعية ولا بمنفذيها .

إنَّ العنصر الجديد الذي يقدّمه الإسلام يتناول أساس المشكلة وعمقها الذي هو في الإنسان ، ويطرح هذا السؤال :

مَنْ مِن الناس يمكن أن يكون محبّاً للمساكين والفقراء وحريصاً على مصلحتهم ؟

ويجيب عليه ، بأن الإنسان ما لم يؤمن بالموقف والمسؤولية بين يدي الله تعالى في الآخرة ، فإن غريزة حبّ الذات ستبقى مانعاً له عن حبّ الفقراء والمساكين وستدفعه إلى عدائهم والإضرار بمصلحتهم . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ! وَلَا يَحُضُّ عَلىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينَ ! ﴾ .

وحتى أولئك المؤمنون بيوم الدين نظرياً ولكنَّهم منافقون ، ليس بمقدورهم أن يحبّوا جماهير الفقراء والمساكين ، بل سيدفعهم نفاقهم إلى منع التعاون بين الناس ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . . الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ! ﴾ .

وبذلك ينحصر الأمر في نوع خاص من الناس هم المصدّقون بالدين والمسؤولية أمام الله تعالى ، فهؤلاء وإن تعارضت مصلحتهم مع مصلحة الجماهير الواسعة إلَّا أنَّهم سيفضلون مصلحة الجماهير على مصلحتهم خوفاً من العقوبة الإلٰهية في يوم الدين . فهم وحدهم المؤهّلون لأن يكونوا أمناء على مصلحة الفقراء والمساكين ، وبيدهم وحدهم يجب أن تكون السلطة ومقدّرات المجتمع .

على أنَّ حبّ المساكين والفقراء لدى المهدي وأمثاله من كبار الأئمة (عليهم السلام) له منابع أخرى سوى الخوف من الله تعالى ، لأنَّ الخوف من عقاب الله يمثّل الحدّ الأدنى في الحاكم في نظر الإسلام . .

فهم يحبون الجماهير ويخدمونهم ، رغبة في جزاء الله تعالى في الآخرة .

ويحبونهم ويخدمونهم ، لأن الله تعالى يحبّ ذلك ويأمر به ، فيكون حبّهم من فروع حبّ الله تعالى . وهذا النوع العالي من العبادة من أخلاق رسول الله (ص) وكبار أهل بيته وصحابته (عليهم السلام) ، وقد ورد في عدة أحاديث شَبَهُ المهدي بجدّه رسول الله (ص) في خَلقه وخُلقه . وبعضها يصف حبّه (عليه السلام) للمساكين فيقول: « المهدي كأنّما يلعق المساكين الزبد »وسواء كان هذا الوصف من رسول الله (ص) أو تعبيراً عمّا فهمه الرواة من وصفه لولده المهدي . . فهو يصوّر أبوّته الحانية للمساكين وهو يجلس معهم ويطعمهم بيده من أطيب الأطعمة .

وكما أنَّ الرحمة بالمساكين مقياس تعرف به عدالة الحاكم في فئة المساكين ومن ثمَّ في بقية الفقراء وفئات المجتمع . . فهي من جهة أخرى تعرف بصفتين تلازمانها وتنتجان عنها هما : سخاء الحاكم ، وشدّته على وزرائه . فالحاكم البخيل أو غير الكريم يصبح عاجزاً عن حبّ المساكن وخدمتهم . والمتسامح مع جهاز دولته يصبح عاجزاً عن إنصاف كلّ فئات المجتمع .

ولم يذكر الحديث الشريف صفة حبّ المساكين أولاً مع أنَّها أساس الموضوع ، لأنَّه ليس في مقام التحليل أو التوجيه التربوي بل في مقام بيان صفات المهدي (عليه السلام) التي تتّصل برحمته بالمساكين ، وقد جعل أول هذه الصفات محاسبته لجهاز دولته ، ويليه إنفاقه للثروة على أصحابها الشرعيين « يَحْثُو الْمَالَ حَثْواً وَلاَ يَعُدُّهُ عَدّاً » .

وللإسلام رأيه الخاص في تعامل المسؤول الأول في الدولة مع بقية المسؤولين ، الذي يختلف عن كلّ مناهج الحكم والادارة . . فهو يأمر الحاكم أن يعتمد مع بقية المسؤولين منهج المراقبة والمحاسبة والعقوبة السريعة الشديدة . . وفي الوقت الذي يحرّم بشدة التجسّس على مواطني الدولة الإسلامية باستثناء أعدائها من المنافقين والكفّار . . يوجب على المسؤول الأول أو يجيز له أن يشكّل جهاز تجسّس على كافة المسؤولين من الوزراء ومعاونيهم ، وعلى حكّام المحافظات وكبار الموظفين .

وقد رسم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قواعد هذا المنهج في عهده الذي كتبه لمالك الأشتر (رضي الله عنه) عندما عيّنه حاكماً على مصر فقال له بشأن الوزراء والولاة : « ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ وَابْعَثْ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلىٰ اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ ، وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلىٰ خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ ، اكْتَفَيْتَ بِذٰلِكَ شَاهِداً فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ . . ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ »[1] .

« فلا يزال يقتل أعداء الله ، حتى يرضى الله »[2]

الطغاة شجرة خبيثة واحدة . . من أول الأجيال . . إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٣٥ ـ تعليق صبحي الصالح .

(٢) أخرجه الصدوق في كمال الدين ج ٢ ص ٤٧١ .

من قابيل الحسود القاتل . . إلى آخر قاتل لإنسان بريء في ساعتنا هذه .

ومن أول قارون جمع فأوعى ، وطغى على عباد الله . . إلى قوارين عصرنا الغربيّين والشرقيّين وأزلامهم في العالم الثالث .

ومن أول ظالم تسلط على عباد الله وقهرهم . . إلى ريغان وأندربوف وميتران وتاتشر ، ومقلّديهم في الأرض .

إنَّهم حالة واحدة متصلة ، ومدرسة واحدة لإبليس تنتج في كل جيل أفواجاً بنفس القوالب ، وبذات العقلية المعكوسة والنفسية المنكوسة ! ﴿ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشٰابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] .

وجرائمهم في حق الملايين من عباد الله ، هي هي ، واحدة في الجوهر وإن تطوّرت أشكالها . بل هي واحدة حتى في الشكل والتفاصيل في كثير من الأحيان ! ويا لها من جرائم يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتكدح فيها أجيال المستضعفين حتى تلاقي ربّها .

وقصة تكذيبهم لأنبياء الله وكتب الله ، واضطهادهم للأنبياء والمؤمنين . . قصة واحدة متصلة إلى يومنا هذا ﴿ كَذٰلِكَ مٰا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ! أَتَوٰاصَوْا بِهِ ؟! بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُون ﴾[2] .

وإنَّها لقصة تئنّ منها بقاع الأرض ، ويبكي منها التاريخ ، وتنوح بمأساتها الطيور على أغصانها ، وتضجّ لها الملائكة في السماوات . .

---

(١) سورة البقرة : ١١٨ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٢ ـ ٥٣ .

وتَدْمى بها قلوبنا جيلاً بعد جيل فيموت المؤمن منّا أو يقتل وفي قلبه ذلك الغيظ التاريخي من جرائمهم لا يهدأ ولا يشفى . .

قتلونا زرافات ووحداناً ، نشرونا بالمناشير . قطعوا منّا الألسن والأيدي والأرجل والرؤوس . . رمونا في الآبار بعد أن غرسوا فيها أسنة الرماح . . ألقوا بنا وبأطفالنا ونسائنا في خنادق مضطرمة بالنار ، وفي قدور الماء تفور ، وفي أحواض المواد الكيمياويّة . . قتلونا في قعور السجون المظلمة الرطبة والحارة . . رموا بنا طعاماً للأسود والوحوش في حدائقهم . ألقونا مقيَّدين في الفلوات للذئاب ، وفي الثلوج للهلاك ، وفي البحار والأنهار والبحيرات للغرق . .

قتلونا بكلّ نوع من القتل يخطر أو لا يخطر على بال . وعذّبونا بأنواع العذاب التي تخطر أو لا تخطر على بال !

وكان أذاهم المعنوي أشدّ علينا من كلّ ذلك . . أهانوا كراماتنا اتّهمونا بكل قبيح ، هتكوا أعراضنا . سلّطوا السفهاء علينا . أخذوا ديارنا وأموالنا . حاربونا في لقمة عوائلنا . منعوا ثدي الأمّ عن فم أطفالنا . صادروا وجودنا وحرّيتنا ، ومنعونا أن نتّصل بجماهير المستضعفين من عباد الله ، أن نقول لهم كلمة ، خوفاً أن تعرف الجماهير الله ورُسله وتعي طغيانهم فتثور عليهم .

وكأنَّ إبليس على مرّ القرون يكرّر نسخة الواحد من هؤلاء المجرمين كلَّما اتسع عدد البشر على الأرض . . فيصبح الفرعون الواحد مئة ، والقارون الواحد ألفاً ، وعشرات السفهاء من أزلامهم مئات الألوف . . !

إنَّ غيظ قلوب المستضعفين من هؤلاء الطغاة مزمن ، وثارات المؤمنين عندهم قديمة جديدة . وإنَّ الأمل بأن يهتدوا ويصلحوا يشبه

الأمـل بـأن يخضـر القسم اليـابس من الشجـرة ولا ينشـر اليَبَس في بقيتها ، بل يشبه الأمل بـأن تتحول الغـدة السرطـانية إلى جـزء مسالم نافع للجسم .

لقد خبرنـاهم على مرّ التـاريخ فلم ينفـع معهم علاج إلاَّ غضب إلٰهي يطهّر الأرض منهم بطوفان ، أو بصـاعقة من السمـاء ، أو بسيف محمـد (ص) يجـزّ منـهم الـرقـاب ، أو بـسيـف ولـده المـهـدي (عليه السلام) في مرحلة التطهير النهائية .

إنَّ الأحـاديث الشريفـة عن انتقام المهـدي (عليه السـلام) من أعـداء الله تعالى تـدلّ على أنَّ حركـة صراع المؤمنين التـاريخية معهم تبلغ مـرحلتها الأخيـرة ـ وهل التـاريـخ إلاَّ قصّـة صـراعنـا معهم ـ وأن الـوقت يكـون قـد حـان لأنَّ يستـرد المؤمنـون حقّهم الـمسلوب المغصـوب ، ويـرثـوا أرض ربّهم ، وينهـوا منهـا مسلسـل الـظلم والجرائم ، ويملأوها بالقسط والعدل بين عباد الله .

ومثل هذه العملية الجراحية تحتاج إلى إمام مهدي ينظر بنور الله فيقتـل كل مـن امتـلأت روحـه بـالشـرّ ، وكـل من لا يؤمن شـرّه على المسيـرة الجديـدة ، حتى لو كـان من المنتمين إلى المسلمين « يَسِيرُ بِـالْقَتْلِ ، بِـذَلِكَ أُمِـرَ بِالْكِتَـابِ الَّذِي مَعَـهُ : أَنْ يَسِيـرَ بِـالْقَتْـلِ وَلَا يَسْتَتِيبَ أَحَداً ، وَيْلٌ لِمَنْ نَاوَاهُ ؟ »[1] .

إنَّ عملية تطهير الأرض وحلّ أزمة المستضعفين مع المستكبرين تستحقّ أن يكـون ثمنها إبـادة أعداء الله وأعـداء عبـاده حتى لـو بلغـوا الملايين . . . بل إنَّ عملية تطهير أمةرسـول الله (ص) ـ التي تبلغ مليار إنسان ـ تستحق إبادة أعدائهم المحسوبين عليهم حتى لـو كانـوا مليون

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ٣٥٣ .

شخص أو بضعة ملايين .

ولعلنا جميعاً نقبل هذه المعادلة نظرياً ، ولكن لماذا يختلف موقفنا إذا رأينا تطبيقها ؟

إنَّها كالعملية الجراحية التي يسهل على الطبيب إقناع الناس بها ، ولكن من يتحمّل أن يجريها الطبيب على مرأى منه ومسمع وبدون دواء مخدّر للمريض ؟؟

وإذا كان الطبيب يستطيع أن يخدّر المريض فلا يعلو صراخه ، وأن يجري العملية في معزل عن الناس ، فإنَّ عملية المهدي (عليه السلام) لاستئصال أعداء الله من المجتمع لا يوجد لها مخدّر يمنع الصراخ ، ولا يمكن أن تتم في معزل عن الناس . . ولذلك فالذين يحتملون رؤية الدماء تسفك والأرواح تزهق والرؤوس تطيح . . هم أهل الإدراك العقلي والعقائدي ، والأعصاب القوية . .

سيصف الإعلام العالمي المهدي (عليه السلام) بأنَّه متعطّش للدماء ! وسيقولون فيه أضعاف ما قالوا في الإمام الخميني وفي المجاهدين المسلمين الذي يصفونهم بالمتطرفين الإرهابيّين . . لأنَّ حركة المهدي (عليه السلام) ستكون عليهم أكبر من كلّ ما رأوه من قبلها :

« إِذا ظَهَرَتْ رٰايَةُ الْحَقِّ لَعَنَهٰا أَهْلُ الشَّرقِ وَالْغَرْبِ . أَتَدرِي لِمَ ذٰلِكِ ؟ قُلْتُ : لاٰ . قَالَ : لِلَّذِي يَلْقىٰ النَّاسُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ قَبْلَ خُرُوجِهِ »[1] .

بل سيحركون ضدّه المنافقين من المسلمين وفيهم بعض

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ٣٦٣ .

المتـزيّين بزيّ علمـاء المسلمين ليصدروا الفتـاوى بأن عمـل المهدي (عليـه السـلام) مخـالف للشـريعـة الإسـلامينـة !! « أَعْـدَاؤُهُ مُقَلِّدَةُ الْفُقَهَاءِ . . . وَلَوْلاَ أَنَّ السَّيْفَ بِيَدِهِ لأَفْتَوْا بِقَتْلِهِ »[1] .

ويصـل أمر هـذه العملية الجـراحية إلى حـدّ أنَّ أحـد أصحـاب المهدي (عليه السـلام) على إيمانـه وشجاعتـه يرتجف ويـدخل قلبـه الريب لكثرة مـا يرى من سفكـه (عليه السـلام) للدماء الفـاسدة . . . ولكنَّه سرعان ما يعود إلى يقينه حين يعلم أنَّ ذلك إنما هو بعهد معهـود من رسول الله (ص) .

أمَّا بقية أصحابه ، وأمَّا جماهيـره الواسعـة فهم يدركـون بوعيهم وفطرتهم أنَّ ما يأمر به هو الحقّ ، وأنَّـه المهديُّ الملهم من الله تعـالى والمبشّر به من نبيّه (ص) ، وأنَّهم يطيعون الله ورسوله بتنفيذ أوامره ولو أمرهم أن يجروا من دماء أعدائه أنهاراً . .

وَلْتَجـر الأرض من دماء الكـافـرين والمنـافقين أنهـاراً . . فمـاذا نصنع إذا كان ذلـك هو الـطريق الوحيـد لإيقاف أنهـار الظلم السـوداء النتنة ، وإجراء أنهار العدالة الإلٰهية المضيئة بين عباد الله . . إن الوجه الآخر لحبّ المساكين والمستضعفين هو الانتقام من أعدائهم وظالميهم وقد أمرنا الله تعالى فقال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهِمُ ٱللَّهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

« وَهُوَ سَمِيُّ رَسُولِ الله وَكَنِيُّهُ ، وَهُوَ الَّذِي تُطْوىٰ لَهُ الأَرْضُ وَيَذِلُّ لَـهُ كُلُّ صَعْبٍ وَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ عَدَدُ أَهْلِ بَدْرٍ ثَلاثُمِئَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ ، وَهُوَ قَوْلُ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَـأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) إسعاف الراغبين ص ١٤٣ .

(٢) سورة التوبة : ١٤ .

جَمِيعاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فَإِذا اجْتَمَعَتْ لَهُ هٰـذِهِ الْعِدَّةِ مِنْ أَهْـلِ الأَرْضِ (الإِخْـلاص خ ل) أَظْهَرَ أَمْـرَهُ.فَإِذا كَمُـلَ لَهُ الْعَقْـدُ (الْعَدَدُ خ ل) وَهُـوَ عَشْرَةُ آلافِ رَجُـلٍ خَـرَجَ بِـإِذْنِ ٱللَّهِ فَلا يَـزالُ يَقْتُـلُ أَعْـدٰاءَ ٱللَّهِ حَتَّى يَرْضىٰ ٱللَّهُ تَعٰالىٰ . قُلْتُ : وَكَيْفَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ رَضِيَ ؟ قَالَ : يُلْقِي ٱللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ »[1] .

*

(١) كمال الدين ـ الصفحة المتقدمة

الفصل الثالث

المُمهّدون للمهدي (ع)

أحاديث الممهّدين ومصادرها

(١) حديث « ترتفع رايات سود في المشرق »

نصّ الحديث من مستدرك الحاكم :

« عَنْ عَبْـدِ آللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قـالَ : أَتَيْنا رَسُـولَ آللَّهِ (ص) فَخَرَجَ إِلَيْنـا مُسْتَبْشِراً يُعْرَفُ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَما سَأَلْنـاهُ عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَخْبَرَنـا بِهِ ، وَلا سَكَتْنا إِلاَّ ابْتَدَأَنا . . حَتَّى مَرَّتْ فِتْيَـةٌ مِنْ بَنِي هاشِمٍ فِيهِمْ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فَلَمَّا رَآهُمُ الْتَزَمَهُمْ وَانْهَمَلَتْ عَيْناهُ . . فَقُلْنا : يا رَسُولَ آللَّهِ مـانَزالُ نَـرى فِي وَجْهِكَ شَيْئاً نَكْرَهُهُ ! فَقالَ :

إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتارَ آللَّهُ لَنا الآخِرَةَ عَلىٰ الدُّنْيا ، وَإِنَّهُ سَيَلْقىٰ أَهْلُ بَيْتِي مِنْ بَعْدِي تَطْرِيداً وَتَشْرِيـداً فِي الْبِلادِ حَتَّى تَـرْتَفِعَ رايـاتٌ سُودٌ فِي الْمَشْـرِقِ فَيَسْأَلُونَ الْحَقَّ فَلا يُعْطَوْنَهُ،ثُمَّ يُسْأَلُونَهُ فَلا يُعْطَوْنَهُ،ثُمَّ يُسْأَلُـونَهُ فَـلا يُعْطَوْنَـهُ ، فَيُقَاتِلُونَ فَيُنْصَرُونَ . . فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ وَمِنْ أَعْقابِكُمْ فَلْيَأْتِ إِمامَ أَهْلِ بَيْتِي وَلَوْ حَبْواً عَلىٰ الثَّلْجِ ، فَإِنَّها رايـاتُ هُدىً يَدْفَعُونَها إِلىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْـلِ بَيْتِي يُواطِي اسْمُهُ اسْمِي واسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي فَيَمْلِكُ الأَرْضَ فَيَمْلَؤُها قِسْـطاً وَعَدْلاً كَما مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً » .

أخرجـه :

ـ الجمع بين الصحاح في آخره .

ـ ابن حمـاد في الفتن والمـلاحم ص ٨٤ و ٨٥ وغيـرهـا (من المخطوطة) .

ـ ابن أبي شيبة في المصنّف ج ١٥ص ٢٣٥ .

ـ الداني في سننه ص ٩٣ .

ـ ابن ماجه في سننه ج ٢ ـ ص ٥١٨ و ٢٦٩ .

ـ الحاكم في المستدرك ج ٤ ـ ص ٤٦٤ وص ٥٥٣ .

ـ قـال ابن الصـديق الحضـرمي : رواه الحـاكم في المستـدرك (وذكر سنده عن عبد الله بن مسعود) ورواه ابن ماجه (وذكر سنده عن عبدالله بن علقمة) وقال : رجاله كلّهم ثقات .

ـ الحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ١٨٧ .

ـ ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٠٠ .

ـ السيوطي في العرف الوردي ج ٢ ص ٦٣ و٦٨ . وأخرجـه في الحاوي ج ٢ ص ١٢٧ وقال : أخرجه ابن شيبـه ، ونعيم بن حماد في الفتن ، وأبو نعيم عن ابن مسعود .

ـ القندوزي في ينابيع المودّة ص ١٩٣ و٤٣٣ نقلاً عن مسند أبي حاتم ، وصحيح حبان ، وكتاب ابن السري .

ـ الشافعي في عقد الدرر حديث ١٦٢ و١٦٤ ص ١٢٤ .

ـ ابن خلدون في مقدمته ص ٢٦٧ .

ـ ابن طـاوس في الملاحم والفتن ص ٣٠ و١١٧ .

ـ البحـراني في غايـة المرام ص ٥٧٠ نقـلاً عن الأربعين حديثـاً لأبي نعيم .

ملاحظات حول رواية هذا الحديث :

١ ـ روت المصـادر المذكـورة وغيرهـا هـذا الحـديث الشـريف

بصيغ متقاربة ، مع بعض الفروق في الألفاظ والفقرات . وفي أكثرها لا توجد فقرة (واسم أبيه اسم أبي) وفي عدد منها كالحاوي للسيوطي وعقد الدرر للشافعي والفتن والملاحم لابن حماد والملاحم والفتن لابن طاوس ورد فيها « حَتَّى يَبْعَثَ ٱللَّهُ رٰايَةً مِنَ الْمَشْرِقِ سَوْدَاءَ ، مَنْ نَصَرَهَا نَصَرَهُ ٱللَّهُ وَمَنْ خَذَلَهَا خَذَلَهُ ٱللَّهُ حَتَّى يَأْتُوا رَجُلاً اسْمُهُ اسْمِي فَيُوَلُّونَهُ أَمْرَهُمْ فَيُؤَيِّدُهُ ٱللَّهُ » .

٢ ـ هذا الحديث واحد من عدة أحاديث عن الرايات السود أو رايات المشرق الممهدة للمهدي (ع) ولكنَّه أطولها وأوسعها انتشاراً في مصادر الحديث ، ولا يبعد أن يكون هو الأصل لعدة أحاديث ذكرتها المصادر كأنَّها أحاديث مستقلة بينما هي أجزاء منه منقولة لفظاً أو معنى . ومنها ذلك الحديث الذي يضاهيه في الشهرة والانتشار في المصادر : « إِذٰا رَأَيْتُمُ الرَّايٰاتِ السُّودَ خَرَجَتْ مِنْ قِبَلِ خُرٰاسٰانَ فَأْتُوهٰا وَلَوْ حَبْواً عَلىٰ الثَّلْجِ فَإِنَّ فِيهٰا خَلِيفَةُ ٱللَّهِ الْمَهْدِي » الذي رواه كنز العمال ، وابن ماجه وعقد الدرر ، وابن حمَّاد ، والصواعق المحرقة ، والحاوي وغيرهم .

ولعلَّ منها أيضاً حديث « يَخْرُجُ نٰاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ يُوَطِّئُونَ لِلْمَهْدِي سُلْطٰانَهُ » الذي رواه عدد من أهل الصحاح كابن ماجه وأحمد وغيرهم .

وما رواه المجلسي في بحار الأنوار ج ٥١ ـ ص ٨٣ ـ وج ٥٢ ـ ص ٢٤٣ ، عن الإمام الباقر (ع) قال : « كَأَنِّي بِقَوْمٍ قَدْ خَرَجُوا بِالْمَشْرِقِ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ فَلا يُعْطَوْنَهُ ثُمَّ يَطْلُبُونَهُ فَلا يُعْطَوْنَهُ ، فَإِذٰا رَأَوْا ذٰلِكَ وَضَعُوا سُيُوفَهُمْ عَلىٰ عَوٰاتِقِهِمْ . . فَيُعْطَوْنَ مٰا سَأَلُوا فَلا يَقْبَلُونَهُ ، حَتَّى يَقُومُوا ، وَلا يَدْفَعُونَهٰا إِلاَّ إِلىٰ صٰاحِبِكُمْ (اي المهدي عليه السلام) قَتْلاهُمْ شُهَدٰاءُ ، أَمَا إِنِّي لَوْ أَدْرَكْتُ ذٰلِكَ لأَبْقَيْتُ نَفْسِي لِصٰاحِبِ هٰذَا الأَمْرِ » .

٣ ـ روى الحنفي في كنز العمّال ج ٦ ـ ص ٦٨ حديثاً عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بمثابة التعليق على حديث النبي (ص) عن عامر بن الطفيل أنّه قال له : « يَا عَامِرُ إِذَا سَمِعْتَ بِالرَّايَاتِ السُّودِ مُقْبِلَةً مِنْ خُرَاسَانَ فَكُنْتَ فِي صُنْدُوقٍ مُقْفَلٍ عَلَيْكَ فَاكْسِرْ ذَلِكَ الْقُفْلَ وَذَلِكَ الصُّنْدُوقَ حَتَّى تُقْتَلَ تَحْتَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَتَدَحْرَجْ حَتَّى تُقْتَلَ تَحْتَهَا » .

*

(٢) إنّها غير رايات بني العباس

« تَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ رَايَاتٌ سُودٌ لِبَنِي الْعَبَّاسِ ، ثُمَّ يُمْكُثُونَ مَاشَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ تَخْرُجُ رَايَاتٌ سُودٌ صِغَارٌ تُقَاتِلُ رَجُلاً مِنْ وُلْدِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ ، وَيُؤَدُّونَ الطَّاعَةَ لِلْمَهْدِي » .

ـ أخرجه السيوطي في العرف الوردي ج ٢ ـ ص ٦٩ .

ـ وابن حمّاد في الفتن والملاحم بألفاظ مختلفة ص ٥٢ و ٨٤ و٨٥ (من المخطوطة) .

ـ وابن طاوس في الملاحم والفتن ص ٣٣ .

وسوف نذكر محاولة بني العباس تطبيق أحاديث النبي (ص) عن رايات المشرق والمهدي (ع) على راياتهم وملوكهم .

*

(٣) حديث « هم أصحاب الرايات السود المستضعفون »

« فَيَبْعَثُ ٱللَّهُ عَلَيْـهِ (أي على السفياني) فَتىً مِنْ قِبَـلِ الْمَشْـرِقِ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ أَهْـلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ، هُمْ أَصْحابُ الـرَّايٰاتِ السُّـودِ الْمُسْتَضْعَفُونَ يُعِزُّهُمُ ٱللَّهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمِ النَّصْرَ فَلا يُقاتِلُهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ هَزَمُوهُ » .

أخرجه الحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ٢٦٢ .

والسيوطي في العرف الوردي في أخبار المهدي .

وابن طـاوس في الملاحم والفتن ص ١٥٠ .

*

(٤) حديث « فلا يردها شيء حتى تنصب في إيلياء »

« تَخْـرُجُ مِنْ خُرٰاسٰـانَ رٰايٰاتٌ سُـودٌ فَلا يَـرُدُّهٰـا شَيْءٌ حَتّٰى تُنْصَبَ فِي إِيْلِيٰاءَ » .

أخرجه الحنفي في كنـز العمال ج ٧ ـ ص ٢٦٢ نقـلاً عن مسند أحمد وجامع الترمذي بسنديهما عن أبي هريرة .

والترمذي في سننه ج ٣ ص ٣٦٢ .

ـ والسيوطي في الحاوي ج ٢ ـ ص ١٢٧ ، وفي العـرف الوردي ج ٢ ـ ص ٦٠ .

ـ وابن كثير في النهاية وقال : هذه الرايات ليست هي التي أقبل

بها أبو مسلم فاستلب بها دولة بني أميّة ، بل رايات سود أخرى تأتي صحبة المهدي .

ـ وصححه الصديق الحضرمي في رسالته في الرد على ابن خلدون وقال:رواه البيهقي في الدلائل .

ـ وروى قريباً منه ابن طاوس في الملاحم والفتن ص ٤٣ و٥٨ .

وروي في صفحة ٣١ عن سفيان الكلبي « يَخْرُجُ عَلىٰ لِوَاءِ الْمَهْدِيِّ غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ خَفِيفُ اللَّمَّةِ أَصْفَرُ ، لَوْ قَاتَلَ الْجِبَالَ لَهَدَّهَا » وفي رواية أخرى : يقاتل حتى ينزل إيلياء .

وروى نعيم بن حمَّاد في الفتن ص ٨٤ (مخطوطة) عن محمد بن الحنفيّة قال : « تَخْرُجُ رَايَاتٌ سُودٌ لِبَنِي الْعَبَّاسِ ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْ خُرَاسَانَ أُخْرىٰ سُودٌ قَلَانِسُهُمْ سُودٌ وَثِيَابُهُمْ بِيضٌ عَلىٰ مُقَدِّمَتِهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ شُعَيْبُ بنُ صَالِحٍ مِنْ تَمِيمٍ،يَهْزِمُونَ أَصْحَابَ السُّفْيَانِي حَتَّى يَنْزِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ يُوَطِّىءُ لِلْمَهْدِيِّ سُلْطَانَهُ، وَيُمَدُّ إِلَيْهِ ثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ الشَّامِ . يَكُونُ بَيْنَ خُرُوجِهِ وَبَيْنَ أَنْ يُسَلِّمَ الْأَمْرَ إِلىٰ الْمَهْدِيِّ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ شَهْراً .

ـ وروى قريباً منه الصبان الشافعي في إسعاف الراغبين على هامش نور الأبصار ص ١٢٧ .

*

(٥) أحاديث دخول الإيرانيين إلى دمشق

وهي ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يتعلّق برايات بني العباس وأبي مسلم الخراساني وأصحابه ، وقد رواها ابن حمّاد تحت عنوان (خروج بني العباس) من ص ٥٢ إلى ٥٦ من مخطوطة الفتن والملاحم ، منها :

« تُقْبِلُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنَ الْمَشْرِقِ يَقُودُهُمْ رِجَالٌ كَالْبُخْتِ الْمُجَلَّلَةِ أَصْحَابُ شُعُورٍ ، أَنْسَابُهُمْ الْقُرىٰ وَأَسْمَاؤُهُمُ الْكُنىٰ ، يَفْتَحُونَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ تُرْفَعُ عَنْهُمْ الرَّحْمَةُ ثَلاثَ سَاعَاتٍ » .

ومنها : « يَدْخُلُونَ دِمَشْقَ بِرَايَاتٍ سُودٍ عِظَامٍ فَيَقْتُلُونَ فِيهَا مَقْتَلَةً عَظِيمَةً شِعَارُهُمْ بِكُشْ بِكُشْ » ومعنى بكش بالفارسية : اقتل .

وفي رواية أخرى : « أَسْمَاؤُهُمْ الْكُنىٰ وَقَبَائِلُهُمْ الْقُرىٰ وَعَلَيْهِمْ ثِيَابٌ كَلَوْنِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ تَعُودُ بِهِمْ إِلىٰ آلِ الْعَبَّاسِ » .

وفي أخرى : « لا يَفُونَ بِعَهْدٍ وَلا مِيثَاقٍ يَدْعُونَ إِلىٰ الْحَقِّ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ ، أَسْمَاؤُهُمْ الْكُنىٰ وَنِسْبَتُهُمْ الْقُرىٰ ، وَشُعُورُهُمْ مُرْخَاةٌ كَشُعُورِ النِّسَاءِ » .

والقسم الثاني : يتعلّق بدخول الرايات السود الصغار مع المهدي (عليه السلام) ، وقد رواها ابن حمّاد في مخطوطته ص ٩٥ إلى ٩٩ تحت عنوان خروج المهدي إلى بيت المقدس وفي أمكنة أخرى منها :

« يَخْرُجُ (أي المهدي عليه السلام) مِنْ مَكَّةَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً إِنْ قَلُّوا وَخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفاً إِنْ كَثُرُوا ، يَسِيرُ الرُّعْبُ بَيْنَ يَدَيْهِ لا يَلْقَاهُ عَدُوٌّ إِلاَّ

هَـزَمَهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، شِعَـارُهُمْ أَمِتْ أَمِتْ ، لاَ يُبَالُـونَ فِي ٱللَّهِ لَوْمَـةَ لاَئِمٍ ، فَتَخْـرُجُ إِلَيْهِمْ سَبْعُ رَايَاتٍ مِنَ الشَّامِ فَيَهْزِمُهُمْ وَيَمْلِكُ فَتَـرْجِـعُ إِلىٰ النَّـاسِ نِعْمَتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ » .

ومنهـا مـا رواه في ص ٨٥ عن ابن شـوذب قـال : كنت عنـد الحسن (البصري) فذكرنا حمص فقال : هُمْ أَسْعَدُ النَّـاسِ بِالْمُسَـوِّدَةِ ٱلأُولىٰ وَأَشْقىٰ النَّـاسِ بِالْمُسَـوِّدَةِ الثَّانِيَـةِ ، فَقُلْنا وَمَـا الْمُسَوِّدَةُ الثَّـانِيَـةُ يا أَبا سَعِيدٍ ؟ فَقَالَ:قَالَ أَبُو الطَّهَوِيِّ : « تَخْرُجُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْـرِقِ فِي ثَمَانِينَ أَلْفـاً مَحْشُوَّةً قُلُوبُهُمْ إِيمَاناً حَشْوَ الـرُّمَّانَـةِ مِنَ الْحَبِّ ، بَوَارُ الْمُسَـوِّدَةِ الأُولىٰ عَلىٰ أَيْدِيهِمْ » .

ومنها ما رواه في ص ٨٤ : « تَخْرُجُ رَايَةٌ سَـوْدَاءُ لِبَنِي الْعَبَّاسِ ثُمَّ تَخْـرُجُ مِنْ خُـرَاسَـانَ أُخْـرىٰ سَـوْدَاءُ قَـلاَنِسُهُمْ سُـودٌ وَثِيَـابُهُمْ بِيضٌ ، عَلىٰ مُقَدِّمَتِهِمْ رَجُلٌ يُقَـالُ لَهُ شُعَيْبٌ بـنُ صَـالِحٍ أَوْ صَـالِحُ بنُ شُعَيْبٍ مِنْ تَمِيمٍ ، يَهْـزِمُـونَ أَصْحَـابَ السُّفْيَـانِي حَتَّى يَنْـزِلَ بَيْتَ الْمَقْـدِسِ يُـوَطِّئُ لِلْمَهْـدِيِّ سُلْطَانَهُ ، وَيُمَدُّ إِلَيْهِ ثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ الشَّامِ ، يَكُونُ بَيْنَ خُرُوجِهِ وَبَيْنَ أَنْ يُسَلِّمَ ٱلأَمْرَ لِلْمَهْدِيِّ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ شَهْراً » .

والقسـم الثالث: يـدلّ على دخـولهم إلى دمشق قبـل ظهـور المهـدي (ع) منهـا مـا رواه ابن حمـاد في الفتن والمـلاحم ص ٧١ (مخطوطة) .

« يَـدْخُلُ أَوَائِـلُ أَهْلِ الْمَغْـرِبِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَبَيْنَـا هُمْ يَنْظُرُونَ فِي أَعَاجِيبِهِ إِذْ رَجَفَتِ الأَرْضُ فَانْقَعَرَ غَرْبِـيُّ مَسْجِدِهَا ،وَيُخْسَفُ بِقَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: حَـرَسْتَا ، ثُمَّ يَخْـرُجُ عِنْدَ ذٰلِـكَ السُّفْيَانِي فَيَقْتُلُهُمْ حَتَّى يُـدْخِلَهُمْ مِصْرَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُقَاتِلُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ حَتَّى يَرُدَّهُمْ إِلىٰ الْعِرَاقِ » .

وما رواه في ص ٧٩ : « يُبَايِـعُ السُّفْيَانِيَّ أَهْـلُ الشَّامِ فَيُقَـاتِلُ أَهْـلَ

الْمَشْرِقِ فَيَهْزِمُهُمْ مِنْ فِلَسْطِينَ حَتَّى يَنْزِلُوا مَرْجَ الصُّفْرِ ، ثُمَّ يَلْتَقُونَ فَتَكُونُ الدَّائِرَةُ عَلىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ حَتَّى يَنْزِلُوا الثَنِيَّةَ ، ثُمَّ يَقْتَتِلُونَ فَتَكُونُ الدَّائِرَةُ عَلىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ حَتَّى يَأْتُوا الْجُصَّ ، ثُمَّ يَقْتَتِلُونَ فَتَكونُ الدَائِرةُ عَلىٰ أَهْلِ المَشْرِقِ ، حَتَّىٰ يَبلُغُوا إِلىٰ المَدِينَةِ الخَرِبَةِ يَعنِيْ قَرْقِيْسِيا ، ثُمَّ يَقْتَتِلُونَ فَتَكُونُ الدَّائِرَةُ عَلىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلىٰ عَاقِرْقُوفا ، ثُمَّ يَقْتَتِلُونَ فَتَكُونُ الدائِرَةُ عَلىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَيَحُوزُ السُّفْيانِيُّ الأَمْوالَ .

ثُمَّ تَخْرُجُ فِي حَلْقِ السُّفْيانِي قَرْحَةٌ ، ثُمَّ يَدْخُلُ إِلىٰ الْكُوفَةِ غَدْوَةً وَيَخْرُجُ مِنْها بِالْعَشِيِّ بِجيُوشِهِ ، فَإِذَا كَانَ بِأَفْوَاهِ الشَّامِ تُوُفِّيَ وَثارَ أَهْلُ الشَّامِ فَبايَعُوا ابْنَ الْكَلْبِيَّةِ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ الْكَلْبِيَّةَ غَايِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشَوَّهُ الْوَجْهِ . فَيَبْلُغُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَفاةُ السُّفْيانِي فَيَقُولُونَ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الشَّامِ فَيَثُورُونَ وَيَبْلُغُ ابْنَ الْكَلْبِيَّةِ فَيَثُورُ بِجُمُوعِهِ إِلَيْهِمْ فَيَقْتَتِلُونَ بِالأَلْوِيَةِ فَتَكُونُ الدَّائِرَةُ عَلىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ حَتَّى يَدْخُلُوا الْكُوفَةَ فَيَقْتُلُ الْمُقاتِلَةَ وَيَسْبِي الذُّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ ثُمَّ يُخْرِبُ الْكُوفَةَ ، وَيَبْعَثُ مِنْها جَيْشاً إِلىٰ الْحِجازِ » .

*

(٦) في تفسير قوله تعالى ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾

روي في البحار ج ٦٠ ـ ص ٢١٦ : « عَنْ بَعْضِ أَصْحابِنا قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع) جالِساً إِذْ قَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ : ﴿ **فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً** ﴾ فَقُلْنا:جُعِلْنا فِداكَ مَنْ هٰؤُلاءِ ؟ فَقالَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ : هُمْ وَاللَّهِ

أَهْلُ قُمٍّ ، هُمْ وَآللَّهِ أَهْلُ قُمٍّ ، هُمْ وَآللَّهِ أَهْلُ قُمٍّ » .

وروى العياشي في تفسيره عن حمران عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قال : كَانَ يَقْرَأُ : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ :«وَهُوَ الْقَائِمُ وَأَصْحابُهُ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » .

وفي تفسير نور الثقلين نقلاً عن الكافي : « قَوْمٌ يَبْعَثُهُمْ آللَّهُ قَبْلَ خُرُوجِ الْقَائِمِ فَلا يَدَعُونَ وِتْراً لآلِ مُحَمَّدٍ إِلاَّ قَتَلُوهُ » .

*

(٧) حديث « تكون قم وأهلها حجة على الخلائق »

روي في البحار ج ٦٠ ـ ص ٢١٣ عن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « وَسَيَأْتِي زَمانٌ تَكُونُ بَلْدَةُ قُمٍّ وَأَهْلُها حُجَّةً عَلىٰ الْخَلائِقِ ، وَذٰلِكَ فِي زَمانِ غَيْبَةِ قائِمِنا إِلىٰ ظُهُورِهِ ، وَلَوْلا ذٰلِكَ لَساخَتِ آلأَرْضُ بِأَهْلِها » .

وروي بأسانيد أخرى أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّه ذكر الكوفة وقال : « سَتَخْلُو كُوفَةُ مِنَ آلْمُؤْمِنِينَ وَيأْزِرُ عَنْها آلْعِلْمُ كَما تَأْزِرُ آلْحَيَّةُ. يَظْهَرُ الْعِلْمُ بِبَلْدَةٍ يُقالُ لَها قُمٌّ وَتَصِيرُ مَعْدِناً لِلْعِلْمِ وَالْفَضْلِ حَتَّى لايَبْقىٰ فِي آلأَرْضِ مُسْتَضْعَفٌ فِي الدِّينِ حَتَّى الْمُخَدَّراتُ فِي الْحِجالِ ، وَذٰلِكَ عِنْدَ قُرْبِ ظُهُورِ قائِمِنا ، فَيَجْعَلُ آللَّهُ قُمَّ وَأَهْلَهُ قائِمِينَ مَقامَ الْحُجَّةِ ، وَلَوْلا ذٰلِكَ لَساخَتِ آلأَرْضُ بِأَهْلِها وَلَمْ يَبْقَ فِي آلأَرْضِ حُجَّةٌ ، فَيَفِيضُ الْعِلْمُ مِنْهُ إِلىٰ سائِرِ الْبِلادِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتَتِمُّ حُجَّةُ آللَّهِ عَلىٰ الْخَلْقِ

حَتَّى لا يَبْقىٰ أَحَدٌ عَلىٰ آلأَرْضِ لَمْ يَبْلُغْ إِلَيْهِ الدِّينُ وَالْعِلْمُ . ثُمَّ يَظْهَرُ الْقَائِمُ وَيَصِيرُ سَبَباً لِنِقْمَةِ آللَّهِ وَسَخَطِهِ عَلىٰ الْعِبَادِ ، لأَنَّ آللَّهَ لا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعِبَادِ إِلاَّ بَعْدَ إِنْكَارِهِمْ حُجَّةً » .

*

(٨) حديث « رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق »

روى في البحار ج ٦٠ ـ ص ٢١٦ و٤٤٦ عن أبي الحسن الرضا (ع) قال :

« رَجُلٌ مِنْ قُمٍّ يَدْعُو النَّاسَ إِلىٰ الْحَقِّ ، يَجْتَمِعُ مَعَهُ قَوْمٌ قُلُوبُهُمْ كَزُبَرِ الْحَدِيدِ لا تُزِلُّهُمُ الرِّيَاحُ وَالْعَوَاصِفُ ، وَلا يَمَلُّونَ مِنَ الْحَرْبِ وَلا يَجْبُنُونَ ، وَعَلىٰ آللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وروى الكاظمي في بشارة الإسلام ص ١٤١ وغيره عن علي (عليه السلام) أنه قال :

« فَإِذَا انْقَضىٰ مُلْكُ بَنِي فُلانٍ ، أَتَاحَ آللَّهُ لآلِ مُحَمَّدٍ بِرَجُلٍ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ ، يَسِيرُ بِالْتُّقىٰ وَيَعْمَلُ بِالْهُدىٰ ، وَلا يَأْخُذُ فِي حُكْمِهِ الرُّشىٰ ، وَآللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ . . ثُمَّ يَأْتِينَا ذُو الْخَالِ وَالَّشامَتَيْنِ الْعَادِلُ ، الْحَافِظُ لِمَا اسْتُودِعَ فَيَمْلأُهَا قِسْطاً وَعَدْلاً » .

*

(٩) حديث « يخرج رجل قبل المهدي »

« يَخْرُجُ رَجُلٌ قَبْلَ الْمَهْدِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ،يَحْمِلُ السَّيْفَ عَلىٰ عاتِقِهِ ثَمانِيَةَ أَشْهُرٍ،يَقْتُلُ وَيَقْتُلُ (يُمَثِّلُ) وَيَتَوَجَّهُ إِلىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَلا يَبْلُغُهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ » .

أخرجه :

الحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ٢٦١ .

والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ـ ص ٧٠ وفي الحاوي ج ٢ ـ ص ١٤٢ و ١٤٦ .

وابن حماد في الفتن والملاحم ص ٨٦ و ٩٦ (مخطوطة) .

والكاظمي في بشارة الإسلام ص ١٨٤ و ١٧٧ .

« يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَراءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحارِثُ حَرَّاثٌ عَلىٰ مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوطِّىءُ أَوْ يُمَكِّنُ لآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ (ص) عَلىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ ، أَوْ قَالَ : إِجابَتُهُ » .

أخرجه :

الحنفي في كنز العمال ج ٦ ـ ص ٩٣ .

ـ والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ـ ص ٥٢ وفي الحاوي ج ٢ ـ ص ١٢٦ .

ـ وأبو داود في سننه كما في التاج الجامع للأصول ج ٥ ـ ص ٣٦٤ .

ـ والقندوزي في ينابيع المودة ج ٣ ـ ص ٨٧ .

*

(١٠) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ﴾

قال صاحب تفسير الكشّاف ج ٤ ـ ص ٣٣١ في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ ﴾[1] قال :

« وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) عَنِ الْقَوْمِ وَكَانَ سَلْمانُ إِلىٰ جَنْبِهِ فَضَرَبَ عَلىٰ فَخِذِهِ وَقالَ : هٰذا وَقَوْمُهُ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كانَ الإِيمانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فارِس » . وأخرجه الترمذي ، وابن حيّان والطبري ، وابن أبي حاتم وغيرهم عن طريق العلاء بن عبد الرحمان عن أبيه عن أبي هريرة ، وله طرق عنه وعن غيره (أخرجه الترمذي ج ٢ ص ٦٠) .

وقال صاحب تفسير الميزان ج ١٨ ـ ص ٢٥٠ :

في الدر المنثور أخرج عبد الرَّزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبري في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : « تَلا رَسُولُ اللَّهِ (ص) هٰذِهِ الآيَةَ ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُم ﴾ فَقالُوا : يا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هٰؤُلاءِ الَّذِينَ إِنْ تَوَلَّيْنا اسْتُبْدِلُوا بِنا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلىٰ مَنْكِبِ سَلْمانَ ثُمَّ قالَ : هٰذا وَقَوْمُهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كانَ الإِيمانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فارِس » .

ـ وروي بطرق أخرى عن أبي هريرة مثله ، وكذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

---

(١) سورة محمد : ٣٨ .

وحديث : « لَوْ كَانَ الإيمانُ فِي الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ (لَنَالَهُ) رِجَالٌ مِنْ فَارِس و (لَوْ كَانَ الْعِلْمُ فِي الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِس) حديث مشهور بين المسلمين أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦٢ .

- ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣١ .
- والترمذي في تفسير سورة ٤٧ ، ٦٢ .
- وأحمد في ج ٢ - ص ٢٩٧ و ٤٢٠ و٤٢٢ و٤٦٩ .
- وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ج ١١ ص ٥٧ عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة .
- وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج ٢ ص ٢٠٦ وجاء في التعليق عليه : أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٦٤ من رواية ابن أبي ليلى والبزاز والطبراني مرفوعاً وقال : رجاله رجال الصحيح .

*

(١١) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم ﴾

« كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ آللَّهِ (ص) فَأُنْزِلَتْ سُورَةُ الْجُمُعَةِ فَتَلاهَا حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَآخَرِينَ مِنهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ آللَّهِ مَنْ هٰؤُلاءِ الَّذِينَ لَم يَلحَقُوا بِنا ؟ فَلَم يُكَلِّمهُ . قَالَ أَبُوا هُرَيرَةَ وَكَانَ سَلمانُ الفَارِسِيُّ فِينا فَوَضَعَ رَسُولُ آللَّهِ (ص) يَدَهُ عَلىٰ سَلمانَ وَقَالَ : وَآلَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو كَانَ الإيمانُ بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِن هٰؤُلاءِ » .

قال في الجامع الصحيح ج ٢ - ص ٣٨٣ : رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن .

ورواه أحمد في مسنده ج ٢ ـ ص ٤١٧ وروى قريباً منه في ج ٢ ـ ص ٢٩٧ و٤٢٠ و٤٦٩ .

ـ ورواه غيره من أهل الصحاح كما تقدّم ومنهم مسلم في صحيحه ج ٤ ص ١٩٧٢ .

*

(١٢) حديث « ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً »

« جاءَ ٱلأَشعَثُ إِلَيهِ (إلى علي (ع)) وَهُوَ عَلىٰ المِنْبَرِ فَجَعَلَ يَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ حَتَّى قَرُبَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ غَلَبَتْنا هٰذِهِ الحَمْراءُ عَلىٰ قُربِكَ ـ يعني العجم ـ فَرَكَضَ المِنْبَرَ بِرِجْلِهِ حَتَّى قالَ صَعْصَعَةُ بنُ صَوْحانَ : مالَنا وَلِلأَشْعَثِ ! لَيَقُولَنَّ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ اليَومَ فِي العَرَبِ قَولاً لا يَزالُ يُذْكَرُ ، فَقالَ (ع) : « مَن عَذِيري مِن هٰؤُلاءِ الضَّياطِرَةِ ، يَتَمَرَّغُ أَحَدُهُمْ عَلىٰ فِراشِهِ تَمَرُّغَ الحِمارِ وَيَهجُرُ قَوماً لِلذِّكرِ ! أَفَتَأْمُرُنِي أَنْ أَطْرُدَهُمْ ؟! ما كُنتُ لأَطرُدَهُمْ فَأَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ . أَما وَٱلَّذِي فَلَقَ ٱلحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسمَةَ لَيَضرِبُنَّكُم عَلىٰ الدِّينِ عَوداً كَما ضَرَبْتُمُوهُم عَلَيهِ بِدْءاً » .

أخرجه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ٢٨٤ .

وأخرج أحمد في مسنده ج ٥ ـ ص ١١ عن النبي (ص) أنّه قال :

« يُوشَكُ أَنْ يَملأَ ٱللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالىٰ أَيدِيَكُم مِنَ العَجَمِ ثُمَّ يَكُونُونَ أُسْداً لا يَفِرُّونَ فَيَقْتُلُونَ مُقاتِلَتَكُمْ وَلا يَأْكُلُونَ فَيْأَكُم » .

وروى قريباً منه ابن طاوس في الملاحم والفتن ص ١١٠ و١٥١ .

والحمـراء : صفـة تقـال لمن لونهم أبيض. ومعنى غلبتنـا على قربك : أنهم أحاطوا بمنبرك فصاروا أقرب إليك منّا .

والضَّيَاطِرَة : جمع ضيطر وهو الرجل الضخم الفارغ .

وعن أبي هريرة قـال : « ذُكِرَتْ الأَعَـاجِمُ عِنْدَ رَسُـولِ آللَّهِ (ص) فَقَالَ النَّبِيُّ (ص) : لأَنَا بِهِمْ (أو بِبَعْضِهِم) أَوثَقُ مِنِّي بِكُم (أو بِبَعضِكُم) » أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٣٨٢ .

*

(١٣) حديث كنور الطالقان

« وَيْحـاً لِلطَّالِقَـانِ فَـإِنَّ لِلَّهِ عَـزَّ وَجَـلَّ بِهَـا كُنُـوزاً لَيسَتْ مِن ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ ، وَلَكِنْ بِهَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ عَرَفُوا آللَّهَ حَقَّ مَعرِفَتِهِ ، وَهُم أَنصَارُ المَهْدِيِّ آخِرَ الزَّمَانِ » .

أخرجه :

الحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ٢٦٣ .

والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ـ ص ٨٢ .

والقنـدوزي في ينـابيـع المـودة ص ٤٤٩ وفيـه « بَـخٍ بَـخٍ لِلطَّالِقَانِ » .

وابن الأعتم الكوفي في كتابه الفتوح .

والكنجي في البيان ص ١٠٦ .

وروى المجلسي في البحار ج ٥٢ ـ ص ٣٠٨ « لَهُ كَنزٌ بِالطَّالِقَانِ مَا هُو بِذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ ، وَرَايَةٌ لَم تُنشَر مُنذُ طُوِيَتْ ، وَرِجَالٌ كَأَنَّ قُلُوبَهُم زُبَرُ الحَـدِيدِ لَا يَشُـوبُهَا شَـكٌ فِي ذَاتِ آللَّهِ ، أَشَدُّ مِنَ الجَمـرِ ، لَو حَمَلُوا عَلَىٰ

الجِبَـالِ لأَزَالُوهَـا ، لاَ يَقْصِـدُونَ بِـرَايَـاتِهِم بَلدَةً إِلاَّ خَـرَّبُـوهَـا ، كَـأَنَّ عَلىٰ خُيُولِهِم العُقْبَانُ ، يَتَمَسَّحُونَ بِسَرجِ الإِمَامِ يَطلُبُونَ بِذٰلِكَ البَرَكَةَ وَيَحِفُّونَ بِهِ يَقُونَهُ بِأَنفُسِهِم فِي الحُرُوبِ ، وَيَكفُونَهُ مَا يُرِيدُ مِنهُمْ » .

*

(١٤) حديث الهاشمي الخراساني وشعيب

« يَخـرُجُ شَابٌ مِن بَنِي هَـاشِمٍ . بِكَفِّهِ اليُمنىٰ خَـالٌ ، مِن خُـرَاسَـانَ بِـرَايَاتٍ سُـودٍ ، بَينَ يَدَيْـهِ شُعَيْبُ بْنُ صَالِـحٍ ، يُقَـاتِـلُ أَصْحَـابَ السُّفيَـانِي فَيَهزِمُهُمْ » .

أخرجه :

نعيم بن حماد في الملاحم والفتن ص ٨٤ و٨٥ (مخطوطة) .

وقريباً منه الشافعي في عقد الدرر ح ١٧٦ و ١٢٨ .

والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ـ ص ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ .

وابن طـاوس في الملاحم والفتن ص ٣١ .

وابن حجر في الفتاوى ص ٢٧. وفي القـول المختصر وفيـه : «في كفّه اليسرى خال » .

وابن الصبـان في إسعاف الـراغبين (المطبـوع على هامش نـور الأبصار) ص ١٢٧ .

والكنجي في البيان ص ٣٣٠ وقال : رواه الطبري وأبو نعيم .

وفي مجمع الفوائد ومنبع الزوائد ج ٧ ـ ص ٣١٨ .

وابن خلدون في المقدمة ص ٢٦٩ .

والحنفي في كنـز العمـال ج ٧ ـ ص ٢٦٠ . وفيه : « فِي كَفِّـهِ اليُسْـرىٰ خَالٌ وَعَلىٰ مُقَـدِّمَتِـهِ رَجُـلٌ مِن بَنِي هَـاشِمٍ يُـدعىٰ شُعَيبُ بنُ صَالِحٍ » .

وقريباً منه في بشارة الإسلام ص ١٨٥وفيه: « اثنان وسبعون شهراً » .

*

(١٥) حديث باب إصطخر

« إذا خَرَجَتْ خَيلُ السُّفْيانِيِّ إلىٰ الكُوفَةِ فِي طَلَبِ أَهْلِ خُراسانَ ، وَيَخْرُجُ أَهْلُ خُراسانَ فِي طَلَبِ الْمَهْدِيِّ ، فَيَلْتَقِي هُوَ وَالهاشِمِيُّ بِرايَاتٍ سُودٍ ، عَلىٰ مُقَدِّمَتِهِ شُعَيبُ بْنُ صالِحٍ ، فَيَلْتَقِي هُوَ والسُّفْيانِي بِبابِ إِصْطَخْرٍ فَيَكُونُ بَيْنَهُم مَلحَمَةٌ عَظِيمَةٌ فَتَظهَرُ الرَّايَاتُ السُّودُ وَتَهرُبُ خَيلُ السُّفْيانِي ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَتَمَنَّى النَّاسُ المَهْدِيَ وَيَطْلُبُونَهُ » .

أخرجه : نعيم بن حماد في الفتن والملاحم ص ٨٦ ـ مخطوطة .

والحنفي في كنز العمال ج ٧ ص ٢٦٠ .

ـ والسيوطي في العرف الوردي ج ٢ ص ٦٩ وفيه: « يَلْتَقِي هُوَ وَالمَهْدِي وَالهاشِمِي بِبَيْضاءَ إِصْطَخْرٍ » وكذا في الحاوي ج ٢ ص ١٤١ ـ ١٥٢ .

*

(١٦) حديث « تبعث الرايات السود بالبيعة إلى المهدي »

« يَدخُلُ السُّفْيانِي الكُوفَةَ فَيَسْبِيها ثَلاثَةَ أَيّامٍ وَيَقتُلُ مِن أَهلِها سِتِّينَ أَلْفاً ثُمَّ يَمكُثُ فِيها ثَمانِيَ عَشرَةَ لَيلَةٍ يُقَسِّمُ أَمْوالَها ، وَدُخُولُهُ الكُوفَةَ بَعْدَما يُقاتِلُ التُّرْكَ وَالرُّومَ بِقَرْقِيسيا . . . . ثُمَّ يُبْعَثُ عَلَيهِمْ خَلْفَهُمْ فِتَنٌ فَتَرْجِعُ طائِفَةٌ مِنْهُم إلىٰ خُراسان ، فَيُقْبِلُ السُّفْيانِي وَيَهْدِمُ الحُصُونَ حَتَّى يَدخُلَ الكُوفَةَ وَيَطلُبَ أهل خراسان ، وَيَظْهَرُ بِخُراسانَ قَومٌ يَدعُونَ إلىٰ المَهْدِيِّ ، ثُمَّ يَبْعَثُ السُّفْيانِي إلىٰ المَدِينَةِ فَيَأْخُذُ قَوماً مِن آلِ مُحَمَّدٍ حَتَّى يُؤَدِّيَهُمْ إلىٰ

الكُوفَةِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَهْدِيُّ وَمَنصُورٌ هارِبَيْنِ ، وَيَبْعَثُ السُّفْيانِيُّ فِي طَلَبِهِما فَإِذا بَلَغَ الْمَهْدِيُّ وَمَنْصُورٌ مَكَّةَ نَزَلَ جَيْشُ السُّفْيانِيِّ إِلَيْهِما فَيُخْسَفُ بِهِمْ ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَهْدِيُّ حَتَّى يَمُرَّ بِالْمَدِينَةِ فَيَسْتَنْقِذَ مَنْ كَانَ فِيها مِنْ بَنِي هاشِمٍ ، وَتُقْبِلُ الرَّايَاتُ السُّودُ حَتَّى تَنْزِلَ عَلىٰ الْماءِ فَيَبْلُغُ مَنْ بِالكُوفَةِ مِنْ أَصْحابِ السُّفَيانِيِّ نُزُولُهُمْ فَيَهْرُبُونَ ، ثُمَّ تَنْزِلُ الْكُوفَةَ حَتَّى تَسْتَنْقِذَ مَنْ فِيها مِنْ بَنِي هاشِمٍ ، ثُمَّ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ سَوادِ الكُوفَةِ يُقالُ لَهُمْ الْعُصَبُ ، لَيْسَ مَعَهُمْ سِلاحٌ إِلَّا قَلِيلٌ وَفِيهِمْ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَدْ تَرَكُوا السُّفْيانِيَّ فَيَسْتَنْقِذُونَ مِنْ أَيدِيهِمْ سَبْيَ الْكُوفَةِ ، وَتَبْعَثُ الرَّايَاتُ السُّودُ بِالْبَيْعَةِ إِلىٰ الْمَهْدِيِّ » .

أخرجه : نعيم بن حماد في الفتن والملاحم ص ٨٥ و ٨٨ (مخطوطة) .

والحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ٢٦٠ .

وروى قريباً منه السيوطي في العرف الوردي ج ١ ـ ص ٦٨ وبمعناه ص ٧١ و ٧٢ .

وفي عقد الدرر ح رقم ١٢٨ وبمعناه ح ١٢٥ .

والشافعي في إسعاف الراغبين طبعة هامش نور الأبصار ص ١٢٢ .

والطوسي في الغيبة ص ٢٧٤ .

ـ وروى المجلسي في البحار ج ٥٢ ـ ص ٢٧٤ « وَتُقْبِلُ رايَاتٌ مِنْ شَرْقِيِّ الأَرْضِ غَيْرَ مُعَلَّمَةٍ لَيْسَتْ بِقُطْنٍ وَلا كَتَّانٍ وَلا حَرِيرٍ ، مَخْتُومَةً فِي رَأْسِ الْقَناةِ بِخاتِمِ السَّيِّدِ الأَكْبَرِ ، يَسُوقُها رَجُلٌ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، تَظْهَرُ بِالْمَشْرِقِ وَتُوجَدُ رِيحُها بِالْمَغْرِبِ كَالْمِسْكِ الإِذْفِرِ ، يَسِيرُ الرُّعْبُ أَمامَها بِشَهْرٍ حَتَّى يَنْزِلُوا الكُوفَةَ طالِبِينَ بِدِماءِ آبائِهِمْ » .

وروى في ص ٢٣٧ « فَأَوَّلَ أَرْضِ الْمَغْرِبِ (تَخْرَبُ) أَرْضُ الشَّامِ يَخْتَلِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ عَلىٰ ثَلاثِ رايَاتٍ : رايَةِ الأَصْهَبِ ، وَرايَةِ

الأَبْقَعِ ، وَرَايَةِ السُّفْيَانِي . فَيلْتَقِي السُّفْيَانِي بِالأَبْقَعِ فَيَقْتَتِلُونَ فَيَقْتُلُهُ وَمَنْ مَعَهُ ، وَيَقْتُلُ الأَصْهَبَ ، ثُمَّ لا يَكُونُ لَهُ هِمَّةٌ إِلاَّ الإِقْبَالُ نَحْوَ الْعِرَاقِ ، وَيَمُرُّ جَيْشُهُ بِقَرْقِيسْيَا فَيَقْتَتِلُونَ فِيهَا فَيُقْتَلُ مِنَ الجَبَّارِينَ مِئَةُ أَلْفٍ . وَيَبْعَثُ السُّفْيَانِي جَيْشاً إِلىٰ الْكُوفَةِ وَعِدَّتُهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً فَيُصِيبُونَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَتْلاً وَصَلْباً وَسَبْياً . . فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَتْ رَايَاتٌ مِن قِبَلِ خُرَاسَانَ تَطوِي المَنَازِلَ طَيّاً حَثِيثاً وَمَعَهُمْ نَفَرٌ مِن أَصحَابِ القَائِمِ . ثُمَّ يَخرُجُ رَجُلٌ مِن مَوَالِي أَهْلِ الكُوفَةِ فِي ضَعَفَاءَ فَيَقْتُلُهُ أَمِيرُ جَيشِ السُّفْيَانِي بَيْنَ الحِيرَةِ وَالكُوفَةِ ، وَيَبْعَثُ السُّفْيَانِيُّ بَعْثاً إِلىٰ المَدِينَةِ فَيَفِرُّ المَهْدِيُّ مِنهَا إِلىٰ مَكَّةَ فَيَبْلُغُ أَمِيرَ جَيْشِ السُّفْيَانِيِّ أَنَّ المَهدِيَّ قَد خَرَجَ إِلىٰ مَكَّةَ فَيَبْعَثُ جَيْشاً عَلىٰ أَثَرِهِ فَلا يُدرِكُهُ حَتَّى يَدخُلَ مَكَّةَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ عَلىٰ سُنَّةِ مُوسىٰ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ » .

*

(١٧) حديث معركة قرقيسيا

« إِنَّ لِلَّهِ مَأْدُبَةً بِقَرْقِيسْيَا يَطَّلِعُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ فَيُنَادِي يَا طَيْرَ السَّمَاءِ وَيَاسِبَاعَ الأَرْضِ هَلُمِّي إِلىٰ الشِّبَعِ مِن لُحُومِ الْجَبَّارِينَ » .

أخرجه : الشافعي في عقد الدرر ح ٣٥ ص ٥٧ و١٢٦ و٣٣٥ .

« يَظْهَرُ السُّفْيَانِيُّ عَلىٰ الشَّامِ ثُمَّ تَكُونُ بَيْنَهُمْ وَقْعَةٌ بِقَرْقِيسْيَا حَتَّى تَشْبَعَ طَيْرُ السَّمَاءِ وَسِبَاعُ الأَرْضِ مِن جِيَفِهِم ، ثُمَّ يَنفَتِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ فَتُقْبِلُ طَائِفَةٌ مِنْهُم حَتَّى يَدْخُلُوا أَرْضَ خُرَاسَانَ وَتُقْبِلُ خَيْلُ السُّفْيَانِيِّ فِي طَلَبِ أَهْلِ خُرَاسَانَ فَيَقْتُلُونَ شِيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ بِالكُوفَةِ ثُمَّ يَخْرُجُ أَهْلُ خُرَاسَانَ فِي طَلَبِ الْمَهْدِيِّ » .

أخرجه : الحنفي في كنز العمال ج ٧ ـ ص ٧٠ وقريباً منه ج ٦ ـ ص ٦٧ والشافعي في عقد الدرر ح ١٣٤ .

ـ وروى الحنفي في كنز العمال ج ٦ ـ ص ٦٨ « إِذا ظَهَرَ السُّفْيانِيُّ عَلىٰ الأَبْقَعِ وَالْمَنْصُورِ اليَمانِي خَرَجَ الرُّومُ وَالتُّركُ فَيَظْهَرُ عَلَيْهِمُ السُّفْيانِي » .

ـ وروى حديث وقعة قرقيسيا على الكنز ابن ماجه في سننه برقم (٤٠٨٤) .

ـ ورواه السيوطي في الحاوي ج ٢ ـ ١٢٧ وقال أخرجه ابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم عن ثوبان .

ـ وصححه الصديق الحضرمي في رده على ابن خلدون وقال : قال الحافظ البوصيري في زوائده : حديث صحيح .

ـ ورواه القرطبي في التذكرة وقال : رواه ابن كثير في النهاية وقال : « هذا إسناد قوي صحيح ، والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء حتى يكون آخر الزمان فيخرج المهدي ويكون خروجه من بلاد المشرق » .

ـ وأخرج أحاديث الكنز ووقعة قرقيسيا ابن حماد في الفتن ص ٧٦ و ٨٢ و٩٢ .

ـ وفي بشارة الإسلام ص ١٠٣ و ١٧٧ و ١٨٨ و ١٩١ و ٢٨٦ .

ـ والمجلسي في البحار ج ٥٢ ص ٢٠٨ و٢٢٠ و٢٤٥ .

ـ والطوسي في الغيبة ص ٢٧٩ والنعماني في الغيبة ص ١٤٨ .

ـ والحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٤٦٣ و٤٦٤ .

*

شرح حديث « حتى ترتفع رايات سود في المشرق »

« أَتَيْنا رَسُولَ آللَّهِ (ص) فَخَرجَ إِلَيْنا مُسْتَبْشِراً يُعرَفُ السُّرورُ في وَجْهِهِ ، فَما سَألْناهُ عنْ شَيءٍ إِلاَّ أَخْبَرَنا بِهِ ، وَلا سَكَتْنا إِلاَّ ابْتَدَأَنا . . حَتَّى

مَـرَّت فِتيـةٌ مِنْ بَني هـاشِمٍ فيهِمْ الحَسَنُ والحُسَينُ فَلمّـا رآهُمْ التَـزَمَهُمْ وانْهَمَلَتْ عَينـاهُ . . فَقُلنا : يـا رسُولَ آللَّهِ مـا نَـزالُ نَـرى في وَجهِـكَ شَيئـاً نكْرَهُهُ ؟ فَقالَ :

إنَّا أَهْلُ بَيتٍ اخْتارَ آللَّهُ لَنا الآخِرةَ عَلىٰ الدُّنيْا، وإنَّـهُ سَيَلْقىٰ أَهْلُ بَيْتِي مِنْ بَعدِي تَطْريداً وَتَشْريداً في البِلادِ . . حَتَّى تَرْتَفِعَ رايَاتٌ سُودٌ في المَشْرِقِ فَيَسْأَلونَ الحَقَّ فَلا يُعْطَوْنَهُ ، ثُمَّ يَسأَلونَهُ فَلا يُعْطَوْنَـهُ ، فَيُقاتِلونَ فَيُنْصَـرونَ . فَمَنْ أَدرَكَـهُ مِنْكُمْ وَمِنْ أَعقـابِكُمْ فَلْيـأْتِ إمَـامَ أَهـلِ بَيتِي وَلَـوْ حَبْـواً عَلىٰ الثَّلْجِ ، فَإنَّها رايَاتُ هُدىً يَدفَعُونَهـا إلىٰ رَجلٍ مِنْ أَهْـلِ بَيتي يُواطِي اسْمُـهُ اسْمِي فَيَملِكُ الأَرْضَ فَيْملأُهـا قِسْطاً وَعْدلاً كَما مُلِئَتْ جَوْراً وظُلْماً » .

*

يتضمن الحـديث الشريف قـراءة نبـويّـة لمستقبـل الإسـلام من زاويتين هما : ظلامة أهل بيت النبي (ص) ، وتـوقف شمول الإسـلام للعالم على ارتفاع هذه الظلامة .

وتبدو العلاقة بين الأمرين لأول نـظرة علاقـة اتفاقيـة ، فقد اتّفق أن أهـل البيت (عليهم السـلام) ظُلِمُـوا وامتـزجت سـطور تـاريخهم بمعـاناة الاضـطهاد ودم الشهـادة حتى أصبحت كربـلاء عند المسلمين مضرب المثل . كمـا أنّه اتّفق أن المـدّ الإسلامي في فتـوحات صـدر الإسلام وفي جهود دعاة الإسلام شمـل مناطق واسعـة ولم يشمل كـل شعوب العالم . . ومضى التاريخ على هذا حتى نشأت قوى جديـدة ، وتسلّطت علىٰ المسلمين .

ولكن الحـديث النبوي يكشف عن ارتبـاط سببي بين الأمرين ، بين رشـد الأمة في ولائهـا لقيادتهـا ، وبين تغلب مسيرتهـا على التعثر وتمكنها من تحقيق هدف الإسلام الكامل في العالم . ويكشف عن أن

الأمة عندما تبلغ الرشد بالتفافها العقيدي والعاطفي حول قيادة أهل بيت النبي (ع) ممثلةً بالمهدي (عليه السلام) تكون قد بلغت الرشد لبسط الإسلام على العالم .

إن الحركتين في واقع الأمة حركة واحدة ، فالأجر الوحيد المطلوب منها في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ هو نفس الأجر المعطى لها في بسط رسالتها على العالم ، وإظهارها على الدين كله .

*

في دموع النبي (ص) نقرأ كربلاء ، ونحسّ بكل معاناة عاشها أحد من أهل بيته (ص) . وهذا البعد العاطفي مقصود قصداً منه (ص) .

لقد كان مستبشراً يظهر السرور على وجهه منشرحاً في حديثه مع أصحابه ، فذكّره منظر الفتية من أهل بيته بمستقبل أخبره به جبرئيل (عليه السلام) ، وكثيراً ما أثار منظر أو شيء ما في نفسه الكبيرة صوراً فكتم أمرها وصرفها ، ولكنّه هنا استبقاها وعاشها وبلغها المسلمين لكي يعيشوا معها !

« فَلَمّا رَآهُمْ الْتَزَمَهُمْ وانْهَمَلَتْ عَيْنَاهُ . فَلمّا رآهُمْ تَغَيَّرَ وَجهُهُ . احتَضَنَهُمْ إليهِ . انْهمرَتْ عَيناهُ بِالدُّمُوعِ » .

في هذه الكلمات من رواية الحديث ترى النبي (ص) يحتضن مأساة أهل بيته ويضمهم إليه ، إنّها مأساة القيادة الإسلامية المتمثلة فيهم . ويدهش المسلمون لمشهد النبي وهو يحتضن الحسنين ويبكي ، فينظرون ويصمتون ، ثم يسألون عن هذا التغير وهذه الحالة

التي كثيراً ما رأوها في وجهه مفاجئة كمفاجأة شهادة الحسن بالسم ، حزينة كحزن كربلاء ، فيفيض النبي (ص) بقراءة المستقبل من لوح غيب الله تعالى ، ويبدأ بالقدر الذي قضاه الله على أهل بيته أن يدفعوا ضريبة حركة الأمة في رشدها وتكاملها . . إلى أن تصل إلى قيادة المهدي (عليه السلام) ، وإلى هدف الإسلام العالمي .

« إنَّا أَهْلُ بَيتٍ اخْتَارَ اللهُ لَنا الآخِرةَ على الدُّنْيا . . وإنَّه سَيَلقى أَهْلُ بَيتي مِنْ بَعدي . . . » .

تسمي بعض المصادر هذا الحديث (حديث رايات المشرق ، أو رايات خراسان) ويسميه بعضها (حديث ما يلقى أهل بيته من بعده) وهي تسمية من روح الحديث .

*

« رايات هدى . يسألون الحق فلا يعطون »

إنَّ وصف الراية بالهدى له مدلول أوسع من وصف الشخص بالهدى ، فالهدى في الشخص يتناسب مع حدود الشخص ، والهدى في الراية يتناسب مع أبعاد الراية . فهو هدى في الجماهير الملتفة حول الراية ، وهدى في القيادة التي ترفع الراية ، في خطها الفكري والسياسي ، وفي هدفها . . فذلك مقتضى وصف راية بالهدى من قبل النبي الهادي (ص) .

والحق الذي تطلبه جماعة تنهض تحت راية هدى ليس شيئاً غير حق الإسلام في أن يحكم ويوجه حياة جماعة من الناس ، أو حياة كل الناس .

والذين يُطلب منهم هذا الحق هم غاصبوه من الطواغيت

العالميين ووكلائهم الـذين يحكمون الأمـة بحكم الجاهليـة ، ويقفون في وجه راية الهدى .

ومطلب راية المشرق كله حق ، قبل أن يقـاتلوا فينصرهم الله أو بعد أن ينصرهم . والفرق بين مطلب المرحلتين هو :

إن مـطلب المرحلة الأولى جـزئي يتركـز على بلدهم وشعبهم . ومطلب المرحلة الثانية كلي يشمل بلاد المسلمين وشعوب العالم .

مـطلب المـرحلة الأولى يمكن لأعـداء الإسـلام أن يعـطوه لأنّـه يجـردهم فقط من التسلط على جزء من الأرض والشعـوب . ومـطلب المرحلة الثانية لا يمكنهم أن يعطوه لأنّه يجردهم من كل سلطانهم .

مطلب المرحلة الأولى حق بمنطق الإسلام وبـالمنطق الـظاهري للطاغـوت في حريـة الشعوب . ومـطلب المرحلة الثـانية حق بمنـطق الإسلام فقط ، وكفر بمنطق الطاغوت .

ويتّضـح الفـرق بين المـرحلتين من شـرح الإمـام البـاقـر (عليه السلام) لحديث جده (ص) « فَإِذا رَأَوُا ذَلكَ وَضَعُوا سُيُوفَهُمْ على عَواتِقِهِمْ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلا يَقْبَلونَهُ ، حَتَّى يقوموا . . وَلا يَدفَعونَها إلاَّ إلى صَاحِبِكُمْ » .

فقد قامـوا في المرحلة الأولى وطلبـوا الحق ، ولكنه قيـام جزئي بالنسبة إلى القيـام العالمي في المـرحلة الثانيـة ، ومطلب جـزئي أمام المطلب الشامل في المرحلة الثانية .

*

« فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْواً عَلى الثَّلجِ . فَأْتُوها وَلَو حَبْواً عَلى الثَّلجِ . فَلْيأْتِ إِمَامَ أَهْلِ بَيتي وَلَو حَبْواً عَلى الثَّلجِ » .

تضمن هـذا الحديث وغيـره عن رايات المشـرق أمـرين نبـويين للمسلمين :

ـ الهجرة إلى أهل رايات المشرق .

ـ نصرة أهل رايات المشرق .

فما هي حدود هذه الهجرة والنصرة الواجبين ؟

هـذا سؤال ينبغي أن يـوجهـه المسلم إلى من حـولـه من مبلّغي الإســلام ، خــاصــة إلى أولئــك الحــريصين على تــطبـيق سـنــة رسول الله (ص) على تفاصيل وضوء المسلم وصلاته وصـومه وشؤونـه الشخصية . . فكيف بأمر يتعلق بمصيره ؟

إنَّ هذين الواجبين من الواجبات الكفائيـة على المسلمين،بمعنى أن الهجـرة والنصرة يتبعـان الحاجـة العملية لأهـل رايـات المشـرق . وقيادة هذه الرايات هي التي تحدد حاجتها في بلدها وغيره ، وفي هذا المجال أو ذاك .

« وَلَوْ حَبْواً عَلىٰ الثَّلْجِ » .

تعبير نبوي عن ضرورَة إصرار المسلمين على نصرة راية المشرق والانضمـام إليهـا مهمـا كـانت العقبـات . ويصـوّر لنـا حـديث (كنـز العمال) العقبات التي يأمرنـا النبي (ص) بالتغلب عليهـا « . . . فَكُنْتَ فِي صُنْدوقٍ مُقْفَلٍ عَلَيْكَ فاكْسِرْ ذَلكَ القُفلَ وَذَلكَ الصُّنْدُوقَ » إنَّها صناديق الطاغوت وأقفالهم على شعوب المسلمين ، صناديق الإقليمية والقومية والتعصّب المـذهبي ، وأقفال أنـظمتهم وقيودهـا على المسلم أن يقول الحق ويدعو إليه ، ويأخذ جواز سفر فيغادر من جزء ويدخـل جزءاً من بلاده !

« حَبْـواً عَلَى الثَّلْجِ » تعبير من جـوامع الكلم التي خصّ الله بهـا

نبيّه (ص) ليس من بيئة الجزيرة ، ولا هو شائع في كلام العرب ، بل لم أجده في أحاديث رسول الله (ص) في غير موضوع رايات المشرق !

إنَّ من عادة النبي (ص) أن يبتكر ، وأن يخصّ فكرة بعبارة فتكون وعاءها وشعارها . . ولكن الذي يألف عمق كلامه (ص) يشعر بربط بين رايات المشرق وبين الثلج :

إنَّ بلادهم ثلجية . . وقد تشهد مسيرتهم أحداثاً كبيرة في فصل الثلج .

*

« أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر »

تشعر من هذه العبارة بالشوق وبنظرة الإكبار التي ينظر بها الإمام الباقر إلى حفيده المهدي (عليه السلام) حتى كأنه يعتبر نفسه ملكاً له ومأموماً به ، ويرجو لو أنَّه أدرك رايات المشرق أن يلتقي بالمهدي ويعمل تحت رايته ، لأن ظهوره يكون قد أوشك واقترب .

إنَّه نوع خاص من الشوق والحنين نجد، لدى الأنبياء (ص) والأئمة (ع) وكبار المؤمنين إلى إخوانهم الآتين من أجيال الأمم . . نجده عند الأنبياء السابقين تجاه نبينا محمد (ص) ونجده عند النبي (ص) تجاه الأئمة وكبار المؤمنين من أمته يعبر عنه بقوله : «آهٍ، شَوْقاً إِلىٰ إِخْوانِي»ونجده عند علي (ع) في قوله : « أُولَئِكَ خُلَفَاء آللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلىٰ دِينِهِ ، آهِ آهِ ، شَوْقَاً إِلىٰ رُؤْيَتِهِمْ »[1] كما نجده عند الأئمة من أبناء علي يتوقد تجاه المهدي (عليهم السلام) بشكل خاص لما يمثله هذا الإمام من إنهاء ظلامة الإسلام ، وتحقيق هدف

(١) نهج البلاغة ص ٤٩٧ شرح صبحي الصالح .

النبي (ص) والأئمة في العالم . وقد عبّر عنه الإمام الصادق (عليه السلام) بقوله : « لَو أَدْرَكْتُهُ لَخَدَمْتُهُ أَيّامَ حَيَاتِي »[1] .

أمّا محاولة تفسير قول الإمام الباقر (عليه السلام) : « لَوْ أَدْرَكتُ ذَلِكَ لأَبقَيتُ نَفسِي لِصَاحِبِ هَذا الأَمْرِ » بأنّه توجيه للمسلمين أن يحافظوا على أنفسهم ولا يعرضوها للشهادة قبل ظهور المهدي (ع) ، فهو يخالف أحكام الإسلام في وجوب مقاومة أعدائه وإقامة أحكامه ، ويخالف أمر النبي (ص) للمسلمين بنصرة رايات المشرق والهجرة إليهم ، ويخالف نفس حديث الباقر (ع) ومدحه لرايات المشرق وأن قتلاهم شهداء .

إنّ حدود العبارة هي شخص الإمام الباقر (عليه السلام) ومصبّها تمنّي لقاء المهدي (عليه السلام) والعمل معه ، وليست في مقام التوجيه لعامة المسلمين وخاصتهم بأن يبقوا على أنفسهم ولا يعرضوها للشهادة مع رايات المشرق . . اللهم إلاّ لمن يعلم أنّه سيلاقي المهدي (ع) وأنه سيشاركه في قيادة الأمة وبمستوى مشاركة الإمام الباقر (ع) .

*

هل أن أهل رايات المشرق هم الإيرانيون ؟

يسأل هذا السؤال نوع من المسلمين سمعوا بوجود أحاديث النبي (ص) عن المهدي وعن رايات المشرق التي تظهر قبله ، فإذا قرأت عليهم قسماً من هذه الأحاديث ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق ، يقولون صدق الله وصدق رسوله ، إنّها رايات قوم سلمان التي رفعها الخميني وأصحابه ، وقد طلبوا من العالم أن يتركهم وشأنهم في إيران فلم يعطهم ، وها هم يقاتلون . . .

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ١٤٨ .

هؤلاء النوع هم غالبية جماهير المسلمين ، أهل الفطرة السليمة ، والإيمان الصافي . . سواء ملكوا الشجاعة فعلاً لأن يكسروا الأقفال ويحبوا على الثلوج ، أو لم يملكوها . إنَّهم جماهير النبي (ص) الذين تدمع عيونهم عندما يسمعون أنَّه تغير وجهه وانهملت عيناه بالدموع ، وجماهير المهدي (ع) الذين سيواجه بهم قوى الطاغوت ، وينشر بهم الإسلام في العالم .

ويسأل هذا السؤال فقهاء المسلمين أمناء الرسل الذي لم يدخلوا في الدنيا ولم يتّبعوا السلطان ، ومثلهم المثقفون المسلمون الذي لم يتلوّثوا بفكر الغربيين ولم يقعوا في حبائلهم ، وما أن يقرأوا أحاديث النبي (ص) حتى يخشعوا لله تعالى ويقولوا : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمفْعُولاً ﴾ . إن الله تعالى قد أعدّ هذا الرجل من قم ، وأعدّ قوم سلمان لدور كبير . لقد بدأ الإيرانيون بحركتهم في صناعة مستقبل العالم .

أمَّا أتباع الغربيين وأنظمتهم ، ومرضى القلوب بالدنيا والتعصب ، فلا يسألون عن هذه الأحاديث لأنَّهم لا يحبونها ولا يحبون البحث فيها ، بل لا يحبون أن تكون موجودة في مصادر المسلمين ، ولا أن تكون صادرة عن النبي (ص) ! وأحب شيء إلى أنفسهم أن لا يطلع عليها المسلمون وأن ينسوا أمرها ، أو أن تحذف من مصادر السنة الشريفة !

لا أحسبني مغالياً في وصف موقف هذه الشريحة المريضة المتسلطة على أمة المسلمين ، فباستطاعتك أن تثير أمر هذه الأحاديث مع أحد منهم ، أو تحدث بها في مجلس عام ، أو تنشرها بين المسلمين في كرّاس ، لتراهم يجعلون أصابعهم في آذانهم ، أو يلوون إليك رؤوسهم ، أو ينظرون إليك نظر المغشي عليه من

الموت . . أو يسلطون عليك جلاوزة النظام ، ثمَّ يحاكمك قاضي المسلمين بتهمة نشر أحاديث نبي المسلمين !!

وهناك نوع من مرضىٰ التلبيس على النفس يقولون : نعم لا شك في صحة أحاديث رايات المشرق الممهدة للمهدي (عليه السلام) . كما أنَّها صريحة في الانطباق على الإيرانيين . ولكن لا دليل على أنَّها رايات الخميني وأصحابه ، فقد تأتي هذه الرايات بعد خمسين أو مئة سنة ، فالأحاديث تذكر أن الذي يسلم الراية للمهدي هو الهاشمي الخراساني وقائد جيشه شعيب بن صالح ، وأن هذين القائدين يظهران قبل المهدي بست سنوات ، فهؤلاء هم أهل رايات الهدى الذين يجب علينا نصرتهم والهجرة إليهم ولو حبواً على الثلج !

وقد سميناهذه الحالة بمرض التلبيس على النفس لأن أصحابها قد اطلعوا على الأحاديث الشريفة ، ولكنهم تركوا اليقين فيها وأخذوا بالشك ، وتجاوزوا البديهة وتمسكوا بالشبهة .

إنَّ الموضوع في أحاديث المشرق هم (قوم) يخرجون من المشرق . يمهدون للمهدي . يطلبون الحق فلا يعطونه . . والهاشمي الخراساني على فضله هو أحد قادة هؤلاء (القوم) وقد ذكرت الأحاديث أنهم يولونه أمرهم عندما يرون أن الحرب قد طالت عليهم ، يعني أنَّهم يكونون قد خرجوا ورفعوا راياتهم وخاضوا حرباً طويلة مع أعدائهم ، ثمَّ يولون الهاشمي فيختار هو شعيباً قائداً لجيشهم . وذكرت الأحاديث أيضاً أن رايات الهاشمي وشعيب مختومة بخاتم السيد الأكبر ، وذكرت نفس صفات شعيب والهاشمي لأصحاب رجل يخرج من قم . .

فهل يكون تناسي موضوع هذه الأحاديث واعتباره شخص الهاشمي وشعيب إلاَّ تجاوزاً من البديهة إلى الشبهة ؟

أمَّا مسألة المدة الزمنية لهؤلاء القوم وهذه الرايات فلا دخل لها في أوصافها ، ولا في واجب المسلمين نحوها . . لقد دلّت الأحاديث على اتّصال رايات هؤلاء القوم بالمهدي (ع) ولا يؤثّر على موقف المسلم منها أن يظهر الهاشمي الخراساني وشعيب في هذه السنة ، أو بعد خمسين سنة .

*

حول الحديث رقم (٢)

« تَخْرُجُ مِنَ المَشْرِقِ رَايَاتٌ سُودٌ لِبني العَبَّاسِ ثُمَّ يَمكُثُونَ مَا شَاءَ آللَّهَ ، ثُمَّ تَخرُجُ رايَاتٌ سُودٌ صِغَارٌ تُقَاتِلُ رَجُلاً مِنْ وُلْدِ أَبي سُفْيَانَ وأَصْحَابِهِ ، وَيُؤَدُّونَ الطَّاعَةَ لِلمَهْدِيِّ » .

(١)

قامت ثورة العباسيين ضد الأمويين على عاملين أساسيين : مظلومية أهل بيت النبي (ص) وأحقيتهم بالخلافة ، وظلم بني أمية وعدم أهليتهم لحكم المسلمين . وعلى هذا الأساس تجاوبت مع حركة بني العباس أوساط واسعة من المسلمين وأطاحت بحكم بني أمية في معارك كاسحة .

وقد واجهت العباسيين أزمة تمثيل بني هاشم وأهل البيت ، ولكنهم عالجوها في مطلع عملهم السياسي بأن تحالفوا مع الحسنيين وبايعوا إبراهيم بن عبدالله بن الحسن المثنى وسموه الإمام والمهدي ، في حين رفض الإمام جعفر الصادق (ع) التحالف معهم أو التعاون .

على أي حال ؛ فبعد وفاة إبراهيم طرح العباسيّون أنفسهم على

أنَّهم يمثلون بني هاشم ، وعلى أنَّهم أهل بيت النبي (ص) لأنَّهم أبناء عمّه العباس ، وفي هذا المجال استخدموا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بأهل البيت استخداماً فعّالاً ، وكان من أبرز ما استخدموه الأحاديث المتعلقة بالمهدي (ع) ورايات المشرق التي تمهّد له .

قال أبو العباس السفَّاح أول خلفائهم في أول خطبة له بالكوفة :

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام . . . وخصّنا برحم رسول الله وقرابته . . . فقال عزَّ من قائل : ﴿ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطهِيراً ﴾ وقال : ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَليهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى ﴾ . . . وزعمت السبئية أن غيرنا أحقّ بالرياسة والسياسة والخلافة منَّا ، فشاهتْ وجوههم . بِمَ ، ولِمَ » .

وعندما أُرتج عليه وقطع خطبته خطب عنه عمّه داود بن علي فقال : « الآن . . . رجع الحقّ إلى نصابه في أهل بيت نبيّكم .

. . . يا أهل الكوفة إنَّا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقّنا . . . فأظهر الخليفة من هاشم .

. . . فاعلموا أنَّ هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منَّا حتى نسلّمه إلى عيسى بن مريم (صلى الله عليه وآله) »[1] . يقصد أن منهم المهدي الذي ينزل في زمنه عيسى (عليهما السلام) .

وقد غالى العباسيّون في استغلال أحاديث المهدي ورايات المشرق،فلم يكتفوا باللون الأسود لرايات أبي مسلم الخراساني

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

وأصحابه بل جعلوه اللون الرسمي للدولة ، وفرضوه على جيشهم وعلى المسلمين .

وكانوا في أول حركتهم قد سموا إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بالمهدي كما تقدّم ، ثمَّ عاد المنصور فسمَّى ابنه محمداً المهدي في محاولة لتطبيق أحاديث المهدي عليه . ومن الطريف أن المهديّ هذا كان من أبعد الناس عن صفات المهدي الموعود (عليه السلام) في سلوكه الشخصي والعام،فضلاً عن أنَّه لم يملك الأرض ولم يملأ حتى بيته قسطاً وعدلاً .

وقد رافق هذا الاستغلال وضع أحاديث على رسول الله (ص) في أنَّ المهدي من ولد العباس ، وأنَّ رايات المشرق الممهّدة له هي رايات أبي مسلم الخراساني .

وطبيعي أنَّه كما سقط ادعاء العباسيين أن المهدي منهم بشهادة الواقع ، فكذلك سقطت محاولة تطبيقهم لأحاديث رايات المشرق على راياتهم ،ولكن بقيت بعض آثارهما السيئة وهي اختلاط الأحاديث الصحيحة عن رايات المشرق بالأحاديث الموضوعة أو المحرفة ، وقد تصدّى المحققون علماء الحديث من السنة والشيعة عبر العصور الإسلامية إلى تحقيق هذه الأحاديث وكشف الموضوع والمحرف منها . من هؤلاء العلماء ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات) والذهبي في (ميزان الاعتدال) وابن عراق في (تنزيه الشريعة) ومن المعاصرين الألباني في كتابه (الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة) .

(٢)

من هذا العرض الموجز يتضح أن أحاديث رايات المشرق

وخراسان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أحاديث في أصحاب رايات المشرق الممهدين للمهدي الموعود (عليه السلام) ولا شك في صدور أصل هذه الأحاديث عن النبي (ص) .

القسم الثاني : أحاديث في أصحاب رايات المشرق الممهدين لبني العباس ، والظاهر صدور شيء منها عن النبي (ص) من باب الإخبار عن المستقبل أو لأجل التمييز بينها وبين رايات المهدي ، ومنها الحديث الذي اخترناه .

القسم الثالث : أحاديث موضوعة أو محرفة لتطبيق رايات المشرق الممهدة للمهدي على رايات العباسيين .

(٣)

كما ذكرنا فقد كان لعملية العباسيين تأثير سيئ امتدّ إلى بعض الكتاب المسلمين ، فجعلهم يشكون في كلّ أحاديث المشرق أن تكون موضوعة لمصلحة بني العباس . ولكن فاتهم أنَّ أكثر مضمون هذه الأحاديث الشريفة ليس من مصلحة العباسيين ولا يقبل الانطباق على راياتهم وحركتهم .

مثلاً : حديث « تُقْبِلُ الرَايَاتُ السُّودُ مِنَ المَشْرِقِ يَقُودُهُمْ رِجَالٌ . . . قُلُوبُهُمْ كُزُبَرِ الحَدِيدِ . . . شُعُورُهُمْ مُرخاةٌ كَشُعُورِ النِّسَاءِ ، أَسْمَاؤُهُمْ الكُنَى ، وَنَسَبُهُمْ القُرَى ، وَثِيابُهُمْ أَسْوَدُ مِنَ اللَّيْلِ المُظْلِمِ »[1] هو في مصلحة حركة العباسيين ويمكن أن يكون من موضوعاتهم ، ففي مطلع القرن الثاني للهجرة كانت النسبة إلى البلدان شائعة عند

---

(١) ابن حماد : ص ٥٥ و٥٤ ـ مخطوطة .

الإيرانيين وقد استعملها رسمياً أبو مسلم الخراساني « فأمر أبو مسلم كامل بن مظهر أن يعرض أهل الخندق بأسمائهم وأسماء آبائهم فينسبهم إلى القرى ويجعل ذلك في دفتر »[1] كما أخذ الإيرانيون الكنية عن العرب واستعملوها اسماً ، كما أنَّ عادة إطالة شعر الرأس للرجال كانت منتشرة بين العرب والفرس .

ومثال آخر : حديث « يَدخُلونَ دِمَشْقَ بِرايَاتٍ سُودٍ عِظَامٍ فَيَقْتَلُونَ فِيهَا مَقْتَلَةً عَظِيمَةً شِعَارُهُمْ بِكُشْ بِكُشْ »[2] هو أيضاً في مصلحة العباسيين ويحتمل في أمره الوضع لأنهم اتخذوا رايات سوداء كبيرة جداً ، وكان أقصى هدفهم دخول دمشق عاصمة عدّوهم . قال الطبري في حديثه عن أبي مسلم : « وعقد الراية التي بعث بها الإمام - إبراهيم - التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً . . ولبسوا السواد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان ومواليه ، وكلّ من أجاب »[3] .

ولكن ما هي مصلحة العباسيين في وصف الرايات بأنَّها سود صغار كما في الحديث الذي اخترناه ؟؟

وما هي مصلحتهم في تحديد عدوّها الذي تقاتله بأنَّه شخص ذو مواصفات خاصة من ولد أبي سفيان ؟ مع أنَّ الذي قاتلته رايات بني العباس هو من ولد مروان بن الحكم . ولم يملك أحد من ولد أبي سفيان بعد خالد بن يزيد .

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٩٠ .

(٢) ابن حماد : ص ٥٤ ـ المخطوطة .

(٣) تاريخ الطبري : ج ٥ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

مـا هي مصلحة العبـاسيين في وصف أصحاب رايـاتهم بـأنَّهم « يَطْلُبونَ الحَقَّ فلا يُعْطَوْنَهُ ، ثُمَّ يَطلُبـوُنَهُ فَـلاَ يُعْطَوْنَـهُ ، فَيُقاتِلونَ فَيُنْصَـرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَـلا يَقْبَلُونَ » حيث لم تكن هذه خـطتهم ، ولم يطلب أبو مسلم من الأمويين مطلباً فلم يعطوه ثمَّ أعطوه فلم يقبـل ، بل كـان عملهم أن شرعوا بالقتال حتى قضوا على بني مروان .

وما هي مصلحتهم في تسمية عدد من قادة هذه الرايات كالسيـد الأكبـر ، ورجل يخـرج من قم ، والهاشمي الخـراسـاني الـذي بكفّـه خال ، وشعيب بن صالح الأسمر الخفيف اللحية ، وتحديد المدة التي يظهران فيها بأنَّها قبل المهدي باثنين وسبعين شهراً ؟

وفي أن يكون هدف الرايات هو القدس وليس الشام ؟

وفي الاعتراف بأنَّه سيحصل لهذه الرايات تراجع من قرقيسيا إلى إيران بسبب وضع داخلي فيتمكن السفياني بذلك أن يحتل العراق ؟

إن أكثر ما تضمنته أحاديث رايات المشرق الممهدة للمهدي (ع) من مواصفات لجماعتها وقادتها وحركتها السياسية والعسكرية واتصـالها بظهور المهدي (عليه السلام) هو مضرّ بمصلحة العباسيين ، وبالتالي ينفي احتمال أن تكون من وضعهم .

(٤)

ثم إنَّ أحاديث رايات المشرق الممهدة للمهدي مروية من طرق الأئمـة من أهل البيت (عليهم السـلام) ، عمن عاش منهم قبـل ثورة العبـاسيين ومعها وبعـدها ، وكـانوا هم ورواة حـديثهم مخـالفين لبني العباس .

(٥)

وأخيراً فهذه الأحاديث مروية عن مجموعة كبيرة من الرواة الموثقين عند المسلمين وفيهم الموافق لبني العباس والمخالف ، ومدونة في أوثق مصادر السنة لدى المسلمين ، وفي أصحابها الموافق لبني العباس والمخالف ، وقد بلغ كثير منها حد التواتر اللفظي والمعنوي . . فإذا أجزنا صرف النظر عنها بمثل هذا التشكيك لزم أن نجيز صرف النظر عن أكثر أحاديث النبي (ص) ، والعياذ بالله .

*

حول الحديث (٣) هم أصحاب الرايات السود المستضعفون

« فَيَبْعَثُ الله عَليهِ (أي السفياني) فَتىً مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ يَدعُوهُمْ إلى أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (ص) هُمْ أَصْحابُ الرّاياتِ السُّودِ المُستَضْعَفُونَ يُعِزُّهُمْ آللَّهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ النَّصْرَ ، فَلا يُقاتِلُهُمْ أَحَدٌ إلاَّ هَزَمُوهُ » .

(١)

استعمل القرآن الكريم مصطلح المستضعفين متقابلاً مع مصطلح المستكبرين . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾[1] .

والسين في المصطلحين تسمى سين الاستفعال وسين الطلب لأنَّها تدلّ على معنى الطلب فيما تدخل عليه ، ولكن معنى هذا الطلب في اسم الفاعل يختلف عنه في اسم المفعول :

فالمستأجر هو الشخص الذي يطلب إجارة الشيء أو المكان .

---

(١) سورة الأعراف : ٧٥ .

والمستعمر هو الذي يطلب إعمار بلاد الآخرين بزعمه .

والمستكبر هو الذي يطلب التكبّر على الآخرين . .

وهكذا كلّ ما اشتمل على سين الطلب ودلّ على وقوع الطلب عليه مثل : المستلطف والمستطاب والمستضعف ، فهي بمعنى : الشيء الذي يطلب لطفه ، أو طيبه ، أو يطلب ظلمه لضعفه .

فسبب التقابل بين المصطلحين إذن أن المستكبرين يتكبّرون على آيات ربهم عز وجل فينتج عنها تكبرهم على عباده المستضعفين وظلمهم . فالاستكبار دائماً يقابله الاستضعاف للآخرين ، فلا استكبار بدون استضعاف ، والعكس صحيح .

والمستضعفون في القرآن الكريم مصطلح سياسي لكل من يقع عليهم الظلم سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

والمتبادر إلى الفهم من مصطلح المستضعفين هو الاستضعاف السياسي ـ الاقتصادي والعسكري ، بمعنى أنّهم يقع عليهم الظلم لضعفهم المادي وعدم امتلاكهم الوسائل الاقتصادية والعسكرية التي يستأثر بها المستكبرون . ولكن الحديث الشريف التالي يعممه إلى الاستضعاف الثقافي أيضاً ويسمي المستضعفين ثقافياً (المستضعفين في الدين) بمعنى أن الظلم يقع عليهم لعدم معرفتهم بالإسلام « ثُمَّ يَظْهَرُ الْعِلْمُ بِبَلْدَةٍ يُقَالُ لَهَا قُمٌّ وَتَصِيرُ مَعْدِناً لِلْعِلْمِ وَالْفَضْلِ حَتَّى لاَ يَبْقَىٰ فِي الأَرْضِ مُسْتَضْعَفٌ فِي الدِّين »[3] .

---

(١) سورة الاعراف : ٧٥ .

(٢) سورة سبأ : ٣١ .

(٣) البحارج ٦٠ ص ٣١٣ .

وقد أبرز القرآن مفهوم المستضعفين واستعمله في بضعة عشر موضعاً ، ووعد المستضعفين المؤمنين بوراثة الأرض وقيادتها ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثين ﴾[1] .

كما حرص على التمييز بين مصطلح المستضعف وبين معنى الضعيف فلم يعبر عن المستضعفين بالضعفاء إلاَّ في حالة واحدة هي حالة الرضا بالاستضعاف والتبعية للمستكبرين ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيءٍ ﴾[2] .

والسبب في هذا التمييز ، أن الضعف بالمفهوم القرآني إنَّما يوصف به الإنسان بسبب حالة تكوينية أو بسبب فعل من نفسه فقط . أما بسبب فعل الآخرين وظلمهم له فيسمى مستضعفاً لا ضعيفاً . على ذلك جرت كلّ الآيات القرآنية التي استعملت مادة ضعف ومشتقاتها . . أما تسمية المستضعفين بالضعفاء في الآية المتقدمة فهو بسبب قبولهم الاستضعاف الذي هو فعل منهم وليس بسبب وقوع الاستضعاف عليهم . وأما قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾[3] ، فهو وصف من وجهة نظر المستكبرين الذين لا يفقهون ، وشعيب (عليه السلام) بالمفهوم القرآني مستضعف وليس ضعيفاً ، والمظلومون من قبل المستكبرين مستضعفون وليسوا ضعفاء ، ولا ينبغي لهم الضعف . . وفي هذا التمييز القرآني تكريم للمستضعفين وتوجيه سياسي وأخلاقي بليغ .

---

(١) سورة القصص : ٥ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٣) سورة هود : ٩١ .

(٢)

هذا الطرح القرآني لقضية الإسلام على أنه قضية مستضعفين ومستكبرين هو أحد الطروحات والصيغ المتعددة التي يطرح الله تعالى بها قضية الإسلام ، والتي تمثل كل واحدة منها بعداً معيّناً في وجود الإنسان وحياته ، وتعطي ثماراً عملية متنوعة . .

والملاحظ في سيرة النبي (ص) والأئمة (ع) أنهم كانوا يطرحون قضية الإسلام بصيغها القرآنية المتعددة حسب الظرف والحاجة ، موازنين فيما بينها ، ومحتفظين بالعنصر الأساسي الثابت في الإسلام ، وهو العنصر العبادي .

والملاحظ في هذا القرن أن أحداً لم يحسن طرح قضية الإسلام بصيغها القرآنية المتعددة كما طرحها الإمام الخميني حفظه الله ، في جوانبها العبادية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والثقافية . . الأمر الذي كان مفاجأة حتى للمفكرين والعاملين الإسلاميين .

ومن هذه الصيغ التي حملت عنصر المفاجأة طرحه لمفهوم المستضعفين والمستكبرين الذي هو في عمقه وحيويته وشموله وبساطته أحد المفاهيم الإعجازية الخالدة في الإسلام .

ففي العمق يشكّل هذا الطرح تفسيراً علمياً بديلاً للتفسيرات المطروحة لحركة الصراع في المجتمع العالمي ، فواقع الصراع ليس بين الشرق والغرب ، ولا بين الرأسمالية والاشتراكية ولا بين البرجوازية والبروليتاريا . . الخ . وإنّما هو بين فئة المستكبرين المتسلطين سواء كانوا في الغرب أو الشرق أو في العالم الثالث . . وبين المستضعفين المظلومين من عباد الله تعالى .

ومن ناحية أخلاقية يتضمّن هذا الطرح قوة خاصة في توعية

المستضعفين وكشف القناع عن المستكبرين .

كما أنَّه طرح سياسي متقدم على كل طروحات التحرر الوطنية والثورة ، وشامل يوجه المسلمين إلى الانفتاح على بقية مستضعفي العالم ، ويحدد طبيعة العلاقة الأخلاقية والسياسية معهم .

وبسبب أصالة مصطلح المستضعفين وواقعيته تحول بسرعة إلى شعار عند جماهير المسلمين في إيران ، وامتدّ إلى المسلمين في العالم ، وإلى غير المسلمين مكتسحاً ما كان في موضعه من شعارات ضعيفة وعديدة .

نعم لقد استعمل هذا المصطلح القرآني من قبل علماء المسلمين ومفكّريهم ، وفي الأوساط الواعية ، عبر التاريخ وفي عصرنا الحاضر ، ولكنَّه لم يكن استعمالاً وافياً ، ولم يأخذ صيغة الطرح السياسي والأخلاقي لقضية الإسلام مع أعدائه ، ولم يتحول إلى شعار جماهيري يعبّر عن وجه من قضية الإسلام إلاَّ على يد الثورة الإسلامية الإيرانية « ثورة المستضعفين » فكانوا بذلك أهل هذه التسمية في الحديث الشريف : « هُمْ الْمُسْتَضْعَفُونَ يُعِزُّهُمْ آللَّهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ فَلا يُقاتِلُهُمْ أَحَدٌ إلاَّ هَزَمُوهُ » .

*

حول الحديث رقم (٤) عن رايات القدس

« تَخْرُجُ مِنْ خُراسانَ رايَاتٌ سُودٌ فَلا يَرُدُّهَا شَيْءٌ . . حَتَّى تُنْصَبَ في إيلِيَاءَ » .

معنى خراسان والمشرق

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ج ٢ ـ ص ٣٥٠ :

« خراسان بلاد واسعة أول حدودها ممّا يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق ، وآخر حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان ، وليس ذلك منها إنّما هو أطراف حدودها . . . ثم قال :

وقال البلاذري : خراسان أربعة أرباع :

فالربع الأول إيران شهر ،وهي نيسابور ،وقهستان ، والطبسان ، وهرات ، وبوشنج ، وباذغيس ، وطوس ، واسمها طبران .

والربع الثاني : مرو الشاهجان ، وسرخس ، ونسا ، وأبيورد ، ومرو الروذ،والطالقان ، وخوارزم ، وآمل ، وهما على نهر جيحون .

والربع الثالث : وهو غربي النهر بينه وبين النهر ثمانية فراسخ : الفارياب ، والجوزجان ، وطخارستان العليا ، وخست ، وأندرابه ، والباميان ، وبغلان ، و والج وهي مدينة مزاحم بن بسطام ، ورستاق بيل وبذخشان ، وهو مدخل الناس إلى تُبّت،ومن أندرابه مدخل الناس إلى كابل والترمذ ، وهو شرقي بلخ والصغانيان وطخارستان السفلى وخلم وسمفجان .

والربع الرابع : ما وراء النهر : بخارى ، والشاش ، والطراربند ، والصغد ، وهوكس ، ونسق ، والروبستان ، وأشروسه ، وسنام قلعة المقنع ، وفرغانه ، وسمرقند .

ثمَّ قال الحموي : قال المؤلف : فالصحيح في تحديد خراسان ما ذهبنا إليه أولاً ، وإنّما ذكر البلاذري هذا لأنَّ جميع ما ذكره من البلاد كان مضموماً إلى والي خراسان ، وكان اسم خزاسان يجمعها .

فأمَّا ما وراء النهر فهي بلاد الهياطلة ولاية برأسها ، وكذلك سجستان ولاية برأسها ذات نخيل ، لا عمل بينها وبين خراسان » .

ثمَّ قال ياقوت بعد مدحه لخراسان : « وقد طعن قوم في أهل خراسان وزعموا أنَّهم بخلاء وهو بُهت لهم . . إلى أن قال : ومن أين لغيرهم مثل محمد بن إسماعيل البخاري،ومثل مسلم بن الحجاج القشيري ، وأبي عيسى الترمذي ، وإسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل ، وأبي حامد الغزالي ، والجويني إمام الحرمين ، والحاكم أبي عبدالله النيسابوري ، وغيرهم من أهل الحديث والفقه ، ومثل الأزهري والجوهري ، وعبدالله بن المبارك ، وكان يعد من أجود الزهاد والأدباء ، والفارابي صاحب ديوان الأدب ، والهروي ، وعبد القادر الجرجاني وأبي القاسم الزمخشري ، هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز البليغ عن عدّهم . . » .

يدلّ كلام الحموي على أن ولاية خراسان كانت تشمل في زمن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ . أكثر من النصف الجنوبي الشرقي لإيران الحالية ابتداء من مدينة ايران شهر القريبة من بحر عمان إلى آمل وخوارزم القريبة من بحر قزوين وما بينهما إلى الشرق ، وقسماً من أفغانستان ، والقسم الإسلامي الذي تحتله روسيا وهو جمهوريات القزق والقرغيز والأوزبك والتاجيك والتركمان .

وأنَّه قد طرأ عليها تقسيم إداري جديد فأصبحت مساحتها أصغر حيث استثنيت منها بلاد ما وراء النهر وغيرها ، وكانت على ذلك في عصر الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

وكلا التقسيمين الإداريين الذين ذكرهما البلاذري والحموي تقع

فيهما محافظة خراسان الحالية في إيران بعاصمتها القديمة طوس والجديدة مشهد .

ولكن الذي ينفعنا في تعيين المقصود بخراسان في الحديث الشريف ليس التحديد الإداري ولا الجغرافي لخراسان في القرن الرابع أو السابع الهجري ، ولا حتى في القرن الأول زمن صدور النص من النبي (ص) ، وإنّما ينفعنا هو ما يعنيه اسم خراسان في عرف العرب في زمن النبي (ص) .

الذي أطمئنّ إليه أن اسم خراسان كان مرادفاً عند العرب لاسم بلاد المشرق أو بلاد الشرق ويطلق على منطقة واسعة تشمل إيران الحالية والمناطق الشرقية والشرق جنوبية التي تليها إلى حدود الهند وبر الصين .

فنحن نلاحظ أنَّ الحموي الذي لم يوافق على السعة التي ذكرها البلاذري لخراسان واستثنى منها بلاد ما وراء النهر وغيرها . . عاد وسمى البخاري والترمذي وغيرهم من أهل خراسان ، مع أن بخارى من بلاد ما وراء النهر . قال في ج ١ ـ ص ٣٥٣ : « بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها » وما ذلك إلاَّ لشيوع هذه التسمية العرفية لمجموع المنطقة والتي لا يلغيها التقسيم الإداري .

كما نلاحظ آثار المرادفة بين اسم خراسان وبلاد الشرق في استعمال عرب الحجاز والعراق والشام إلى اليوم . وقد غلب اسم (خريسان) عند عرب الحجاز وأرياف العراق ، بينما غلب اسم بلاد الشرق عند عرب الشام . ولا زال هذان الاسمان يستعملان عند المتقدمين في السن إلى اليوم بالرغم من اشتهار التسمية الجديدة للمنطقة بإيران . قال في مراصد الاطلاع ص ٣٤٣ : « حدود خراسان

تبدأ ممَّا يلي العراق وآخر حدودها ما يلي الهند » ونقل في صبح الأعشى عن اللباب ج ٤ ـ ص ٣٨٩ أن أهل العراق يقولون إنَّها من الري إلى مطلع الشمس ، وبعضهم يقول من حلوان إلى مطلع الشمس » .

أمَّا الغربيون فقد اشتهر تسمية المنطقة عندهم بفارس ولم يشتهر عندهم اسم خراسان أو بلاد الشرق . والسبب في ذلك بعدهم عن خراسان أولاً ، وأن الشرق والمشرق في الأصل اسم لجهة شروق الشمس ، وهو اسم نسبي ومجمل يتحدد بموجب قرائن متعددة من أهمَّها مكان المتكلم ، فإذا كان المتكلم في أقصى المغرب اتّسع معنى المشرق بالنسبة إليه ، ولذلك يطلق الغربيون اسم الشرق الأدنى على البلاد الأوربية التي تليهم ، واسم الشرق الأوسط على بلادنا ، واسم الشرق الأقصى على البلاد الشرقية بالنسبة إلينا .

أمَّا بالنسبة لمكة المكرمة والجزيرة فإن إيران وما وراءها من المناطق الشرقية هي الشرق وبلاد المشرق . وقد شاع هذا الاستعمال بين المسلمين في المنطقة عبر أجيالهم في الاستعمال الرسمي والشعبي وفي تعبير المؤرخين .

بل يفهم من استعمال المسلمين في صدر الإسلام أن الأصل في كلمة المشرق أن يقصد بها إيران خاصة وأنَّها عندما تطلق على غيرها معها تحتاج إلى قرينة ، ولذلك يكثر في كتب التاريخ تعبير (بلاد المشرق وما وراء النهر) .

بناء على هذا يصبح من المعقول أن يعبر النبي (ص) برايات المشرق تارة ورايات خراسان أخرى لأن معناهما العرفي واحد أو متقارب . . وتسقط المناقشة القائلة بأن اسم خراسان لم يكن شائعاً

في زمن النبي (ص) وأنَّ رواة الحديث هم الذين أبدلوا كلمة المشرق في الأحاديث بكلمة خراسان بسبب اشتهارها من بين المناطق في مطلع القرن الثاني الهجري .

وحتى لو أخذنا بهذه المناقشة وسلَّمنا جدلاً بأن رواة الحديث قد أبدلوا كلمة المشرق بخراسان فهو من باب الرواية بالمعنى ، ويكون دليلاً على أن الرواة الذين هم أقرب إلى المعنى العرفي لكلمة المشرق في زمن النبي (ص) فهموا أنَّه يقصد منها خراسان لا غيرها .

(٢)

« تَخرُجُ مِنْ خُراسَانَ رَايَاتٌ سُودٌ فَلا يَرُدُّهَا شَيْءٌ . . حَتَّى تُنْصَبَ فَي إيلِيَاءَ . . » .

يتحدّث النصّ عن حدث سياسي ، وعن حالة سياسية . . ما أدري لأيهما نعجب أكثر !

إنَّ الحالة السياسية التي تستدعي هذه الحركة (من خراسان إلى إيلياء) لم تكن موجودة على طول التاريخ الإسلامي ، ولم توجد إلاَّ في هذا العصر ! وهذا من معجزات النبي المصطفى (ص) .

فحركة الفتح الإسلامي كانت قواتها من جزيرة العرب وليس من خراسان التي كانت تحت وطأة الكسروية والمجوسية . كما أنَّ القدس كانت جزءاً من هدف هذه الحركة ولم تكن كلّ هدفها أو ثقله كما يفهم من النصّ .

وحركة العباسيين كانت قواتها من خراسان ولكن هدفها كان عاصمة الأمويين دمشق ومراكز قوتهم الأخرى ولم تكن القدس من بينها ، ولعله لم تجر حولها معركة ولم تنصب فيها راية .

وحركة الأمّـة في صراعهـا مع الصليبيين لتحـرير سـاحل البحـر المتوسط والقدس كانت القدس قلب هدفها ، ولكن قواتها لم تكن من خراسان .

فالحالة السياسية التي يفترضها النصّ تشبه أن تقول : سيأتي يوم يتوجّه جيش إسلامي من اليونان لتحرير مكة المكرمة !

وتمضي السنوات . . فتنهار الكسروية في إيران ، ويدخل أهلها في الإســلام . وتمضي القــرون . . ويضعف العــالم الإســلامي ، ويسيـطر عليه الغـربيون ، ويـأتون بـأشد النـاس عداوة للمسلمين إلى فلسطين ، ويجعلون القدس عاصمة لهم . . فتصبح نقطة الهـدف في الصراع الحضاري والمصيري بين المسلمين وأعدائهم . . ويبزغ فجر الإســلام مجـدداً من إيــران ، وتنبض قلوب مـلايينهــا وتتحفّــز إلى القدس . . فتتحقق الحالة السياسية التي يتحدث عنها النص !

وعناصـر الحـدث ، قوات من خـراسان ، شعـارها رايـات سود بلون الثأر والحزن والغضب ، وفي حديث أنَّها سود صغار (ابن حمَّاد ص ٨٥ ـ مخطوطة) لأنَّها تكون في عصر تنتهي فيه حاجة المعركة إلى الراية المـركزيـة الكبيرة ،وتكـون الرايـة رمزاً لهـوية المقـاتلين وشعاراً لهم ، تحملها مجموعاتهم الصغيرة والكبيرة .

والهــدف ، القــدس الشــريف . بـيت الـمقــدس . إيـليــاء المقدسة . . التي جعلوها عاصمة للمفسدين في الأرض .

الهدف تحرير هذه المدينة الـربانيـة وفك أسـرها وتـطهيرهـا من الفساد وقلع شجرته الملعونـة من أرضها ، وجعـل رايات الثـأر والنصر تخفق فوق ربواتها .

والمسافة إلى الهـدف ، حوالي ألف كيلومتـر من آخر نقـطة من

حـدود إيران . . وفي هـذه الـطريق تـوجـد عقبـات سيـاسيـة وعقبـات عسكرية كالجبال .

« فَلا يَرُدُّهَا شَيْءٌ » .

لأنَّهـا تملك العزم القـاطع والإصـرار الـذي لا يلين ، فـالهـدف عندها نهائي ، والوصول إليه حتمي ، والمحاولات السياسية لردّها عن عزمها فاشلة ، ولأنَّها تملك قدرة قتاليـة من نوع خـاص تجعلها تتغلب على العقبات الصعبة التي تعترض طريقها دونه ولو كانت كالجبال « لو اعْتَرَضَتْهُم الجِبالُ لَهدُّوهَا واتَّخَذُوا فيها طُرُقاً » .

أمَّا العقبات السياسية من مراكز الطغيان وعواصم الدول الكبـرى فـلا تحتاج إلى مكـان محدد لتعمـل على منع هـذا الزحف الإسلامي . وأمَّـا العقبات العسكـرية فسـاحتها في هـذه الـطريق إلى ايليـاء أو في أجوائها ، عبر العراق أو تركيا ، وعبـر الأردن أو سوريـا . فهذه منـطقة جبال العقبات التي سيتم التغلب عليها قبل الوصول إلى مـلاقاة العـدو والتغلّب عليه !

(٣)

متى تخرج رايات خراسان ؟

ومتى تنصب بإيلياء وتنبض فوق ربوعها ؟

أسئلة تطرحها جماهير المسلمين المتحمّسة للانتصار على اليهود وتحـريـر القـدس الحـزينـة . ويبلغ الحمـاس بـالبعض أن يتصـوّر أن البشارة النبوية بالرايات السود تتلخص بحملة عسكريـة تتم في شهر أو شهرين !

ولكنَّها في الحقيقة بشارة بحركـة في الأمة . . حـركة من شـأنها أن تنجب مثـل هؤلاء المقـاتلين المتميّـزين . . ومن شـأنهـا أن تضـع

عينهم على هدف الإسلام الستراتيجي فلا يتراجعون عنه . . ومثل هذه الحركة المتجذرة في العمق الزاحفة نحو الهدف ، تحتاج إلى جهود كبيرة ، ونفس طويل .

تخرج رايات سود من خراسان . ولكنَّها لا تولد فجأة على غير سنة الله تعالى في حركة المجتمع وظهور القوة العسكرية ، فيه ، بل توجد على أثر تغير يحدث في الأمة فينتج خروجها . ولا بدَّ أن يستغرق هذا التغيير والإعداد وقتاً وجهداً .

بل يشير قوله (ص) : « فَلا يَرُدُّهَا شَيْءٌ » إلى أنَّ التغلب على العقبات في الطريق يحتاج إلى جهد أكبر من جهد الخروج . . نعم ، سوف لن تمنعها العقبات من الوصول إلى القدس مهما كبرت وكثرت ، ولكن كم هي العقبات ، وكم يستغرق التغلب عليها وعلى الواحدة منها ؟

إذا التفتنا إلى ما يقتضيه قوله (ص) « تَخْرُجُ » من حدوث حركة الأمة ، وما يقتضيه قوله (ص) : « فَلا يَرُدُّهَا شَيْءٌ » : من مقاومة ومثابرة . . ونظرنا إلى حالة الأمة الإسلامية ، وإلى ما حدث في إيران . . نعرف أن الرايات السود قد خرجت بالفعل وأنَّها تعالج الآن أول عقبة في طريقها إلى القدس .

نعم ، رايات المشرق قد خرجت ، والعَقبة الأولى قد تقتضي منها سنوات . . وقد تكون أمامها ثانية وثالثة ، ولكنها . . لا يردها شيء حتى تنصب في إيلياء وتخفق فوق ربوعها وتخفق معها قلوب المسلمين في العالم . وصدق رسول الله (ص) .

ومن طريف مقادير الله تعالى أن الرايات السود الصغيرة انتشرت بشكل طبيعي في جماهير المسلمين في إيران أثناء قيامهم بالثورة ، ثمَّ

في صفوف المقاتلين ، لأنّها تقليد حسيني بينهم من قديم يرمز إلى الحزن والثأر ، مضافاً إلى الرايات الخضراء ، وبنسبة أقل الرايات الحمراء . . وأن الجيش المتشكّل من محافظة خراسان بالذات (لشكر هفتاد وهفت) شعاره التقليدي الراية السوداء ، بينما شعار جيش قزوين مثلاً الراية الحمراء ! وأن الرايات السود الصغار تعم إيران في عاشوراء ويرفعها حتى الأطفال في الشوارع !

*

حول الأحاديث رقم (٥) عن دخول الإيرانيين إلى دمشق

يلاحظ المتتبع أن بين رايات العباسيين ورايات أنصار المهدي (عليه السلام) فرقاً أساسياً في نقطة الهدف . فقد كانت دمشق أقصى هدف العباسيين لأنها عاصمة عدوهم التي يريدون احتلالها . بينما نقطة الهدف عند أنصار المهدي (عليه السلام) هي القدس الشريفة ، لأن تحريرها سيكون مدخلاً أساسياً لتحرير العالم ، خاصة وأنّهم على موعد فيها مع المسيح (عليه السلام) .

هذا الفارق نلمسه بوضوح في أحاديث المهدي وأنصاره ، وفي الأحاديث الموجودة عن رايات العباسيين ، إلى حدّ أنّه يشكل طابعاً مميزاً في استراتيجية الحركتين ، وهو ينفع كقرينة جيدة من جملة قرائن للتأكد من عدم اختلاط أحاديث رايات العباسيين بأحاديث رايات أنصار المهدي (عليه السلام) . . فعندما يوجد حديث يفهم منه أن هدف رايات المشرق أو خراسان هو دمشق ، يمكننا أن نصنّفه في مجموعة أحاديث العباسيين ، وعلى هذا الأساس استبعدنا عدداً من الأحاديث التي يفهم منها دخول الإيرانيين أنصار المهدي (عليه السلام) إلى دمشق قبل ظهوره .

ولكن بعض هذه الأحاديث ومنها الحديثان المذكوران لا تقبل التصنيف في أحاديث رايات العباسيين .

وهناك عدة قرائن في مصلحة قبول هذا النوع من الأحاديث ، كما أنَّ هناك عدة أخرى توجب رفضها أو التوقف بشأنها .

فمن القرائن الإيجابية ، أنَّه مع الأخذ بعين الاعتبار الفارق الستراتيجي في الهدف لكلا النوعين من الرايات ، إلَّا أنَّ دمشق والقدس قريبتان جغرافياً لا يفصلهما أكثر من مئة كيلو متر بخط مستقيم ، وأن دمشق وإن لم تكن هدفاً لأنصار المهدي (عليه السلام) لكنَّها في طريقهم إلى القدس .

ومنها ، أنَّه وردت أحاديث في أنَّ المهدي (عليه السلام) وأنصاره يدخلون القدس عن طريق دمشق ، ويعسكرون في مرج عذراء الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً شرقي دمشق ، ممَّا يشير إلى إمكانية أن يدخلوها أو يدخلوا منطقتها قبل ظهوره . روى المجلسي في البحار ج ٥٢ ـ ص ٢٢٤ وشبيهاً به السيوطي في الحاوي ج ٢ ـ ص ١٤٦ : « ثُمَّ يَسيرُ حَتَّى يَأتِيَ العَذْراءَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ وقَدْ أُلحِقَ بِهِ ناسٌ كَثير ، والسُّفْيانِيُّ يَومَئِذٍ بِوادِي الرَّملَةِ » .

ومنها ، أن الأحاديث المذكورة لا يفهم منها أن هدف أنصار المهدي (عليه السلام) هو دمشق ، وإنَّما تدلّ على وجودهم فيها قبل ظهور السفياني ، ولا مانع أن يكونوا في طريقهم إلى القدس بانتظار معركة التحرير ، خاصة وأن قوات من دول المغرب تكون متواجدة معهم ، ثمَّ يظهر السفياني العميل فيردّهم إلى العراق . . أو يكونوا موجودين في فلسطين وقد حرّروا أجزاء منها كما يدلّ الحديث الثاني ، ويتمكّن السفياني من ردّهم إلى العراق وإيران .

ومن القرائن السلبية ، أنه يفهم من هذه الأحاديث أنها تفترض أن الأصل وجود أهل المشرق بشكل طبيعي في دمشق وفلسطين ، وأن السفياني يهزمهم ويخرجهم منها . وهذا الأمر ينسجم مع تطلعات بقايا الاتجاه الأموي بعد انتصار الثورة العباسية ، الذين حاولوا استغلال أحاديث السفياني ، ووضعوا الأحاديث في أنه يستعيد السلطة من العباسيين وأنصارهم أهل المشرق ويردّهم من حيث أتوا . خاصة وأن أكثر هذه الأحاديث تفترض سفيانياً أول وتحاول أن تبرئه من الانحراف والجرائم وتحملها لسفياني آخر يأتي من بعده . وسنبحث مسألة تعدد السفياني إن شاء الله .

ومنها ، أن رايات أنصار المهدي (عليه السلام) « لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ حَتَّى تُنْصَبَ فِي إِيلِيَاء » بينما تذكر هذه الأحاديث هزائمهم المتتالية . صحيح أن قضية تحرير القدس قضية كبرى تتحمل أن يكون فيها مدٌّ وجزر سياسي وعسكري ، ولكن الصورة في هذه الأحاديث أكثر من ذلك .

هاتان القرينتان السلبيتان وغيرهما تجعلنا نرفع اليد عن القرائن الإيجابية ونتوقف عن الأخذ بالأحاديث في هذا الموضوع ، والتي لم أجد في حدود اطلاعي شيئاً منها يصلح لإثبات أن رايات المشرق الممهدة للمهدي (عليه السلام) تدخل دمشق أو القدس قبل ظهوره ، كما أنه لا يوجد ما ينفي ذلك أيضاً .

*

حول الحديث رقم (٦)

في تفسير قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾

لا زالت الآيات الكريمة المتعلقة باليهود في مطلع سورة الإسراء تثير السؤال عن إفساد بني إسرائيل مرتين ، وعن القوم الذين يبعثهم الله عليهم ؟

فقد كان الرأي السائد عند المفسرين القدامى كالطبري ، والطوسي والرازي وغيرهم ، وعند المعاصرين أيضاً كالطباطبائي في تفسير الميزان ، وسيد قطب في تفسير في ظلال القرآن ، ومغنيّة في تفسير الكاشف ، وغيرهم . . أن الإفسادين قد مضيا والعقوبتين عليهما قد تحقّقتا قبل الإسلام ، وأن العقوبة الأولى وقعت على يد نبوخذ نصّر البابلي حوالي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، حيث احتل القدس ، ودمر هيكل النبي سليمان (عليه السلام) ، ونهب محتوياته وأحرقه ، وأخضع اليهود لسيطرة البابليين . والعقوبة الثانية وقعت على يد القائد الروماني تيطس حوالي سنة ٧٠ ميلادية ، حيث احتلّ القدس وخرب الهيكل ونهبه وأزاله كلياً ، وأخضع اليهود لسيطرة الرومان .

ولكن السؤال عن تفسير الآيات الكريمة طرح نفسه مجدداً ، وأصبح على ألسنة الناس فضلاً عن المهتمين بتفسير القرآن الكريم ، وذلك لعدة اعتبارات :

أولها : العلو الإسرائيلي المعاصر الذي لم يكن في السابق ، والذي قد يكون له علاقة بتفسير الآيات .

وثانيها : أن تفسير الآيات بالماضي هو رأي مفسرين يعتمد على نظرتهم إلى تاريخ اليهود ، وليس على حديث عن النبي (ص) .

وثالثها : وجود بعض الأحاديث النادرة والملفتة ، بعضها يتعلّق بشكل غير مباشر بالموضوع كأحاديث قتال المسلمين لليهود وأحاديث الرايات التي تخرج من المشرق فتنصب بإيلياء . . ومنها ما يتعلّق بالموضوع بشكل مباشر وهو الحديث المتقدّم المروي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) والذي يفسّر القوم الذين يبعثهم الله على اليهود بأهل قم ويقتصر على قوله عند تلاوته للآيات : « هُمْ وَآللَّهِ أَهْلُ قُمٍّ . هُمْ وَآللَّهِ أَهْلُ قُمٍّ . هُمْ وَآللَّهِ أَهْلُ قُمٍّ » . والحديث الآخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) والذي يقتصر على قوله : « وَهُوَ الْقَائِمُ وَأَصْحَابُهُ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ » والحديث الثالث الذي يقول إنهم : «قَوْمٌ يَبْعَثُهُمْ آللَّهُ قَبْلَ خُروجِ القَائِمِ فَلا يَدَعُونَ وِتْراً لآلِ مُحمَّدٍ إلاَّ قَتَلُوهُ » .

وفي السنوات الأخيرة بدأ بعض الكتّاب المسلمين من مصر والأردن والعراق ولبنان يطرحون آراء جديدة تخالف رأي المفسرين في الإفسادين والعقوبتين ، أهمّها رأي يقول بأن أحد الإفسادين قد مضى مع عقوبته فقط ، وأن اليهود اليوم في مرحلة الإفساد الثاني . . وآخر يقول إنّهم اليوم في مرحلة الإفساد الأول وستأتي عقوبته ، كما سيأتي الإفساد الثاني وعقوبته .

إنَّ الوصول إلى رأي واضح في تطبيق الإفسادين والعقوبتين على بني إسرائيل يتوقّف على ثلاثة أمور غفل عن بعضها المفسرون :

الأمر الأول : الاستقراء الدقيق للأقوام الذين سلّطهم الله تعالى على بني إسرائيل عبر تاريخهم ، لملاحظة مدى انطباق وعد العقوبتين عليهم .

والأمر الثاني : هل في القرآن الكريم وعد بعقوبات أخرى لبني إسرائيل لكي نضمّها إلى الوعد بالعقوبتين بحيث يصبح المجموع مستوعباً لتاريخ اليهود وحاضرهم ومستقبلهم ؟

والأمر الثالث : تحديد خصائص الوعد الإلٰهي في الآيات الكريمة وذلك بتفسيرها على ضوء استعمال ألفاظها في القرآن الكريم .

*

١ ـ خلاصة تاريخ اليهود

تتناول هذه الخلاصة الحالة السياسية العامة لليهود من زمر موسى (عليه السلام) إلى زمن نبيّنا محمد (ص) وقد اعتمدنا فيها على كتاب « معجم الكتاب المقدّس » الصادر عن مجمع الكنائس للشرق الأدنى ، وكتاب « تاريخ اليهود من أسفارهم » للمرحوم محمد عزّت دروزة .

وينقسم تاريخ اليهود في هذه المدة إلى عشرة عهود :

١ ـ عهد موسى ويوشع (عليهما السلام)	١٢٧٠ ق.م ١١٣٠ ق.م
٢ ـ عهد القضاة	١١٣٠ ق.م ١٠٢٥ ق.م
٣ ـ عهد داود وسليمان (عليهما السلام)	١٠٢٥ ق.م ٩٣١ ق.م
٤ ـ عهد الانقسام والصراع الداخلي	٩٣١ ق.م ٨٥٩ ق.م
٥ ـ عهد السيطرة الأشورية	٨٥٩ ق.م ٦١٢ ق.م
٦ ـ عهد السيطرة البابلية	٥٩٧ ق.م ٥٣٩ ق.م

٧ ـ عهد السيطرة الفارسية	٥٣٩ ق.م ٣٣١ ق.م
٨ ـ عهد السيطرة اليونانية	٣٣١ ق.م ٠٦٤ ق.م
٩ ـ عهد السيطرة الرومانية	٠٦٤ ق.م ٦٣٨ .م
١٠ ـ عهد السيطرة الإسلامية	٦٣٨ .م ١٩٢٥ م.

عهد موسى ويوشع (عليهما السلام)

عاش النبي موسى (عليه السلام) مئة وعشرين سنة منها نحو ثلاثين سنة أول عمره الشريف في قصر فرعون مصر . ونحو عشر سنوات عند النبي شعيب (عليه السلام) في مَدْيَن الواقعة شرقي خليج العقبة . ثمَّ أربعين سنة في مصر في تبليغ فرعون وبني إسرائيل . ثم خرج بقومه من مصر كما قصّه الله تعالى في القرآن ، وبقي معهم نحو أربعين سنة في سيناء ، قضوا منها سنة في مقابل جبل سيناء الذي نزلت فيه التوراة ، ثم ارتحلوا إلى « قَادِش بَرْنِيع » الواقعة في آخر سيناء من جهة فلسطين قرب وادي العربة .

وتذكر التوراة الموجودة أن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا معه (عليه السلام) ستمئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد (سفر الخروج إصحاح ١٢ : ٣٧ ، وسفر العدد إصحاح ٣٣ :٣٦) . ويقدرهم بعض الباحثين الغربيين بستة آلاف نسمة . ويرجح المؤرخون أن الخروج من مصر حدث في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد حدود ١٢٣٠ ق.م على عهد الفرعون منفتاح .

وفي الجبل عند قادش توفي موسى (عليه السلام) فدفنه وصيّه يوشع بن نون (عليه السلام) وأخفى قبره . . وقد تحمّل من بني اسرائيل أنواع الأذى في حياته وبعد وفاته . . تقول توراتهم عنه وعن هارون (عليهما السلام) : « كلّم الربّ موسى قائلاً : مُت في الجبل

كما مات أخوك هارون في جبل هور . . لأنكما خنتماني . . عند ماء برية مريبة قادش في برية سين إذ لم تقدّساني . . فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنّك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل » سفر التثنية ، أصحاح ٣٢ : ٥٠ ـ ٥٣ وتقول : « يوشع بن نون هو يدخل إلى هناك » سفر التثنية ، أصحاح ١ : ٣٨ .

وتولى قيادة بني إسرائيل بعد موسى وصيه النبي يوشع (عليهما السلام) ، فسار بهم إلى الضفة الغربية لنهر الأردن وبدأ بمدينة أريحا وفتح معها ٣١ مملكة صغيرة الواحدة منها عبارة عن مدينة أو بلدة قد يتبعها قرى زراعية . وكان السكان من الوثنيين الكنعانيين . ثمَّ قسم المنطقة على أسباط بني إسرائيل المتحاسدين ، وقد ذكرت الأصحاحات ١٥ إلى ١٩ من سفر يوشع أسماء مدن وقرى المنطقة وبلغ عددها مئتين وست عشرة مدينة حسب تعبيرهم .

وتوفي يوشع (عليه السلام) عن عمر قارب مئة وعشر سنوات حوالي ١١٣٠ ق.م .

عهد القضاة

عهد الاضطراب وسيطرة الممالك المحلية عليهم

انتقلت قيادة بني إسرائيل بعد يوشع (عليه السلام) إلى القضاة ، وقد حكم منهم خمسة عشر قاضياً ، وتميز عهدهم بأمرين سنراهما مرافقين لبني إسرائيل دائماً هما : انحرافهم عن خط الأنبياء (عليهم السلام) ، وتسليط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب .

يتحدّث سفر القضاة في الأصحاح الثالث والخامس عن انحراف بني اسرائيل بعد يوشع (عليه السلام) فيقول : « سكنوا في وسط

الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحيويين واليبوسيين ، واتّخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، وأعطوا بناتهم لبنيهم ، وعبدوا آلهتهم » .

ويذكر في الأصحاح ٣ : ٨ أن أول من تسلط عليهم وأخضعهم **كوشان رشتعايم ملك آرام النهرين ، مدة ثمان سنين .**

ثم هاجمهم بنو عمون والعمالقة واستولوا على مدينة أريحا ـ قضاة ، أصحاح ٣ : ١٣ .

ثم تسلط عليهم يابين ملك كنعان في حاصور عشر سنين ـ قضاة ، أصحاح ٤ : ٣ .

ثم استعبدهم بنو عمون والفلسطينيون ثمان عشرة سنة ـ قضاة أصحاح ١ : ٨ .

ثم نكل بهم الفلسطينيون وتسلّطوا عليهم مدة أربعين سنة ـ قضاة ١٣ : ١ .

وقد امتدّ حكم القضاة من بعد يوشع (عليه السلام) إلى زمن النبي صموئيل (عليه السلام) الذي ذكره الله تعالى في القرآن بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَالَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؟ . . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(١)

عهد داود وسليمان (عليهما السلام)

أدخلنا عهد طالوت (شاول) فى عهد داود وسليمان

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٦ .

(عليهما السلام) لأنّه كان ملكاً على خطّ الأنبياء (عليهم السلام) ولم يكن نبيّاً . ويذكر المؤرخون أنّه حكم خمس عشرة سنة من سنة ١٠٢٥ إلى ١٠١٠ قبل الميلاد ، وحكم بعده داود وسليمان (عليهما السلام) من ١٠١٠ ق.م إلى ٩٣١ ق.م سنة وفاة سليمان .

ويلاحظ أن مؤلفي التوراة الموجودة قد أكثروا من ظلمهم وافترائهم على موسى وداود وسليمان (عليهم السلام) ، ورموهم **بعظائم التهم الأخلاقية والسياسية والعقائدية ، وقد تبعهم في ذلك وزاد عليهم أكثر المؤرخين النصارى الغربيين ، ثمّ تبعهم على ذلك أصحاب الثقافة الغربية الذين يتسمّون بالمسلمين**

صلوات الله على أنبيائه جميعاً ، ونبرأ إلى الله ممّن يكفر بهم أو يرميهم بسوء .

لقد أنقذ داود (عليه السلام) بني إسرائيل من الوثنيّة التي تورطوا فيها ومن تسلّط الوثنيين . ومدّ نفوذ دولته الإلٰهية إلى المناطق المجاورة ، وعامل الشعوب التي دخلت تحت حكمه بالحسنى كما وصف الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيّه محمد (ص) . . وأراد داود أن يبني مسجداً في مكان عبادة أبيه إبراهيم (عليهما السلام) في القدس على جبل (المريّا) وكان المكان بيدراً للحبوب لأحد سكّان القدس من اليبوسيين اسمه أُرونا ، فاشتراه منه بخمسين شاقلاً فضّة كما تذكر التوراة الموجودة (سفر صموئيل الثاني ، أصحاح ٢٤ : ٢٤ - ٢٥ وسفر الأخبار الأول ، أصحاح ٢١ : ٢٢ ، ٢٨) وبنى فيه مسجداً **أقام فيه الصلاة وفي جانب منه كانت تذبح الأضاحي لله تعالى .**

وتولى من بعد داود ابنه ووصيه نبي الله سليمان (عليهما السلام) ، وبلغ ملكه ما ذكره الله تعالى في قرآنه وسنة

رسوله (ص) وبنى مسجد أبيه داود وإبراهيم بناء جديداً فخماً عرف باسم هيكل سليمان .

إنَّ فترة حكم سليمان هي فترة استثنائية في تاريخ الأنبياء (عليهم السلام) جسّد الله تعالى فيها للعالم نموذجاً للإمكانات الهائلة المتنوعة التي يمكن أن يسخرها لحياتهم إذا هم أقاموا كيانهم السياسي بقيادة الأنبياء وأوصيائهم ولم يستغلوها في البغي على بعضهم ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ الرِّزْقَ لِلنَّاسِ لَبَغَوْا فِي ٱلأَرْضِ ،وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »[1] .

وقد توفي سليمان (عليه السلام) وهو جالس على كرسيّه كما وصف القرآن ، ويحدد المؤرخون ذلك بسنة ٩٣١ ق.م ، وبمجرد وفاته وقع الانحراف في بني إسرائيل والانقسام في الدولة ، وسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . تقول التوراة الموجودة في سفر الملوك الأول أصحاح ١١ : ١ ـ ١٣ بعد أن تفتري على سليمان (عليه السلام) أنَّه ترك عبادة الله تعالى وعبد الأصنام « وقال لسليمان : من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً » .

عهد الانقسام والصراع الداخلي

وقد وصل بهم ذلك إلى أن يستعينوا على بعضهم بالقوى الوثنية المتبقية حولهم ، وبفراعنة مصر وآشور وبابل .

فقد اجتمع اليهود بعد موت سليمان (عليه السلام) في شكيم (السامرة) وبايعت أكثريّتهم يربعام بن نباط الذي كان عدواً لسليمان

---

(١) سورة الشورى : ٢٧ .

في حياته ، وهرب منه إلى فرعون مصر ، فلما توفي سليمان رجع ورحبت به اليهود . وأقام في الضفّة الغربية كياناً باسم دولة إسرائيل وجعل عاصمته شكيم أو السامرة ، وبايعت قلة منهم رحبعام بن سليمان وجعل عاصمته القدس وعرفت دولته باسم يهوذا . أمَّا وصي سليمان آصف بن برخيا الذي يصفه الله تعالى بأنَّه ﴿ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ » فلم يكن نصيبه من بني إسرائيل إلاَّ التكذيب !

وتذكر التوراة أن الكفر وعبادة الأصنام كان علنياً في أتباع يربعام وأنَّه « صنع عجلين من ذهب وضع أحدهما في بيت ايل والثاني في دان وجعل عندهما مذابح وقال لهم : هذه آلهتكم التي أصعدتكم من مصر فاذبحوا عندها ولا تصعدوا إلى أورشليم ، فاستجاب له الشعب ! » سفر الملوك إصحاح ١٢ : ٢٦ ـ ٣٣ .

وإلى جانب العجلين أمر يربعام بعبادة آلهة أخرى منها عشتاروت إلهة الصيدونيين وكموش إلٰه الموآبيين ، ومكلوم إلٰه العمونيين (سفر أخبار الملوك الأول ، أصحاح ١٢ : ٣١ وأخبار الملوك الثاني ، أصحاح ١١ : ١٣ ـ ١٥ وأصحاح ١٣ : ٩) .

وبعد ثلاث سنوات سارت مملكة يهوذا في ذات الطريق فعبدت الأصنام (سفر أخبار الملوك الأول ، أصحاح ١٤ : ٢١ ـ ٢٤ والملوك الثاني ، أصحاح ١١ : ١٣ ـ ١٧ وأصحاح ١٢ .

وقد اغتنم شيشق فرعون مصر هذه الفرصة وقام في سنة ٩٢٦ ق.م . بحملة لمساعدة يربعام ، والقضاء على دولة ابن سليمان وجماعته ، فاحتل القدس « وأخذ خزائن بيت الرب وبيت الملك ، وأخذ كل شيء ، وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان » سفر أخبار الملوك ، أصحاح ١٤ : ٢٥ ـ ٢٦ .

ويبدو أن ظروف فرعون مصر لم تساعده لفرض سيطرته المستمرة أو سيطرة حليفه يربعام . . فبعد انسحاب شيشق استعادت المملكة الصغيرة شيئاً من كيانها ، ولكن الحروب استمرت مع يربعام .

كما استغل الآراميون ضعف الدولتين فهاجمهوا مملكة يهوذا وساقوا رؤساءهم سبايا إلى عاصمتهم دمشق ، وفرضوا عليهم الجزية وذلك في عصر الملك الآرامي بنهدد - ٨٧٩ ق.م - ٨٤٣ ق.م - سفر الملوك الثاني أصحاح ١٣ : ٣ - ١٣ .

ثم فرضوا الجزية والحماية على مملكة يربعام في زمن ملكها آخاب بن عومري ٨٧٤ ق.م - ٨٥٣ق.م .

وتذكر التوزاة أيضاً غزو الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشسيين لمملكة يهوذا في زمن الملك يهورام فاحتلوا القدس واستولوا على الأموال الموجودة في بيت الملك وسبوا أبناءه ونساءه (سفر الملوك الثاني ، أصحاح ٢١ :١٦ - ١٧) .

وكذلك تذكر أن الجيش الآرامي غزا بيت المقدس وأهلك كل الرؤساء وأخذ جميع الخزائن وقدمها إلى حزائيل ملك الآراميين (سفر الملوك الثاني ، أصحاح ٢٤ :٣ وأصحاح ١٢ :١٧ - ١٨) .

وكذلك هجم يوآش ملك إسرائيل على يهوذا حيث هدم سورها وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك (سفر الملوك الثاني أصحاح ١٤ :١١ - ١٤ وأصحاح ٢٥ : ٢١ - ٢٤ .

وقد استمرت هذه الحالة من الصراع فيما بينهم وتَسلُّط الممالك المجاورة عليهم إلى الاحتلال الآشوري .

عهد السيطرة الآشورية

بـدأت السيطرة الآشـورية على اليهـود بحملة شلمنصـر الثـالث ملك الآشوريين ٨٥٩ ق.م - ٨٢٤ ق.م على مملكة الآراميين ومملكة إسـرائيـل حيث أخضـع المنـطقـة لحكمـه وحكم من بعـده من الآشـوريين ، ويبـدو أن مملكـة يهـوذا كـانت محـافـظة على طـاعـة الآشـوريين بعكس مملكة إسـرائيل ، لأن التـوراة تـذكـر طلب ملكهـا آحـاز بن يوثـام من تغلث فلاسـر ملك آشور القيـام بحملة على مملكة إسـرائيـل والآراميين فـاستجـاب لـه الأخيـر وقـام بحملة في سنـة ٧٣٢ ق.م ، وتـابع مهمتـه خلفه شلمنصـر الخامس ولكنـه توفي أثنـاء حصـاره لعاصمتهـا شكيم (السامـرة) فأكمـل خلفه سـرجـون الثـاني احتلال السامرة وقضى على هذه المملكة نهائياً .

وقـد ساعـد الآشوريين في القضـاء على مملكة إسـرائيل خـطة الإجلاء التي طبقوها مع اليهـود فقد سبـاهم تغلث فلاسـر إلى بلاده ، وأسكن مكـانهم آشـوريين ، كمـا ورد في سفـر أخبـار الملوك الثـاني أصحاح ١٥ : ٢٩ وقام بعده الملك فقح بـإكمال الخـطة فسبى نصف سبط منسي وغيره كمافي سفر أخبار الأيام، أصحاح ٥ : ٢٩ وسـرجون الثاني الذي أجلى منهم حوالي ثلاثين ألفـاً إلى حران وضفـة الخابـور وميـديـا ، وأسكن مكـانهم الآراميين ـ سفـر الملوك الثـاني أصحـاح ١٧ : ٥ و ٦ و ١٨ .

وقد خرجت مملكة يهوذا عن طـاعة الآشـوريين في عهد ملكهـا حـزقيا الـذي قام على مـا يبدو بـالاتصال بـالمصريين ، فغضب عليـه سنحاريب ملك آشور وقام بآخـر حملة آشوريـة لإخضاع مملكـة يهوذا حوالي سنة ٧٠١ ق.م وأخضع المنطقة واحتل القدس ودفع لـه حزقيـا

« جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك » سفر أخبار الملوك الثاني ، أصحاح ١٨ : ١٣ ـ ١٥ .

وتذكر التوراة الموجودة غير من تقدّم من ملوك آشور . . أسرحدون وآشور بانيبال آخر ملوكهم وأنهما نقلا أقواماً من آشور وأسكنوهم في السامرة ـ سفر عزرا ، أصحاح ٤ : ١٠ .

عهد السيطرة البابلية

سقطت عاصمة الآشوريين نينوى على يد الماذيين والبابليين (الكلدانيين) سنة ٦١٢ ق.م فتقاسموا ممتلكاتها وكان العراق وبلاد الشام وفلسطين من حصة البابليين . وأشهر ملوكهم نبوخذنصر الذي قام بحملتين لإخضاع بلاد الشام وفلسطين الأولى سنة ٥٩٧ ق.م والثانية سنة ٥٨٦ ق.م .

في الحملة الأولى حاصر القدس وفتحها وأخذ خزائن بيت الملك ، وسبى عدداً كبيراً من اليهود من جملتهم الملك يهويا كين ورجاله ، وعين صدقيا عمّ يهوياكين على من بقي من اليهود وأسكن المسبيين في منطقة نيبور عند نهر الخابور ببابل (أخبار الملوك الثاني ، أصحاح ٢٤ : ١ ـ ٦) .

وجاءت الحملة الثانية بسبب صراع النفوذ بين نبوخذنصر وفرعون مصر حوفرا حيث قام الأخير بتحريض ملوك بلاد الشام وفلسطين ومنهم صدقيا ملك القدس على التحالف معه ضد البابليين فاستجابوا له فوجه حملته إلى المنطقة ، ولكن نبوخذنصر سارع بإرسال حملة تمكن بها من هزيمة المصريين واحتلال كافة المنطقة ودخل الجيش البابلي القدس ودمّر الهيكل وأحرقه ونهب خزائنه ، وكذلك فعل ببيوت كبار اليهود ، وسبى منهم حوالي خمسين ألف

شخص وذبح أولاد صدقيا أمامه ثم فقأ عينيه وحمله مقيداً مع الأسرى ، وقضى بذلك على مملكة يهوذا (سفر الملوك الثاني ، أصحاح ٢٤ : ١٧ ـ ٢٠ و ٢٥ وسفر الأخبار الثاني أصحاح ٣٦ : ١١ ـ ٢١ وسفر أرميا ، أصحاح ٣٩ : ١ ـ ٤) .

عهد السيطرة الفارسية

احتلّ كورش ملك فارس بلاد بابل وقضى على دولتها سنة ٥٣٩ ق.م ومضى في حملته ففتح بلاد الشام وفلسطين ، وسمح لمن أراد من أسرى نبوخذنصر واليهود الموجودين في بابل بالرجوع إلى القدس ، وأعاد إليهم كنوز الهيكل ، وسمح لهم باعادة بنائه ، وعيّن زربابل حاكماً عليهم . سفر عزرا أصحاح ٦ : ٣ ـ ٧ وأصحاح ١ : ٧ ـ ١١ .

وبدأ الحاكم اليهودي التابع لكورش ببناء الهيكل ، ولكن الأقوام المجاورة توجست من ذلك واشتكت إلى قمبيز خليفة كورش ، فأمر بإيقاف البناء ، ثمَّ سمح لهم دارا الأول فأتمّوا بناءه سنة ٥١٥ ق.م سفر عزرا ، أصحاح ٦ : ١ ـ ١٥ .

واستمرّت السيطرة الفارسية على اليهود من سنة ٥٣٩ ق.م ـ ٣٣١ق.م حكم فيها كورش وقمبيز ، وداريوس الأول (دارا) ، واحشوريوش ، وأرتحشستا المعاصر لعزير (عليه السلام) ، وحكم بعده عدة ملوك منهم داريوس الثاني وأرتحشستا الثاني ، والثالث ، وكان آخر ملوكهم داريوس الثالث الذي قضى عليه الاسكندر اليوناني . وأكثر هؤلاء الملوك ورد ذكرهم في التوراة الموجودة .

عهد السيطرة اليونانية

زحف الاسكندر المقدوني على مصر وبلاد الشام وفلسطين ففتحها ، وهزم الحاميات الفارسية والقوى المحلية التي وقفت في وجهه ، ودخل القدس وأخضعها فيما أخضع ، ثمَّ قضى على داريوس الثالث وجيشه في معركة أربيل الحاسمة بشمال العراق ، وتابع زحفه فاحتلّ إيران وغيرها . . ودخل اليهود بذلك تحت السيطرة اليونانية سنة ٣٣١ ق.م .

وقد تنازع قادة جيش الاسكندر بعد وفاته على إمبراطوريّته الكبيرة ، وبعد صراع دام عشرين سنة سيطر البطالسة في مصر (نسبة إلى بطليموس) على أكثر أجزاء الدولة ، والسلوقيّون في سوريا (نسبة إلى سلوقس) على أجزاء أخرى ، ودخلت القدس تحت سيطرة البطالسة في سنة ٣١٢ ق.م حتى انتزعها منهم أنطيوخوس الثالث السلوقي سنة ١٩٨ق.م ، ثم غلب عليها البطالسة مرة أخرى حتى الفتح الروماني سنة ٦٤ ق.م .

وقد ذكرت التوراة الموجودة ستة من البطالسة باسم بطليموس الأول والثاني . . الخ . وأن الأول منهم دخل أورشليم يوم السبت وسبى عدداً من اليهود إلى مصر ـ سفر دانيال ، أصحاح ١١ : ٥ .

كما ذكرت خمسة من السلوقيين باسم أنطيوخوس الأول والثاني . . الخ . وأن الرابع منهم ـ ١٧٥ ق.م ـ ١٦٣ ق.م زحف على القدس ونهب جميع النفائس من المعبد ، وبعد سنتين ضربها ضربة عظيمة ونهبها وهدم بيوتها وأسوارها وسبى نساءها وأطفالها ونصب تمثالاً لإلٰهه زفس في الهيكل وأمر اليهود بعبادته فاستجاب له كثير منهم بينما لجأ بعضهم إلى المخابىء والمغاور فكان ذلك سبب

ثـورة اليهـود المكـابيين سنـة ١٦٨ ق.م ـ سـفـر المكـابيين ، أصحاح ١ : ٤١ ـ ٥٣ .

وهذه الثورة التي يفتخر بها اليهود كثيراً أشبه بحرب عصابات قام بها متدينو اليهود ضد اليونانيين الأثينيين وقد حققت انتصارات محدودة في فترات مختلفة ، واستمرّت حتى جاءت السيطرة الرومانية .

عهد السيطرة الرومانية

في سنة ٦٤ ق.م احتلّ القائد الروماني بومبي سورية وضمّها إلى إمبراطورية روما ، وفي السنة الثانية احتلّ القدس وجعلها تابعة لحاكم سوريا الروماني .

وفي سنة ٣٩ ق.م عين القيصر أغسطس هيرودس الأدومي ملكاً على اليهود ، وقد بدأ ببناء الهيكل بناء جديداً واسعاً مزيّناً وتوفي سنة ٤ ق.م وقد ذكره إنجيل متى ص ٢ .

كما ذكرت الأناجيل ابنه هيرودس الثاني الذي حكم من سنة ٤ ق.م إلى سنة ٣٩ م . والذي ولد في زمانه المسيح (عليه السلام) ، والذي قتل يحيى بن زكريا (عليهما السلام) ، وأهدى رأسه على طبق من ذهب إلى سالومه إحدى بغايا بني إسرائيل (إنجيل مرقس ٦ : ١٦ ـ ٢٨) .

وتذكر الأناجيل والمؤرخون الاضطرابات التي وقعت في القدس وفلسطين على عهد نيرون ٥٤ م ـ ٦٨ م والتي كانت بين اليهود والرومان ، وبين اليهود أنفسهم ، فقام القيصر فسبسيان بتعيين ابنه تيطس سنة ٧٠ م ملكاً على المنطقة ، وقام تيطس بحملة على القدس فتحصن فيها اليهود حتى نفدت مؤنهم وضعفوا ، واخترق تيطس السور

واحتلّ المدينة وقتل الألوف من اليهود ودمّر بيوتهم ، ودمّر الهيكل وأحرقه وأزاله من الوجود تماماً ، بحيث لم يعد يهتدي الناس إلى موضعه ، وساق الأحياء الباقين إلى روما .

ويذكر المسعودي في التنبيه والإشراف ص ١١٠ أن عدد القتلى في هذه الحملة بلغ من اليهود والمسيحيين ثلاثة آلاف ألف أي ثلاثة ملايين .

وقد اشتدت قبضة الرومان على اليهود بعد هذه الحوادث ، ثمَّ بلغت ذروتها عندما تبنى قسطنطين ومن بعده من القياصرة الديانة المسيحية ، فنكّلوا باليهود ، ولهذا استبشر اليهود بغزو كسرى ابرويز لبلاد الشام وفلسطين وانتصاره على الروم سنة ٦٢٠ م ، وفرح بذلك إخوانهم يهود الحجاز واستفتحوا على المسلمين فنزل قوله تعالى : ﴿ أ.ل.م. *غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمؤمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1] ويذكر المؤرخون أن اليهود اشتروا من الفرس عند انتصارهم عدداً كبيراً من الأسرى النصارى بلغ تسعين ألفاً وذبحوهم .

وعندما انتصر هرقل بعد بضع سنين نكّل باليهود وطرد من بقي في القدس منهم ، وأصبحت القدس عند النصارى محرمّة على اليهود ، ولذلك اشترطوا على الخليفة عمر بن الخطاب أن لا يسكن اليهود فيها فأجابهم إلى طلبهم ، وكتب ذلك في عهد الصلح لهم كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه ج ٣ ص ١٠٥ وكان ذلك في سنة ٦٣٨ م ، سنة ١٧ هجرية حيث أصبحت القدس وفلسطين جزءاً من

---

(١) سورة الروم : ١ ـ ٥ .

الدولة الإسلامية إلى سنة ١٩٢٥ م عندماسقطت الخلافة العثمانية بأيدي الغربيين .

وعندما نبحث في هذا الشريط لتاريخ اليهود عن الإفسادين والعلو ، وعن القوم الذين دخلوا المسجد أول مرة وأعيدت الكرة لليهود عليهم . . لا نجد إلا إفساداً متواصلاً لا يصح تقسيمه إلى إفسادين بارزين إلا بمجيء الإسلام ، وإلا علواً واحداً هو الذي يعيشون فيه اليوم ، وإلا المسلمين الذين أعيدت لليهود الكرة عليهم من بين كل الأقوام الذين سلطهم الله عليهم . . كما سيتضح في تفسير الآيات الشريفة . .

*

٢ ـ العقوبات الموعودة لبني إسرائيل

مضافاً إلى الوعد الإلٰهي لبني إسرائيل بالإفساد مرتين والعقوبة عليهما يوجد في القرآن الكريم وعدان آخران لهم بالعقوبة . وعد في سورة الأعراف بتسليط أقوام عليهم إلى يوم القيامة . . ووعد في سورة المائدة بإحباط فتنهم ومخطّطاتهم العسكرية . ولكل واحد من الوعود الثلاثة مقوماته الخاصة ، وهي تكمل بعضها بعضاً ، وتشكّل بمجموعها تفسيراً يستوعب حياة اليهود في تاريخهم ومستقبلهم . ويناسب بحثنا أن نقدّم الوعدين الثاني والثالث .

الوعد الثاني

وهو في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَومِ الْقِيٰامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقٰابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنٰاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً ، مِنْهُمُ الصّٰالِحُونَ وَمِنْهُم دُونَ ذٰلِكَ ،

وَبَلَوْنَاهُم بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ ﴾[1] .

نلاحظ في هذا الوعد :

١ ـ أنه استعمل له كلمة « تأذّن » أي نادى معلناً ، ولم ترد تأذنّ في القرآن إلاّ في هذا الموضع وفي موضع آخر عن بني إسرائيل أيضاً يتقابل فيه التهديد والترغيب : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَومِهِ آذْكُرُوا نِعْمَةَ آللَّهِ عَلَيكُمْ إِذ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعُونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَائَكُم وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ،وَفِي ذٰلِكُمْ بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي آلأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ آللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[2] . وسوف ترى أن العديد من ألفاظ وتراكيب الوعود الثلاثة لا يستعملها القرآن إلاّ في اليهود خاصة أو في حالات خاصة جداً تشبه (الحالة اليهودية) ممّا يلفت النظر إلى مجال جديد في منهج التعبير القرآني .

٢ ـ استعمل مصطلح « يسومهم سوء العذاب » الذي لم يرد إلاّ وصفاً لمعاملة فرعون لبني إسرائيل ، ممّا يدل على نوع العقوبة الضرورية لبني إسرائيل « سوء العذاب » وكذلك كانت سيطرة العموريين والآراميين والآشوريين والمصريين والبابليين واليونان والرومان وغيرهم . وكان أخفّها عقوبة الفرس المجوس والمسلمين .

٣ ـ الظاهر أن هذا الوعد يشمل مرحلة انحرافهم بعد موسى (عليه السلام) ، بقرينة مجيئه في سياق عقوبة أهل القرية الذين اعتدوا في السبت ، وتعقيبه بقوله تعالى : ﴿ وقطّعناهم في الأرض أمماً ﴾ وبقرينة التأذن المشابه له على لسان موسى (عليه السلام) ﴿ وإذ تأذّن ربُّكم لئن شكرتم . . ﴾ فيكون تسلط الأقوام المتقدمه

(١) سورة الاعراف : ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٦ ـ ٨ .

تصديقاً لهذا الوعد .

٤ ـ من الواضح أن تصديق الوعد الإلٰهي بتسليط أقوام على اليهود مدى حياتهم إلى يوم القيامة . . أمر عرفي بحيث يصدق عليهم عرفاً أنهم تحت سيطرة الآخرين . وإذا استعرضنا تاريخ اليهود من زمن موسى (عليه السلام) إلى يومنا هذا واستثنينا منه فترات حكم الأنبياء موسى ويوشع وداود وسليمان (عليهم السلام) الخارجة بطبيعتها ، نجد أن تسلّط الأقوام المذكورين يستغرق كل تاريخ اليهود إلى زمن النبي (ص) ، حيث انتصر عليهم المسلمون وانتقلت إليهم السيطرة عليهم من الرومان .

لكن يرد إشكال على فترة السيطرة الإسلامية عليهم خلال الثلاثة عشر قرناً حيث لا ينطبق على المسلمين أنَّهم كانوا يسومونهم سوء العذاب ، فالجاليات اليهودية في بلاد المسلمين لم تلاق سوء العذاب الموعود به إلى يوم القيامة إلاَّ في صدر الإسلام ، حيث قتلوا منهم وسبوا وصادروا أموالهم .

والجواب أنَّ « يسومهم سوء العذاب » لا تعني استمرار عمليات القتل والسبي والسجن ، بل تعني إخضاعهم عسكرياً وسياسياً لسيطرة من يبعث عليهم ، وهذا لا يتنافى مع إعطائهم حرّيات وحقوقاً ضمن إطار الخضوع لمن يحكمهم . . وقد عاشوا القرون الطويلة تحت حكم الأقوام المتقدمين وكانوا لا يتعرضون للقتل إلاَّ في فترة السيطرة الأولى ، أو عندما يبدر منهم عمل عسكري أو سياسي مضاد . . وكما يصحّ وصف هؤلاء الأقوام بأنهم بُعثوا على اليهود وساموهم سوء العذاب فكذلك يصحّ وصف المسلمين ، وإن كانوا أقل منهم سوماً للعذاب ، وقد ورد عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) تطبيق آية من يسومهم سوء العذاب على أمة محمد (ص) ، ونقل صاحب مجمع

البيان أن عليه إجماع المفسّرين .

ولكن يبقى الإشكال بالنسبة إلى الأوروبيين والأمريكيين والروس ، فإن الجاليات اليهودية الموجودة في بلادهم أو في بلاد المسلمين بعد تسلطهم علينا من مطلع هذا القرن لم تلاق منهم سوء العذاب ، باستثناء ما فعله هتلر بيهود ألمانيا .

لقد مضى على اليهود قرن تقريباً أو نصف قرن على الأقل ولا يوجد تطبيق لهذا الوعد الإلٰهي وهذا ما لا نظير له في كلّ تاريخهم باستثناء حكم الأنبياء (عليهم السلام) .

والجواب أن الفترة الحالية من حياة اليهود مستثناة من الوعد الإلهي بالتسلط عليهم ، لأن مقتضى وعدهم بأن يفسدوا ويعلوا أن يوجد لهم إمكانات ومدة زمنية كافية ترتفع فيها سيطرة الآخرين عنهم ، ويتحقق علوهم . فيكون الوعد بالتسليط عليهم مخصصاً بالوعد بالعلو بفترة تخلو حياتهم فيها من السيطرة الخارجية ، ويكونون في مرحلة الإفساد والعلو ورد الكرة ، كما هو حالهم اليوم .

*

الوعد الثالث

في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً . . وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً . . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[1] .

ومِمَّا نلاحظ في هذا الوعد :

(١) سورة المائدة : ٦٤ .

١ ـ أنه يركّز على إحباط مخططاتهم العسكرية سواء كانوا فيها طرفاً مباشراً أو غير مباشر ، فكلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله تعالى وهو وعد شامل بإطفاء نارهم سواء كانوا طرفها المباشر أو أوقدوها بتحريك الآخرين ، أو بالأسلوبين جميعاً .

٢ ـ لم يستعمل القرآن الكريم تعبير « أوقدوا ناراً للحرب » إلّا في هذا الموضع ! وهذا التشبيه لإثارة الحرب بإيقاد النار ، الذي يتضمّن تشبيه الحرب بالنار ، والذي يعالج بالإطفاء باستمرار ، يدلّ على أن عملية إشعال الحرب أصبحت طبيعة في اليهود ، وأن الحدود التي يمكن أن يصلوا إليها هي إعداد مقدمات الحرب والبدء بإضرامها ، فأذا أصبحت ناراً متقدة حصل التدخل الإلٰهي لإطفائها .

٣ ـ زمن هذا الوعد قد يشمل تاريخ اليهود قبل الإسلام ، ولكن المؤكد شموله لمرحلة ما بعد الإسلام بقرينة أنّه وعد نزل على رسول الله (ص) وأن مضمون الآية وسياقها وما بعدها تنديد بموقفهم المعادي للإسلام وأنهم سيزدادون له عداء ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً » .

٤ ـ جاء الوعد الأول بصيغة التحديد ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرضِ مَرَّتَينِ ﴾ والوعد الثاني بصيغة الإطلاق القابل للتقييد المتصل والمنفصل ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ مَنْ يَسُومُهُم ﴾ أمّا الوعد الثالث فقد استعملت فيه أداة التعميم (كلما) لأنّه وعد شامل لكل حالات إيقاد الحرب ولا تخصيص فيه .

كما أن الوعد الأول ، جاء بصيغة القضاء والحكم ﴿ وَقَضَيْنَا إِلىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وجاء الثاني بصيغة الإعلان الإلٰهي ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أمّا الوعد الثالث فجاء بصيغة الفعل الإلٰهي المباشر متناسباً مع

موضوعه إطفاء نار الحرب والأخذ على يد موقديها .

٥ ـ نجد تطبيق هذا الوعد الإلٰهي في عدد من الحروب في تاريخ المسلمين البعيد والقريب التي عمل اليهود لإشعالها ضد المسلمين . وقد شرعوا في بعضها بمقدمات الحطب والكبريت ، ووصلوا في بعضها إلى مرحلة الإيقاد . . وأطفأها الله تعالى . . وما يدخل في غرضنا هو إيقادهم الفعلي لنار الحرب التي هم طرف مباشر فيها في فلسطين ، وطرف غير مباشر في العديد من بلاد المسلمين ، وقد وصلوا في كثير منها إلى درجة الإيقاد ، ولم يبق إلاَّ أن يتحقّق الوعد الإلٰهي بإطفائها .

٣ ـ الوعد الأول

آيات الوعد

﴿ سُبْحانَ الَّذِي أَسرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصىٰ الَّذِي بَارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * وآتَيْنا مُوسىٰ الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً * وَقَضَيْنا إِلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً *ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً * عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً * إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾[1] .

---

(١) سورة الإسراء : ١ ـ ٩ .

مناقشة رأي المفسّرين

يرد على رأي المفسرين القائل بأن الإفسادين قد مضيا والعقوبتين عليهما قد وقعتا عدة إشكالات أساسية ، منها :

١ ـ أنَّه يلزم على هذا القول أن يكون الإفساد والعلو الإسرائيلي قد مضيا . أما الإفساد فمليء به تاريخهم ، وأمَّا العلو فما أدري أين وجده المفسرون في تاريخ اليهود ؟

إنَّ العلو يختلف في استعماله في العربية عن الإفساد ، والتكّبر . فالإفساد كما يكون على نطاق واسع يكون على نطاق ضيق . قال تعالى عن فرعون : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[١] وقال عمن يسيء إدارة اليتامى : ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنْ اليَتامَى قُلْ إصلاحٌ لَهُمْ خَيرٌ ، وَإِنْ تُخالِطُوْهُمْ فَإِخْوانكُمْ في الدِّينِ ، وَاللَّهُ يَعلَمُ المُفسِدَ مِنَ المُصْلِحِ ﴾[٢] .

وقال عن نقص المكيال والميزان : ﴿ وَيَا قَومِ أَوْفُوا المِكْيالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٣] .

وقال عن السحرة : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفسِدِينَ ﴾[٤] .

وعلى هذا فإن وصف اليهود بالمفسدين في الأرض يتحقق

---

(١) سورة القصص : ٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٠ .

(٣) سورة هود : ٨٥ .

(٤) سورة يونس : ٨١ .

بـإفسادهم فيمـا بينهم ، كما يتحقق بـإفسادهم لغيـرهم بأي شكـل من أشكـال التأثيـر الثقـافي والسيـاسي ، ولا يتـوقّف على سيـطرتهم على غيـرهم . ولـذلـك قـال تعـالى عنهم : ﴿ وَيَسْعَـوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً ﴾[1] .

وأمَّا التكبّر فيستعمـل صفة لحـالة في النفس قـال تعالى : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾[2] .

كما يستعمل صفة للتكبّر عن شيء قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَـرُوا عَنْها ﴾[3] . وقـال : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهـا فَما يَكُـوُن لَكَ أَنْ تَتَكَبَّـرَ فِيهَا ﴾[4] . وقـال : ﴿ وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيـاتُنا وَلَّى مُستَكْبِـراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ﴾[5] .

كما يستعمل في الاستكبار على الناس ، قـال تعالى : ﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾[6] .

وعلى هذا فإن وصف اليهود بالاستكبار يتحقق بوجود حالة الكبر في صدورهم ، وباستكبارهم عن آيات الله تعالى ، وباستكبار بعضهم على بعض ، ويتحقق بمجـرد طلب التكبـر على الآخـرين ولا يتـوقف على سيطرتهم على الآخرين .

أمَّـا العلو فلا يستعمـل صفة لحـالة في النفس فـلا يقال : عـلا فلان في نفسه ، كما يقال تكبَّر في نفسه .

ولا يستعمـل صفة للتكبـر عن شيء فلا يقـال : عـلا أو استعلى عن أمر ربّه كما يقال استكبر عن أمر ربّـه ، بل يقـال علا على ربّـه .

---

(١) سورة المائدة : ٦٤ .
(٢) سورة غافر : ٥٦ .
(٣) سورة الأعراف : ٣٦ .
(٤) سورة الأعراف : ١٣ .
(٥) سورة لقمان : ٧ .
(٦) سورة سبأ : ٣٣ .

ولـذلك جـاءا متقـابلين في قـولـه تعـالى : ﴿ أَسْتَكْبَـرْتَ ، أَمْ كُنْتَ مِنْ العَالِيـنَ ﴾[٧] .

بل يستعمل العلو في مجالين لم أجد لهما ثالثاً . أحدهمـا العلو المكـاني مثل : عـلا ظهر فـرسه ، وعـلا السـطح والجبـل . . الـخ . والأصل فيه أن يكون متعدياً ولا يحتاج إلى حرف جرّ .

وثـانيهما : العلو المعنـوي الشبيـه بـالتكّبـر ، ولا يجيء إلاَّ في العلو على العاقل ، والأصـل فيه أن يتعـدّى بعلى . وقد استعمـل في القرآن الكريم هو ومشتقاتـه (علا ، علواً ، استعلى ، تعلوا ، عـال ، عـاليـاً ، عـالين ، الأعلى ، الأعلون) بهـذا المعنى ولم يستعمـل في غيره .

ومنشـأ هذا الفـرق أن التكبر صفـة لحالـة نفسية تستلزم فعـلاً ، ويكـون طرفهـا المتكبر عليـه شيئاً أو عـاقلاً . بينمـا العلو صفة لعمـل يستلزم صفـة نفسية ولا يكـون طـرفـه إلاَّ عـاقـلاً ، فهـو لا يتحقق إلاَّ بعمـل العلو على الآخـرين كمـا لا يتحقق البغي إلاَّ بعمـل الـظلم للآخرين .

وعلى هـذا فوصف اليهـود بالعلو الكبيـر يتـوقّف على سيـطرتهم على غيـرهم من الأمم وممـارسـة العلو عليهم ، وهـذا لم يتحقق في تاريخهم . إنَّ فرعون علا في الأرض ، وقومه كـانوا عـالين أيضاً كمـا وصفهم الله تعالى لأنَّهم مارسـوا العلو على الآخرين . أمَّـا اليهود فلم يعلوا علواً كبيـراً إلاَّ في عصرنـا الحاضـر . وإذا لم يتحقق منهم العلو في الماضي فكيف تقع عقوبته !

قد يقال : نعم كان اليهود في تاريخهم تحت سيطرة من يسومهم

---

(٧) سورة ص : ٧٥ .

سوء العذاب ولكن مرّت عليهم فترات في غير عهود الأنبياء (عليهم السلام) سيطروا فيها على بعض الأقوام القريبين منهم وعلوا عليهم .

غير أني لم أجد في توراتهم أو في تاريخهم أنهم سيطروا على قوم وعلوا عليهم قبل عصرنا أبداً !

ولو سلمنا ذلك ، فهو علو صغير ، وليس العلو الكبير الذي أخبرت به الآيات . وأمّا فترات حكم الأنبياء (عليهم السلام) فلا يمكن من وجهة نظر إسلامية أو تاريخية أن نعتبرها علواً واستكباراً حيث لم يصدر ذلك منهم (عليهم السلام) ولا سمحوا به لليهود في حياتهم .

وقد يقال : إذا لم يعلُ اليهود في تاريخهم على غيرهم ، فقد علوا على بعضهم علواً كبيراً ، فيكون العلو قد تحقق منهم .

والجواب : إن المقصود بالعلو الكبير في الآيات الشريفة هو العلو على غيرهم من الأمم وليس على بعضهم ، يدلّ عليه سياق الآيات ، وما يأتي في معنى رددنا لكم الكرة عليهم .

٢ ـ في الآيات الكريمة صفتان لحالة الإفساد الثاني لم تتحققا في كل تاريخ بني إسرائيل إلاّ في عصرنا وهما : ﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُم الكَرَّةَ عَلَيهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفيراً﴾ فلا تجد في تاريخهم أنهم ردت لهم الكرة على أحد ممَّن سيطر عليهم إلاّ على المسلمين في عصرنا الحاضر ، فلم تردّ لهم الكرة لا على الفراعنة ولا على الآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان ولا على الأقوام الصغيرة الأخرى التي أخذت بسهمها في سومهم سوء العذاب .

وكذلك لم يكونوا في يوم من الأيام أكثر نفيراً من أعدائهم أي

أكثر أنصاراً ، لأن النفير في اللغة كما يذكر الزبيدي في شرح القاموس جمع نفر ، وهم الذين تستطيع أن تحركهم إذا أهمك أمر فينفرون بالأمر معك .

وما لم تتحقق صفة ردّ الكرة وزيادة النفير لا تحقق العقوبة الموعودة على أثرها .

كما تدلّ الآيات على وجود فرق بين شكل العقوبة الأولى والثانية ، فهي تشعر بسهولة التغلّب عليهم في المرة الأولى ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيارِ ﴾ وبعنف المقاومة اليهودية في الثانية ﴿لِيَسُوءُوا وُجوهَكُمْ ولِيَدْخُلوا المسجِدَ ﴾ وينطبق ذلك على عقوبتهم الأولى على يد المسلمين ، وبدء الثانية في عصرنا الحاضر ، ولا ينطبق على عقوبتي نبوخذنصر وتيطس اللتين تتشابهان في حصار القدس والدخول بعد معركة عنيفة .

٣ ـ إنَّ الذين سيطروا على اليهود ودخلوا المسجد ونهبوه أقوام عديدون قد يبلغون من شيشق المصري إلى تيطس الروماني أكثر من عشرة أقوام وقد ذكرنا في الخلاصة المتقدمة احتلال المسجد سبع مرات من قبل شيشق والفلسطينيين ويوآش ، وسنحاريب ، ونبوخذنصر مرتّين ، وبطليموس ، وأنطيوخوس ، وتيطس ، وهرقل .

وقد جاس العديد منهم خلال الديار ، وساؤوا وجوه اليهود ، ودخلوا المسجد ونهبوا خزائنه ، وخربوه . . فما هو الوجه في تخصيص نبوخذنصر البابلي وتيطس الروماني ؟ انَّ زيادة هذين القائدين على غيرهم بحرق المسجد وإزالته لا يصحح تطبيق الآيات عليهما دون غيرهما .

*

تفسير الآيات

ممَّا يلفت النظر أن القرآن الكريم استعمل في هذه الآيات عدة ألفاظ وتراكيب لم يستعملها في غيرها أبداً ، أو استعملها في شأن اليهود فقط ، أو في حالات قليلة خاصة تشبه (الحالة اليهودية) وقد أشرنا إلى احتمال أن يكون وراء ذلك أمر جديد في « منهج التعبير القرآني » وهو اختصاص الموضوع القرآني بألفاظ وتراكيب لا تستعمل في غيره ، فيكون هذا جانباً جديداً من إعجاز القرآن من جهة ، ودليلاً يكشف الوحدة الموضوعية بين أمور لم تكن تبدو موحدة لولا العناصر المشتركة التي تدلّ عليها الألفاظ والتراكيب المشتركة بينها ، من جهة أخرى .

على أي حال فإن القرآن الكريم يعتبر بني إسرائيل حالة خاصة من التعقيد في شخصية الأمم،ويتحدّث عن (الحالة الإسرائيلية) بألفاظ وتعابير خاصة لا يستعملها في حالة أخرى .

﴿ وقضينا ﴾ : بمعنى حكمنا بما سيكون لهم ، من نوع القضاء على قوم لوط في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ ، أَنَّ دابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾[1] ، وقد وردت صيغة قضينا في القرآن في موردين آخرين هما قضاء النبوة لموسى (عليه السلام) ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلىٰ مُوسىٰ الأَمرَ ﴾[2] ، وقضاء الموت على سليمان (عليه السلام) ﴿ فلمَّا قَضَيْنا عَلَيهِ المَوتَ ﴾[3] .

والتعبير بالقضاء الإلٰهي عن هذا الوعد يدلّ فيما يدلّ على

---

(١) سورة الحجر : ٦٦ .

(٢) سورة القصص : ٤٤ .

(٣) سورة سبأ : ١٤ .

حتميته ، ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] ويشعر بشموله لمجموع مستقبل اليهود بعد هذا القضاء .

﴿ إلى بني إسرائيل ﴾ : إسرائيل بمعنى عبدالله وهي لقب ليعقوب (عليه السلام) ، وهي مركّبة من (إسرا) بمعنى عبد و (إيل) بمعنى الله تعالى[2] .

و (يهود) فعل مضارع من (هاد) بمعنى تاب ، ولا يبعد أن تكون من أصل بابلي وأنَّها لفظة مشتركة بين العربية والعبريّة . وقد قالها موسى (عليه السلام) في استغفاره لنفسه وأخيه عندما عبد قومه العجل ، وتَسمَّى بها اليهود عندما تابوا عن العجل . ﴿ قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لي وَلأَخِي . . إلى قوله : إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ ﴾[3] .

ومن دقة القرآن المجيد ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ أنَّه لم يُعْطِ هذا الاسم صفة الشرعية ولم يستعمل كلمة اليهود التي تعني التائبين إلاَّ حكاية عن لسانهم وفي مقام ذمهم ، فقد وردت كلمة (يهود) في القرآن ثماني مرات ، (وهوداً) ثلاث مرات ، (ويهودياً) مرة ، وكلها في مقام الذم وكلها مقترنة مع النصارى ! إلاَّ في آية الوعد بإطفاء نارهم ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَربِ أَطْفأَها اللَّهُ ﴾ !!

وقد استعمل تعبير « الذين هادوا » عشر مرات في حالات مختلفة ، فأعطى توبتهم عن العجل صفة الشرعية ، ولكنه لم يعط اسم التائبين لهم لأنَّهم عادوا إلى انحرافهم وكفرهم .

---

(١) سورة البقرة : ١١٧ .

(٢) البحار ج ١٢ ص ٢٦٥ .

(٣) سورة الأعراف : ١٥٦ .

فاليهود ومشتقاتها في القرآن إذن اسم يستعمل لأغراض خاصة ، أمّا الاسم الرسمي لهم فهو (بنو إسرائيل) الذي ورد في القرآن الكريم إحدىٰ وأربعين مرة حيث لا يكون موجب الاستعمال كلمة اليهود أو الذين هادوا ، والذين أُوتوا الكتاب ، وأهل الكتاب .

وفي ظنّي أن هذا الأسلوب في تسميتهم ملتزم به أيضاً في أحاديث النبي (ص) والأئمة (عليهم السلام) . مع أنّه لا مانع من تسميتهم به من قبل النبي (ص) والمسلمين باعتباره اسماً مشهوراً بعد أن سجّل الله تعالى عليه التحفظ في القرآن الكريم .

﴿ في الكتاب ﴾ :أي في التوراة ، فقد استعمل القرآن الكريم كلمة الكتاب بمعنى التوراة والإنجيل مرات عديدة ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ ﴾[1] ،وجعل (أهل الكتاب) مصطلحاً لليهود والنصارى ، فإطلاق كلمة الكتاب في الآية بقرينة الحديث عن بني إسرائيل تدلّ على التوراة فكيف إذا جاء قبلها قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ ﴾ وبهذا يتبيّن ضعف تفسير الكتاب باللوح المحفوظ . ويكون ابتداء الوعد من عهد موسى (عليه السلام) .

ونلاحظ في التوراة الموجودة أثراً لهذا الوعد ، ولكن نلاحظ أكثر منه عقدة العقوبة الإلٰهية ، فبدل أن يستفيدوا من التهديد الإلٰهي بالعقوبة حولوه إلى عقدة في شخصيتهم وثقافتهم ، سواء في تفسيرهم لسبب العقوبة أو في التصرّف تجاه العقوبة . وهذا هو السبب في أن ذعرهم وخوفهم الذي نشاهده يختلف عن خوف الغربيين ، لأنّه ممزوج بهذه العقدة التاريخية « عقدة انتظار العقاب الإلٰهي » .

﴿ لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتينِ ﴾ : « والإفساد خروج الشيء عن

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٩ .

الاعتدال ، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ، ويضاده الصلاح ، ويستعمل ذلك في النفس والبدن ، والأشياء الخارجة عن الاستقامة » ـ المفردات للراغب الاصفهاني ، ولكن القرآن الكريم لم يستعمل الفساد والإفساد إلاَّ بالمعنى الاجتماعي السياسي ، وجعل منه مصطلح (الإفساد في الأرض) فاستعمله ثماني وعشرين مرة في أنواع متعددة من الفساد والإفساد ، منها ما هو على نطاق واسع كإفساد الملوك والحكام ، ومنها ما هو على نطاق ضيق كنقص المكيال والميزان ، وإساءة إدارة اليتامى ، والسرقة ، والسحر .

ومنها ما هو عمل من نوع التعديّ على الناس وظلمهم وصدّهم عن سبيل الله ٨٦ ـ الأعراف و٨٨ النحل .

ومنها التكذيب بآيات الله تعالى ٤٠ ـ يونس و١٠٣ ـ الأعراف .

ومنها تنازل المسلمين عن الموقف السياسي الواحد تجاه الكفار ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعض ، إِلَّا تفعَلوُه تَكُنْ فِتنَةٌ في الأرضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ ﴾[1] . فكلّ هذه الأنواع من الفساد والإفساد توجب خروج المجتمع عن الاعتدال والاستقامة بمفهوم القرآن لهما .

وعلى هذا فإن العديد من مواد (الإفساد في الأرض) الواردة في القرآن تنطبق على اليهود في زمن موسى (عليه السلام) وبعده ، ولكن المهم هنا تحديد المرتين الموعودتين ، فلا بدَّ من شيء يصلح لتقسيم تاريخ اليهود إلى مرحلتين ، مرحلة الإفساد الأول ومرحلة الإفساد الثاني ، ولا بدَّ أن يكون هذا الشيء حدثاً قام به اليهود أو أثر على حياتهم ؟

وقد حاول بعض المفسرين أن يجدوا هذا الحدث من فعل

---

(١) سورة الأنفال : ٧٣ .

اليهود أنفسهم ، ولكنهم عجزوا عن تقسيم جرائمهم إلى مرحلتين متميزتين لكثرتها واستمرارها ! سواء منها قتل الأنبياء أو الرجوع إلى عبادة الأصنام أو ظلم بعضهم لبعض . . الخ . ولذلك اتّجه أكثر المفسّرين إلى البحث عن هذا الحدث من فعل غيرهم ، واعتمد الرأي السائد عندهم على تحديد الإفسادين بتحديد العقوبتين الموعودتين عليهما . . وهو اتّجاه صحيح بقطع النظر عن النتيجة التي وصلوا إليها ، فإن تقسيم حياة اليهود المعقدة المليئة بالإفساد إلى مرحلتين أمر غير ممكن .

﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ : تقدّم أن العلو هو الاستكبار والسيطرة على الآخرين ، وقد تحدّث القرآن الكريم عن العديد من الطغاة ووصفهم بصفات عديدة ولكنّه لم يصف أحداً بالعلو سوى فرعون وملئه وبني إسرائيل في هذا الوعد ! قال تعالى : ﴿ إلى فِرعَوْن ومَلَئِهِ فاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِين ﴾[1] ، ﴿ وَجَحَدُوا بِها واسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوّاً ﴾[2] . ووصف فرعون في عدة آيات أخرى بالعلو ولكن لم يصف علوه وعلو قومه بأنّه كبير بينما وصف علو بني إسرائيل الموعود بأنّه كبير ! وهذا الوصف لا ينطبق على شيء من تاريخ بني إسرائيل إلاّ في عصرنا الحاضر،حيث بلغ فراعنة المال والسياسة اليهود من السيطرة والعلو على المسلمين وشعوب العالم ما لم يبلغه فرعون مصر وملأه .

وممّا يلاحظ على المفسّرين أنّهم عمّموا الوعد بالإفساد مرتين إلى الوعد بالعلو تأثراً بعطفه على الإفساد ، مع أنّه لا مبرر له ، لأنّه مثل قولك لشخص : سوف تسافر مرتين ، وتربح ثروة كبيرة ، أو

---

(١) سورة المؤمنون : ٤٦ .

(٢) سورة النمل : ١٤ .

قولك : سوف تشعل الفتنة في هذا البلد مرتين ، ثم تسيطر عليه سيطرة قوية . فكما أن وصف المرتين مخصوص بإشعال الفتنة ولا يشمل التسلط ، فكذلك هو مخصوص بالإفساد في الأرض ولا يشمل العلو الكبير ، بل يبقى العلو على ظهوره في عدم التعدد .

وتدلّ الآيات الشريفة على أن هذا العلو الموعود يكون مقارناً للإفساد الثاني أو على أثره ، بدليل أن تتبيره ورد في وصف العقوبة الثانية ولم يرد في وصف العقوبة الأولى ، كما سوف يتّضح .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُما بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ :

يذكر المفسرون أنّه لا توجد في الآيات دلالة تحدد هؤلاء القوم الذين وعد الله بتسليطهم على اليهود ، وأن الصفات المذكورة في الآيات لا تدلّ على تعيينهم ولا حتى على أنهم أمة واحدة في العقوبة الأولى والثانية .

وبما أن هذه الصفات التسع المنصوص عليها في الآيات متداخلة مع صفات الإفسادين وصفات العقوبتين ، فسننظر فيها حسب تسلسل الآيات .

« بعثنا عليكم » : تستعمل مادة بعث في القرآن الكريم في بعث الله للمؤمنين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً ﴾[1] . وقال : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِمْ إِلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾[2] ، وقد بعث عليهم فيمن بعث الوثنيين ، وقال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ في الأَرْضِ ﴾[3] . ولهذا حكم المفسّرون بأن

---

(١) سورة الجمعة : ٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦٧ .

(٣) سورة المائدة : ٣١ .

قوله تعالى : « بعثنا عليكم » لا يدلّ على أنَّ المبعوثين مؤمنون ليكونوا هم المسلمين . ولكن بنظرة أعمق في استعمال القرآن لمادة « بعث » ومشتقّاتها نجد أولاً أنها لم تستعمل في القرآن إلاَّ في بعث الآخرة وما يشابهه وبعث الأنبياء وما يشابهه ، ولا نطيل في ذلك . ونلاحظ ثانياً أن الماضي المجرد (بعث) استعمل سبع مرات ، خمس منها للأنبياء (عليهم السلام) وواحدة لبعث طالوت وواحدة لبعث الغراب . وأن الماضي المتصل بضمير المتكلّم (بعثنا) استعمل أيضاً سبع مرات ، خمس منها للأنبياء (عليهم السلام) وواحدة لنقباء بني إسرائيل ﴿ وَبَعَثْنا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾[1] وواحدة لمعاقبة بني إسرائيل ﴿ بعثنا عليهم ﴾ .

فهل يصح أن نلاحظ استعمال مجموع مشتقات (بعث) ونحكم بعمومها للمؤمنين وغيرهم ، ولا نلاحظ أن استعمالها مضافة إلى ضمير الجلالة مختص بالأنبياء والمؤمنين ؟ فقد يكون استعمال مجموع المادة في القرآن عاماً واستعمال صيغة أو صيغ منها خاصاً . . ممّا يشكّل على الأقل قرينة ضعيفة على إيمان المبعوثين تضمّ إلى غيرها .

﴿ عباداً لنا ﴾ : وما تقدّم في (بعثنا) يرد هنا أيضاً ، إذ لا يكفي أن يكون استعمال كلمة (عبد) في القرآن عاماً للمسلمين وغيرهم ، بل لا بدَّ من ملاحظة عبد وعباد المضافة إلى ضمير المتكلّم حيث نجد أن كلمة (عبدنا) استعملت في القرآن خمس مرات للأنبياء (عليهم السلام) فقط . وكلمة (عبده) استعملت سبع مرات للأنبياء (عليهم السلام) فقط . وكلمة (عبادنا) استعملت اثنتي عشرة مرة للأنبياء (عليهم السلام) والمؤمنين فقط ! وأن صيغة (عباداً لنا) لم

---

(١) سورة المائدة : ١٢ .

تستعمل إلاَّ في هذا الوعد ! فاختصاص الصيغ المشابهة بالأنبياء والمؤمنين ، وزيادة هذه الصيغة بلام الإضافة والنسبة إلى الله تعالى (لنا) يشكل دليلاً أو قرينة قويّة على أن المبعوثين من المؤمنين ومن نوعية خاصة منهم .

وممّا يقوي هذه القرينة ـ ويعطي القرينة المتقدمة شيئاً من القوة أيضاً ـ أنَّ الله تعالى استعمل مادة البعث في الوعدين لبني إسرائيل ، ولكن جعل الصيغة في وعد التسليط عليهم ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذابِ ﴾ وعبّر عن المبعوثين بـ « من » وقد عرفنا أن هؤلاء المبعوثين هم الوثنيون والمجوس والنصارى والمسلمون . بينما جعل الصيغة هنا « بعثنا » وهي صيغة استعملها للأنبياء والأوصياء فقط . وعبّر عن المبعوثين بـ « عباداً لنا » وهو تعبير فريد لم يستعمل ما يشبهه في الإضافة إليه تعالى إلاَّ في الأنبياء والمؤمنين . نعم ورد استعمال (عبادي) لغير المؤمنين أيضاً ولكنَّه استعمال يجيء دائماً في مقابل دعوى العبودية لغيره تعالى .

﴿ أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ : أي أولي مكروه شديد ينزلونه بالعدو ، فالبأس والبأساء بمعنى المكروه والشدة ، ويستعملان في النكاية بالعدو كما في مفردات الراغب الأصفهاني . بينما (أولو قوة) تعني أولي وسائل حربية وجنود . فالقوة في مجال الحرب تعني المعاون من خارج نفسك كما ذكر الأصفهاني أيضاً . ولذلك وردا في القرآن معطوفين في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَحنُ أُولو قُوَّةٍ وأُولو بأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[1] أي : نحن أولو سلاح وجنود وأولو مكروه ننزله بالأعداء .

إن وصف الله تعالى لهؤلاء المبعوثين على اليهود بأولي بأس

---

(١) سورة النمل : ٣٣ .

شديد دون أولي قوة له بعدان ، الأول : أن الغرض الأساسي في وعد اليهود بالعقوبة هو بيان أن هؤلاء المبعوثين سينزلون المكروه الشديد بهم ، وهو يتناسب مع ذكر البأس . والثاني : أن عدم ذكر (قوة) هؤلاء المبعوثين التي تعني وسائل حربهم وكثرة جنودهم أمر مقصود لأنهم قد لا يملكون هذه الكثرة ولا يكونون أولي قوة كثيرة ومع ذلك فهم أولو بأس شديد . وهذا هو حال المسلمين عندما قضوا على إفساد اليهود الأول في صدر الإسلام ، وهو حالهم ـ على ما يبدو ـ عندما سيقضون عليهم ويتبرون علوهم الكبير بإذن الله .

﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ ﴾ : استعمل القرآن وللمرة الوحيدة هذا التعبير الذي هو في اللغة العربية كالمصطلح العسكري لدخول المقاتلين وهم يتتبعون بقايا مقاتلي العدو . أي سيترددون بين بيوتكم لتتبع بقايا مقاتليكم . وهو أدق تعبير عن القضاء على القوة القتالية لليهود . وهو بالضبط ما فعله المسلمون عندما بعثهم الله على اليهود في صدر الإسلام ، فلم تقم لليهود بعدها أي قوة عسكرية خلال ثلاثة عشر قرناً حتى بدأوا بعلوهم الكبير .

﴿ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ﴾ : لم يستعمل القرآن الكريم هذا التعبير إلاَّ في هذا الموضع ! واستعمل تعبيرين قريبين منه أولهما : في نفس سورة الإسراء وبعد قوله لبني إسرائيل : ﴿ فَإِذا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤمِنوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يتلَى عَلَيهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبحَانَ رَبِّنا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمفْعُولاً ﴾[1] . وثانيهما في خطابه تعالى لمشركي قريش بعد تشبيههم بفرعون وذكر ما حلّ به ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُم

(١) سورة الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

يَوْماً يَجعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾[1] .

أمَّا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمفْعُولاً ﴾ فهو حكاية لقول العلماء في حقّ القرآن . فيبقى استعمالان من قبل الله تعالى لـ « الوعد المفعول » أحدهما إنذار لفراعنة قريش بوعد اليوم الآخر الذي لا يطاق ! والثاني إنذار لفراعنة اليهود بيوم المسلمين الذي لا يطاق ! وتفصيل الكلام في ذلك يخرجنا عن غرضنا .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الكَرَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ : أي : أعدنا لكم الغلبة عليهم . وهو تعبير كاف للحكم بوحدة القوم الذين يتحدّث الله تعالى عنهم في المرتين ،فلو لم يكونوا هم نفس « عباداً لنا » المذكورين في الآية السابقة لقال : ثمَّ رددنا لكم الكرَّة وأمددناكم بأموال وبنين ، بدون كلمة « عليهم » ، ويدلّ عليه أيضاً ضمائر فاعل العقوبة الثانية في « ليسوءوا ، وليدخلوا ، وليتبّروا » التي تعود إلى « عباداً لنا » . ويدلّ عليه قوله تعالى : « كما دخلوه أوّل مرة » الذي ينصّ على وحدة الداخلين إلى المسجد في المرتين . ويدلّ عليه دليل آخر غير لفظي هو أن الغلبة لم تُرَدَّ لليهود على أحد ممّن سيطر عليهم طوال تاريخهم ما عدا المسلمين ، فإذا لم نقل بوحدة القوم المبعوثين لم يصح القول بوقوع العقوبة الأولى فضلاً عن الثانية .

قد يقال : إن المتعارف في ردّ الغلبة لقوم على قوم أن يكون بينهم قتال . فمتى حدثت بين المسلمين واليهود معركة تحقق بها ردّ الغلبة لليهود ؟ الجواب : إن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الكَرَّةَ عَلَيهِمْ ﴾ يدلّ على عودة الغلبة لليهود على المسلمين ولا يحصر طريق ذلك بالمعركة ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ، فقد تحققت الغلبة

---

(١) سورة المزمل : ١٧ ـ ١٨ .

لهم على المسلمين في مطلع هذا القرن بتحالفهم مع أعداء المسلمين المستعمرين ، ثمَّ تأكدت من بعد في معاركهم مع المسلمين في فلسطين والمنطقة .

﴿ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفيراً ﴾ : وقد فسّر عزَّ وجلَّ هذا الإمداد في نفس السورة بأنَّه سنة إلهية تشمل المؤمنين والكفار ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾[1] . وقال تعالى عن هذا الإمداد لأعدائه : ﴿ أَيَحسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[2] .

وتبين الآية مقومات إفساد اليهود وعلوهم وهي :

أولاً : الأموال ، بصيغة الجمع التي يصبح معناها العرفي أوسع من (مال) ودلالتها على الممتلكات غير النقدية أوضح .

ثانياً : البنين ، أي العدد الذي يكفي لإدارة هذا المال والسعي للإفساد به والعلو في الأرض . وهذا هو حال الجاليات والشبكات اليهودية المنتشرة في العالم الغربي والعالم .

وثالثاً : النفير ، وهم الأنصار الذين يحرّكهم لوبي بني إسرائيل كلمَّا لزم الأمر لمساعدتهم ونصرتهم . وأكثر ما يحرّكون نفيرهم بواسطة أصدقائهم مجموعة الفراعنة المتحكّمين في ثروات الغرب وحكوماته ، ثمَّ بواسطة شبكاتهم الإعلامية وشبكاتهم الإفسادية .

وقد ذكرنا في مناقشة رأي المفسرين أن قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفيراً ﴾ : يدلّ على أن المبعوثين عليهم في المرتين هم المسلمون لأن اليهود لم يمر عليهم وقت طول تاريخهم تحققت لهم

---

(١) سورة الإسراء : ٢٠ .

(٢) سورة المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦ .

الغلبة وصاروا أكثر أنصاراً على أي قوم ممّن سيطر عليهم من الآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان ، وحتى على الأقوام المحيطة بهم كالآراميين والفلسطينيين والعموريين . . إلاّ على المسلمين في عصرنا .

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لِأَنْفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ : لهذه الفقرة الاعتراضية التي لم ترد في موضوع آخر من القرآن عدة دلالات : فهي من جهة تعبر عن العدل الإلٰهي والرحمة في إبقاء الباب مفتوحاً للتوبة أمام اليهود بعد إمدادهم بالأموال والبنين والأنصار ، وأنهم سوف لا يستفيدون من هذه الفرصة الأخيرة وسيواصلون إفسادهم في الأرض . ومن جهة أخرى تدلّ على وجود فترة إمهال في الفساد والعلو قبل مجيء العقوبة الثانية ، حيث جاءت فاصلاً مقصوداً قصداً بعد ذكر عودة غلبتهم على المسلمين وإمدادهم بأموال وبنين ، وقبل الدخول في حديث العقوبة الثانية ، حتى ليشعر القارىء أول الأمر بالرغبة في طي هذه الجملة الاعتراضية ، ولكنّها من عجائب التعبير القرآني ، وكله عجيب !

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ :مقتضى المقابلة مع قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أن يقول : فإذا جاء وعد أخراهما ، أو وعد الثانية ، ولكنّه اختار لفظ الآخرة مع أنّها مصطلح قرآني عزيز استعمل بمعنى الحياة الآخرة في مئة واثني عشر موضعاً ولم يرد بمعنى آخر إلاّ في عقوبة بني إسرائيل ، وفي الملة الآخرة حكاية عن قول الكفّار ﴿ مَا سَمِعْنا بِهذَا في المِلَّة الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ [1] .

ويبدو أن سبب اختيار كلمة الآخرة هو أولاً : الإيحاء بأن العقوبة

---

(١) سورة ص : ٧ .

الثانية تشبه آخرة بني إسرائيل وقيامتهم بما يقع عليهم فيها من بأس وعذاب بما كسبت أيديهم . وثانياً : الإيحاء بأن هذه المرة من الإفساد هي الأخيرة التي لا يكون من بعدها إفساد منهم ، وسيتّضح ذلك في معنى قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا ﴾ .

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا المسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ عندما نقارن وصف العقوبة الثانية بوصف العقوبة الأولى في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ . . . فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ ﴾ نلاحظ بينهما عدة فروق ، منها :

أن جواب الشرط في الأولى مقرون بالفاء : فجاسوا . وفي الثانية مربوط بلام التعليل : ليسوءوا ، وليدخلوا ، وليتبّروا . وهذه الصيغة وإن كانت صحيحة نحوياً لأن فعلي الشرط يمكن أن يكونا ماضيين أو مضارعين أو مختلفين ، والجواب منهما يمكن أن يكون مربوطاً بالفاء أو باللام . . الخ . ولكنّها صيغة قليلة الاستعمال في اللغة العربية فهي مختارة بعناية لوصف هذه العقوبة ، وهي تشبه قولك لعدو : « إذا جاءت سنة كذا سلط الله عليك شخصاً فحطم قوتك ، ثم تعود لك الغلبة عليه ، فإذا جاءت سنة كذا لكي ترى منه ما تكره ، ولكي يدخل منزلك كما فعل أول مرة ، ولكي يهدم ما بنيت » .

ومنها : أن جواب الشرط في الأولى فعل ماض . وفي الثانية مضارع .

ومنها : أن جواب الشرط في الأولى فعل واحد هو آخر مرحلة في القضاء على إفساد اليهود . وجواب الشرط في الثانية ثلاثة أفعال تبدأ بسوء وجوههم وتنتهي بالقضاء على علّوهم ويتوسطها الدخول إلى المسجد .

ومنها : أنه لم يذكر دخولهم إلى المسجد في المرة الأولى ولكنه أشار إليه في دخولهم في الثانية .

ومنها : أنه تعالى عقّب على وصف العقوبة الأولى بقوله : « وكان وعداً مفعولاً » وعلى الثانية بقوله : « عسى ربّكم أن يرحمكم . . . » .

فما هو الفرق بين الفاء واللام ؟ والفعل الواحد والأفعال الثلاثة . . الخ ؟

في المرة الأولى لم يطل زمن الصراع الإسلامي اليهودي وأنجز المسلمون بسرعة نسبية هدفهم في القضاء على القوة القتالية لليهود فجاسوا خلال ديارهم . . وهذه العملية يناسبها الفاء التي تدلّ على الاتّصال الزمني . ويناسبها الفعل الواحد .

كما أن من غير المناسب ذكر السببية بين مجيء وعد العقوبة الأولى والجوس خلال الديار ، بأن يقول مثلاً : بعثنا عليكم عباداً لنا ليجوسوا خلال الديار ، أو لنبعث عليكم عباداً لنا فيجوسوا خلال الديار . . لأنها علاقة غير بارزة كما هو الحال في المرة الثانية ، فوعد الأولى مقترن بفجر الإسلام وبعثة النبي (ص) وذكر العلاقة السببية يكاد يحصر هدف الإسلام بالقضاء على فساد بني إسرائيل مع أنّه كان هدفاً ضمنيّاً على قدر تأثيرهم السلبي غير الكليّ على مسيرة الإسلام .

أمّا مجيء وعد العقوبة الآخرة فهو يقترن مع نهضة المسلمين مجدداً لإعادة الإسلام وبسطه على العالم ، وهدف القضاء على بني إسرائيل وعلوهم يكون الهدف الأهم للمسلمين لأن اليهود يشكّلون عائقاً شبه كليّ أمامهم . . وهذا يناسبه ذكر العلاقة السببية ومجيء الجواب منصوباً بعد لام التعليل : ليسوءوا ، وليدخلوا ، وليتبروا .

كما أن العقوبة الأولى تتلخص بفعل واحد جاسوا خلال الديار ، وبإشارة آتية إلى دخول المسجد الذي حصل لاحقاً بعد الانتصار على الروم ولم تكن له علاقة مباشرة بالقضاء على اليهود .

أما العقوبة الثانية فتحتاج إلى ثلاثة أضعاف الأولى من الأفعال ، ودخول المسجد يكون فعلاً من أفعالها وهدفاً بحد ذاته .

والفرق الأهم هو بين نوعية فعل الأولى « فجاسوا خلال الديار » الذي يوحي بسرعة هزيمة اليهود وسهولة القضاء عليهم . وبين أفعال الثانية « ليسوءوا ، وليدخلوا ، وليتبروا » التي توحي بضراوة المقاومة وترسم للمواجهة صورة عنيفة لا يهدئها دخول المسجد في وسطها بل يأخذ منها عنف التحدّي وفرحة الانتصار .

« ليسوءوا وجوهكم » أي : لينزلوا السوء في وجوهكم . تقول : ساء فلان فلاناً ، أي أنزل به مكروهاً يسوؤه . وأشد منه قولك : وقعت لفلان حادثة فساءت صباحه . قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾[1] . وأشد منهما قولك : المسلمون ساؤوا وجوه اليهود . أي أوقعوا فيه مكروهاً شديداً بحيث ظهر على وجوههم . . ولم يستعمل هذا التعبير في القرآن في غير هذا الموضع إلاّ مرة واحدة في رؤية الكفّار ليوم المحشر ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[2] ، ممّا يدلّ على الشبه بين سوء وجوه الكفّار في يوم الحشر وسوء وجوه اليهود في يوم حشرهم .

ولا ينطبق هذا التعبير القرآني على مقاومة أحد لليهود كما ينطبق على عمليات مقاومة المسلمين في جنوب لبنان ، حيث بدأ أبناء

---

(١) سورة الصافات : ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٢) سورة الملك : ٢٧ .

المسلمين يسوءون وجوه اليهود حقاً ، ويرسمون عليها ذعراً كذعرهم يوم المحشر . .

وممّا يكمل الصورة أن اليهود في القرآن يختلفون عن غيرهم من الناس بأن لهم حشراً في الدنيا، وقد سمى الله تعالى به سورة من القرآن « سورة الحشر » التي لم يرد فيها ذكر حشر الآخرة أبداً ، بل تركّزت على حشر اليهود الذي بدأه تعالى بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ . . مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولي الأَبْصَارِ ﴾[1] .

وإذا كان القضاء على قوتهم القتالية في صدر الإسلام هو أول حشرهم في الدنيا . . فإن وعد العقوبة الآخرة هو كل حشرهم . وقد رسم تعالى صورة حشرهم إلى معركة فلسطين بقوله في نفس سورة الإسراء : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ـ أي من بعد فرعون ـ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ . . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾[2] ، فبقرينة وعد الآخرة في مطلع السورة يتضح أن وعد الآخرة في هذه الآية هو وعد العقوبة الآخرة وليس وعد القيامة كما تصوّر بعض المفسرين .

ومعنى ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ أي زرافات ووحداناً يلتف بعضكم إلى بعض وتجتمعون في مكان واحد . وأمّا تفسير بعضهم لقوله تعالى (لفيفاً) بلفيف النسب في مقابل صريح النسب والاستدلال به على أن اليهود أصبحوا من عروق مختلفة ، فهو تفسير مقبول على أن يكون ذلك المعنى الثاني الذي توحي به اللفظة ولا نرفع اليد عن معناها

---

(١) سورة الحشر : ٢ .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٤ .

الأول الظاهر ، وهو الجماعة أو الشيء الذي يلتف بعضه إلى بعض . ويكون ذلك من قبيل قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَونُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ﴾[1] ، فإن عدواً توحي بالركض ولكن يبقى معناها الأصلي العدوان .

﴿ وَلِيَدْخُلُوا المسْجِدَ ﴾: تكرار اللام في الأفعال الثلاثة تأكيد للعلاقة السببية بين وعد الآخرة وهذه الأفعال حتى كأن كل فعل منها مسبب وناتج بحد ذاته ، وكأن معركتنا مع بني إسرائيل ستكون على ثلاث مراحل : مرحلة إنزال الهزيمة العسكرية بهم (ليسوءوا وجوهكم) ومرحلة تحرير المقدسات والأرض (وليدخلوا المسجد) ومرحلة القضاء على العلو الإسرائيلي (وليتبروا ما علوا) .

وهذا الشبه الذي تنصّ عليه الآية في تحرير المسجد الأقصى الشريف في المرتين (كما دخلوه أول مرة) هل هو شبه فقط في الغلبة والنتيجة ، أم يمتدّ أكثر من ذلك إلى خطوط المعركة الأساسية فيكون حشر اليهود خارج فلسطين كما كان أول حشرهم خارج حصونهم ؟ ويكون لانتصار المسلمين عليهم وقع مخيف على الغربيين فيطلبون عقد هدنة ويجيبهم قائد المسلمين إلى ذلك ، ويعقد معهم الهدنة التي وردت فيها أحاديث عن النبي (ص) وأنّها تكون آخر هدنة بين المسلمين والنصارى ـ الروم ـ وأن مدتها تكون لسبع سنين ولكنهم ينقضونها قبل ذلك .

علم ذلك عند الله تعالى ولكن وصف العقوبة الثانية وآيات الحشر غنية بالأبعاد وقد لا نعرف الكثير منها حتى يأتي تأويلها .

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾:يستفاد من شرح القاموس للزبيدي

---

(١) سورة يونس : ٩٠ .

وغيره أن معنى تبّر الشيء : كسّره وأهلكه فهو متبّر ، ولذلك سمي الشيء المكسر جيداً تبراً ، ومنه تِبْر الذهب وتبر الفضة وتبر الحديد ، أي جزئياته الدقيقة أو المسحوقة .

والفرق بين التدمير والتتبير أن التدمير إدخال الهلاك على الشيء ولو بوسائط غير مباشرة تؤدّي إلى هلاكه . أمّا التتبير فهو فعل الهلاك بأسلوب التكسير ، فيكون المعنى أنهم سوف يكسرون علو اليهود تكسيراً . . فهذه الضربة إذن موجهة إلى علو اليهود بالذات لتسحقه وتنهي أنواع سيطرتهم وإفسادهم في العالم .

وقد يتصور البعص أن معنى (ما علوا) ما بنوه عالياً مثل مباني دويلتهم في فلسطين ، ومؤسساتهم وبناياتهم العالية في أنحاء العالم . . ولكن إنهاء علوهم من هذه المباني وإن كان مشمولاً لقوله تعالى : (وليتبروا ما علوا) غير أن التتبير موجّه في الآية إلى العلو وليس إلى المباني التي يقال فيها ما أعلوا ، ولا يقال فيها ما علوا . . تقول تبّرت ما أعلى فلان أي الشيء الذي رفعه ، فإذا قلت تبرت ما علا فلان ، فالمعنى كسرت علوه واستكباره .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرحَمَكُمْ ﴾:يمكن القول إن الآية تدلّ على سعة رحمته تعالى فهي تفتح الباب مجدداً لليهود بعد القضاء على علوهم وسيطرة المسلمين عليهم لأن يتوبوا من إفسادهم وكفرهم ويصبحوا أهلاً للرحمة الإلٰهية . . ولكن الآية تدلّ زيادة على ذلك على أن هذه الرحمة سوف ينالها قسم منهم ، فكلمة (عسى) وإن كانت تعني مجرد الرجاء ولكن الرجاء في استعمال القرآن عندما يكون صادراً من الله تعالى وفعل الأمر المرجو مرتبطاً به عزَّ وجلَّ فهو بحكم المتحقق ، ولذلك يذكر النحويون أن الترجّي من الله تعالى بحكم المؤكد

الوقوع . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾[1] وهو أمر مؤكد . وقال تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد فعل . وقال عزَّ وجلَّ لبني إسرائيل على لسان موسى (عليه السلام) : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقد فعل .

ويؤيد ذلك الأحاديث الواردة في أن المهدي (عليه السلام) « يستخرج تابوت السكينة من غار بأنطاكية وأسفار التوراة من جبل بالشام ـ وفي رواية بفلسطين ـ فيحاجّ به اليهود فيسلم كثير منهم » منتخب الأثر ص ٣٠٩ نقلاً عن إسعاف الراغبين ص ١٣٨ ، وفي رواية ابن حمّاد في كتابه الفتن والملاحم ص ١٠٠ ـ مخطوطة أن اليهود إذا نظروا إلى تابوت السكينة أسلموا إلاَّ قليلاً منهم .

﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ :أي إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى العقوبة ، ولكن هل يدلّ ذلك على أن اليهود سوف يعودون مرة أخرى إلى الإفساد والعلو في الأرض بعد تحطيم قوتهم وتتبير علوهم ؟ أم أن مثل هذا التعبير الشرطي يشعر بأنهم سوف لا يعودون ؟ .

إن مجرد صيغة الشرط في اللغة العربية لا تدلّ على أن فعلها سوف يقع أو لا يقع . ولكن صدور صيغة الشرط عن الله تعالى في مثل هذا الأمر السياسي والاجتماعي يدلّ ـ على الأقل ـ على وجود أرضية لوقوع الفعل ، وإلاَّ لما حذّر منه عزَّ وجلَّ . وبهذا فلا يصح استفادة عدم وقوع الشرط أو استبعاد وقوعه كما تصوّر البعض ، فقد

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف : ١٢٩ .

قال تعالى لمشركي قريش على أثر معركة بدر : ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقد عادوا إلى مواجهة المسلمين .

نعم توجد في الآيات قرينة تدلّ على أن عودة اليهود إلى الإفساد إن وقعت فلن تكون بمستوى الإفسادين في المرتين بل تكون إفساداً محدوداً . والقرينة هي أن ظاهر الوعد الإلٰهي ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ أنه يستوعب كل مستقبلهم الإفسادي أو معظمه على الأقل . ولو كان لهم إفساد آخر بمستوى الإفسادين في المرتين لجاء الوعد من أول الأمر بأكثر من مرتين . كما أن هذا الإفساد المحتمل سوف لا يرافقه علو كما رافق المرة الثانية ، لأن العلو يتوقّف على مستوى من الإفساد لا يقلّ عن الإفسادين الماضيين .

ويقوّي هذه القرينة افتتاح الآية بقوله تعالى : (عسى ربكم أن يرحمكم) .

ويقوي عودتهم إلى الإفساد المحدود ما ورد من أن أكثر أتباع الدجال الذي يقاتله المهدي وعيسى (عليهما السلام) يكونون من اليهود . بل إن مقتضى شمول الوعد الأول (ليبعثنّ عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة) أن يستمرّ اليهود في الإفساد حسب قدرتهم واستطاعتهم إلى يوم القيامة ولو خرج من صفوفهم كثيرون وأصبحوا مسلمين .

أما نوع العقوبة التي وعدهم الله بها بقوله (وإن عدتم عدنا) فيفهم أنها من نوع العقوبتين وعلى يد (عباداً لنا) .

---

(١) سورة الأنفال : ١٩ .

كما يفهم من قوله تعالى (وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً) أي حبساً ومنعاً من الحركة ، أن هذا العذاب في جهنّم استكمال للعقوبة الموعودة إذا هم عادوا إلى الإفساد ، ممّا يوحي بأن جزاءهم في الدنيا سيكون القتل وفي الآخرة الحبس والحصر في جهنم . ولم توصف جهنّم بأنّها حصير لأحد غير اليهود ، وفي هذا الموضع فقط . وكأن اليهود الذين يعودون إلى الإفساد بعد هذه العقوبات يكونون قد أشربوا حبّ الإفساد في الأرض إلى حدّ أن قدرتهم على الحركة تعني قدرتهم على الإفساد ، فيجيء العقاب منسجماً مع نوع الجريمة قتلاً في الدنيا لإنهاء تحركهم وحبساً حصيراً في الآخرة جزاء لتحرّكهم المفسد .

*

وفي الختام ينبغي أن نشير إلى أن هذا الوعد الإلٰهي لبني إسرائيل قد نزل في القرآن الكريم وأبلغه الله تعالى إلى المسلمين والعالم بعد حادثة الإسراء ، وفي سورة الإسراء التي ربط عزّ وجلّ فيها ربطاً محكماً بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وبين نبيّه محمد (ص) وأنبيائه إبراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وموسى وعيسى (عليهم السلام) ، وألفت المسلمين إلى مهمتهم في القضاء على إفساد بني إسرائيل . . كل ذلك بسياق موحد مترابط وأسلوب معجز يسمعه الذين يعرفون قدراً من أسرار اللغة العربية ، فيخرون للأذقان سجّداً ويزيدهم خشوعاً . وحتى هذه النقلة المفاجئة من حديث الإسراء المنساب إلى الحديث عن التوراة وموسى وبني إسرائيل . . . هي نقلة مقصودة ، فحادث الإسراء في الوقت الذي يؤكد أولوية النبي (ص) والمؤمنين بالأنبياء (عليهم السلام) يصطدم باليهود . ومسيرة عباد الله المسلمين يعترضها اليهود بإفسادهم ثم بعلوّهم ، ولكن القرآن يهديهم للتي هي أقوم ويبشّرهم .

ومن طريف ما ترى لدى بعض المفسرين أنهم يعتبرون آيات الوعد استطراداً عن السياق ويبحثون عن مناسبة لربط هذه الآيات (الغريبة) بموضوع الإسراء ، كعادتهم عندما لا يصلون إلى الربط البليغ العميق بين الآيات الموحدة السياق ؛ فيعتبرونها استطراداً ويربطونها بشيء ما ، وكأنهم يغفلون عن أن المتكلّم في القرآن هو الله تعالى ، وأن حروف هذا القرآن وكلماته وآياته وسوره مبنيّة بدقة كبناء النجوم في مواقعها ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

وأن نشير إلى تفسيري الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) للمبعوثين على اليهود بأنهم أهل قم وأنصار المهدي (عليه السلام) هو تفسير واحد بملاحظة ما يأتي من وصف أهل قم بذلك . . وأن ما وصلنا إليه يتّفق كلياً مع هذا التفسير .

وأمّا محاولة الاستدلال بالروايتين على أن العقوبتين لم تقعا لأنه جاء تفسيراً لـ (بعثنا عليكم عباداً لنا) الذي هو وصف لأهل العقوبة الأولى ، فجوابه مضافاً إلى ما تقدّم أنه لا يعلم أن كلامهما (عليهما السلام) كان تعليقاً على خصوص العقوبة الأولى ، فقد يكون تعليقاً على مجموع الآيات،ولكن الراوي ذكر أولها ولم يكملها اعتماداً على أنها معلومة . إن مجرد احتمال ذلك يوجب عدم صحة الاستدلال المذكور .

*

حول الأحاديث رقم (٧ و٨ و٩) في أهل قم

« فَإِذَا انْقَضَىٰ مُلْكُ بَنِي فلانٍ ، أَتَاحَ اللَّهُ لِآلِ مُحَمَّدٍ بِرَجُلٍ مِنَّا أَهْلَ

(١) سورة الواقعة : ٧٥ ـ ٧٧ .

البَيْتِ ، يَسِيرُ بِالتُّقَى وَيَعْمَلُ بِالْهُدَى ، وَلا يَأْخُذُ فِي حُكْمِهِ الرُّشَى ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ . . ثُمَّ يَأْتِينَا ذُو الخَالِ وَالشَّامَتَيْنِ العَادِلُ ، الحَافِظُ لِما اسْتُودِعَ ، فَيَمْلأُهَا قِسْطاً وَعَدْلاً » .

« رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ قُمْ يَدْعُو النَّاسَ إِلىٰ الْحَقِّ ، يَجْتَمِعُ مَعَهُ قَوْمٌ قُلُوبُهُمْ كَزُبُرِ الْحَدِيدِ ، لاٰ تُزِلُّهُمُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ ، وَلاٰ يَمَلُّونَ مِنَ الْحَرْبِ وَلاٰ يَجْبُنُونَ ، وَعَلىٰ آللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ . . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

« وَسَيَأْتِي زَمَانٌ تَكُونُ بَلْدَةُ قُمٍّ وَأَهْلُهَا حُجَّةً عَلىٰ الْخَلاٰئِقِ وَذٰلِكَ فِي زَمَانِ غَيْبَةِ قَائِمِنَا . . الخ » .

«سَتَخْلُو كُوفَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَأْزِرُ عَنْهَا الْعِلْمُ كَمَا تَأْزِرُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا ، ثُمَّ يَظْهَرُ الْعِلْمُ بِبَلْدَةٍ يُقَالُ لَهَا قُمّ ، وَتَصِيرُ مَعْدِناً لِلْعِلْمِ وَالْفَضْلِ حَتَّى لاٰيَبْقىٰ مُسْتَضْعَفٌ فِي الدِّينِ حَتَّى الْمُخَدَّرَاتُ فِي الْحِجَالِ ، وَذٰلِكَ عِنْدَ قُرْبِ ظُهُورِ قَائِمِنَا . . الخ » .

قصة المدينة المقدسة

في وسط إيران وفي منتصف الطريق التاريخي الذي يربط العراق والجزيرة العربية ببلاد المشرق ، طريق البصرة ـ خراسان ، توجد فسحة مبسوطة من الأرض متكئة بجنوبها الشرقي إلى مجموعة من رواب وجبال ، ومنفتحة في شمالها الغربي على أرض ممتدة من الصحراء والربوات ، تلتقي في وسطها مجاري سيول تكون غزيرة في الشتاء والربيع ، جافة في الصيف . .

في أواخر شتاء سنة ٧٣ هجرية شهدت هذه الفسحة حدثاً . . فقد حطت فيها قافلة لجماعة من قبيلة يمانية واختاروها موطناً لإقامتهم ، بعد أن قطعوا أكثر من ألف وخمسمئة كيلومتر من الكوفة

عبر البصرة وشيراز وأصفهان ، وتركوا وراءهم مدناً هامة وأنهاراً كبرى وأراضي خصبة . . كأنّما كانوا بعملهم هذا ينفذون أمراً ! .

حطت قافلة الأشعريين في هذا المكان ، وكان يقودهم فقيه يتميّز بالحكمة وكثرة الصمت هو عبدالله بن سعد بن مالك الأشعري ، وقائد عسكري يتميز بالإقدام والبأس هو أخوه الأخوص ، ومعهما مجموعة من رجالهما ومعهم نساؤهم وأطفالهم . . نصبوا خيامهم وجعلوا واحدة منها مسجداً ، وباشروا بتهيئة الأرض للزراعة ، وبالتعرّف على أهل القرى القريبة منهم ؛ وكانت بضع قرى صغيرة لا زال أهلها يدينون بالمجوسيّة ويعملون في رعي الأغنام والزراعة .

لم يعترض أهل المنطقة على استيطان جيرانهم الجدد لأسباب عديدة . . فهم مجموعة فرسان من المسلمين العرب الحاكمين ، ومن رؤساء قبيلة كبيرة ، وجدّهم مالك بن عامر الأشعري مشهور يتداول اسمه الفرس ، فقد كان أول فارس من المسلمين عبر بفرسه نهر دجلة العريض في معركة فتح المدائن وهو يرتجز :

امضوا على البحر إن البحر مأمور ... والأول القاطع منكم مأجور
قد خاب كسرى وأبوه سابور ... ما تصنعون والحديث مأثور

وفي نفس الوقت لم يقم أهل المنطقة بالترحيب بهؤلاء القادمين ولم يقدموا لهم مساعدة ، بل تركوهم وشأنهم حتى كان يوم النوروز ، إذ رأى الأشعريون أن أهالي القرى أخذوا يتحصنون مع مواشيهم في قلاع خاصة ويجتهدون في سد منافذها ، فسألوهم عن سبب ذلك فأخبروهم أن قبائل الديلم يغيرون عليهم في مثل هذا الوقت من كل عام ، وأنهم سمعوا بقرب وصولهم ، وما هو إلاّ أن وصلت قوة الغزاة ، فبادرهم الأشعريون وخاضوا معهم معركة بطولية قتلوا فيها

عـدداً كبيراً منهم وأسـروا بعضهم ، وانهزم البـاقـون شـر هـزيمـة . . فكانت فرحة كبرى احتفل بها أهـل المنطقـة ،وقدّموا الشكـر والهدايـا لجيـرانهم الجدد ، وطلبـوا منهم أن يبقـوا بقـربهم ، وسـاعـدوهم في زراعة الأرض .

وفي فترة قصيرة تحولت مجموعة خيام الأشعريين إلى قرية مبنية بالأحجار والآجر ، ولم يمض نصف قرن حتى أصبحت مدينة عامرة ، أكثـر سكـانهـا من الأشعـريين ، وبقيتهم من الإيـرانيين والعـرب غيـر الأشعريين ، وعرفت باسم (قم) واشتهرت بالعلم ورواية الحـديث ، والتشيّع لأهل بيت النبي (ص) .

يقول الحموي في معجم البلدان : (قمّ ، بـالضم والتشديـد ، وهي كلمـة فارسيـة . . . وكان هنـاك سبع قـرى اسم إحداهـا كمندان فنـزل هؤلاء الأخوة ـ الأشعـريون ـ على هـذه القرى . . . . فـأسقـطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمّاً) .

ويبـدو أن هذا الـوجه الـذي ذكره الحمـوي هـو نفس مـا ذكـره حسن بن محمد الأشعري في كتابه (تـاريخ قم) الـذي ألّفه في سنـة ٣٧٨ هـ . وأهداه إلى الوزيـر الصاحب بن عبـاد ، وقد نقـل الأشعري هذا الرأي عن حمزة بن حسن صاحب تاريخ أصفهان ، ولكنه ذكـر أن اسم القرية كان كميدان .

والـظاهر أن كميـدان أو كمندان كـان اسمـاً للمحلّة أو لمجتمـع مجـرى الأنهـار الشتـائيـة ، لأنّـه لم يكن في مـوضـع قم قـريـة قبـل الأشعريين ، وإنّما كانت بعض القرى على مقربة منها ؛ كما يـذكر من أرّخ لقم من القدماء .

الدور والمكانة

يمكن أن نفسر قصة نشوء قم تفسيراً عادياً ، فالهجرات العربية بعد الفتح الإسلامي كانت كثيرة ، وقد وصلت إلى أماكن بعيدة من الدولة الإسلامية . . ولكن هناك عدة مرجّحات لافتراض آخر هو أن يكون الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) قد اختاروا موقع قم المتميّز وأمروا الأشعريين بالإقامة فيه ، وأول أهداف هذا العمل نلمسها في دور الأشعريين في نشر الإسلام في أهل المنطقة المحيطين بهم ، وفي نشر حديث رسول الله (ص) في أنحاء إيران ومشرق الدولة الإسلامية ! .

نعم كان الأشعريون فرساناً مقاتلين ، وكانوا مزارعين وتجّاراً في قم وما حولها ، ولكنهم قبل ذلك كانوا فقهاء علماء رواة حديث . . وقد بلغ عدد رواة الحديث منهم عن الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) أكثر من مئة راوٍ .

وقد كانت قم قرية ومدينة للأشعريين في منطقة استراتيجية في وسط إيران ، وفي طريق القوافل ما بين العراق والجزيرة وخراسان ، ثمّ أصبحت مع توابعها (ولاية قم) ، وكثير منّا يحفظ كتاب الخليفة أو وزيره إلى قاضيها : أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم ! وقول ذلك القاضي عندما قرأ الكتاب والله ما عزلني إلاّ السّجع .

ولكن قم القرية والمدينة والولاية هي مدرسة إسلامية وحاضرة علمية ذات دور فعّال ، منذ نشأتها ، في الحياة الثقافية لإيران وغيرها !

لقد سمع أكثرنا بقم أثناء الثورة الإسلامية لأنّها مركز المرجعية

الدينية التي قادت الثورة ، وأصبح لاسمها في نفوسنا وقع خاص كأنه يأمر المسلم بالثورة ويقول له (قم) ، ولكنا عندما نرجع إلى مصادرنا الإسلامية ونقرأ عن قم نعجب لتاريخ هذه المدينة التي نبتت دفعة واحدة في مطلع تاريخنا ، وباشرت دورها الفعّال فيه ، معتمدة في ذلك على موقعها الستراتيجي وسكّانها العلماء ، مكافحة مناخها اللاهب في الصيف ، القارس في الشتاء ، وموفرة مياهها من آبار ذات ماء مالح لا تكاد تروي إنساناً ولا نباتاً !

والأعجب من هذا أن الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) أعطوا قم مكانة خاصة ، وأكدّوا على ارتباط اسمها وأهلها بالمهدي الموعود وببيت المقدس ، وسمّوها (قطعة من بيت المقدس) !

وهذه نماذج من نصوص أهل البيت في شأن قم وأهلها من كتاب بحار الأنوار للمجلسي ج ٦٠ :

« عَنْ أَبَانَ بنِ عُثْمَانَ ، وَعَنْ حَمَّادِ النَّابِ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ آللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ (يقصد الإمام جعفر الصادق) وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ عِمْرَانُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُمِّيِّ (الأشعري) فَسَأَلَهُ وَبَرَّهُ وَبَشَّهُ ، فَلَمَّا أَنْ قَامَ قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ آللَّهِ : مَنْ هٰذا الَّذِي بَرَرْتَ بِهِ هٰذا الْبِرَّ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ النُّجَبَاءِ ، يَعْنِي أَهْلَ قُمٍّ ، مَا أَرَادَهُمْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ إِلاَّ قَصَمَهُ آللَّهُ »ص ٢١١ .

« وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْلِ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّ الإِمَامَ جَعْفَرَ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَشَارَ إِلىٰ عِيسىٰ بْنِ عَبْدِ آللَّهِ فَقَالَ : « سَلاَمٌ عَلىٰ أَهْلِ قُمٍّ يَسْقِي آللَّهُ بِلاَدَهُمْ الْغَيْثَ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْهِمُ الْبَرَكَاتِ ، وَيُبَدِّلُ آللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . هُمْ أَهْلُ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَقِيَامٍ وَقُعُودٍ . هُمْ الْفُقَهَاءُ الْعُلَمَاءُ الْفُهَمَاءُ . هُمْ أَهْلُ الدِّرايَةِ وَحُسْنُ الْعِبَادَةِ » ص ٢١٧ .

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ:« تُرْبَةُ قُمٍّ مُقَدَّسَةٌ وَأَهْلُهَا مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ . . . أَمَا إِنَّهُمْ أَنْصارُ قائِمِنا » ص ٢١٩ .

وَعَن عَفَّانِ الْبَصْرِي عَنِ الإِمامِ الصَّادِقِ عَلَيهِ السَّلامُ قَالَ : قَالَ لِيَ : أَتَدْرِي لِمَ سُمِّيَ قُمٌّ ؟ قُلْتُ : اَللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْتَ أَعْلَمُ . قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ قُمٌّ لأَنَّ أَهْلَهُ يَجْتَمِعُونَ مَعَ قائِمِ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اَللَّهِ عَلَيْهِ وَيَقُومُونَ مَعَهُ وَيَسْتَقِيمُونَ عَلَيْهِ وَيَنْصُرُونَهُ » ص ٢١٦ .

وَعَنِ الإِمامِ عَلِيٍّ الْهادِي عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ : « إِنَّما سُمِّيَ قُمٌّ بِهِ لأَنَّهُ لَمَّا وَصَلَتِ السَّفِينَةُ إِلَيْهِ فِي طُوفانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ قامَتْ ، وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسْ » ص ٢١٣ .

وَعَنِ الإِمامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسىٰ الرِّضا عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ : « إِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمانِيَةَ أَبْوابٍ ، وَلأَهْلِ قُمٍّ واحِدَةً مِنْها ، فَطُوبىٰ لَهُمْ ثُمَّ طُوبىٰ لَهُمْ ثُمَّ طُوبىٰ لَهُمْ » ص ٢١٦ .

أضف إلى ذلك الأحاديث الثلاثة التي اخترناها ، وما تقدّم من تفسير الإمام الصادق (عليه السلام) لقوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيكُمْ عِبَاداً لَنَا أُوْلي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ بأنّهم أهل قم وقسمه على ذلك ثلاثاً . . ثمَّ انظر كيف استطاعت هذه المدينة ذات النصف مليون نسمة أن تقود إيران وتجعل منها قمّاً ، وتلهب الشوق في قلوب ملايينها الأربعين إلى تحرير بيت المقدس ولقاء المهدي الموعود (عليه السلام) .

دعوة إلى كتابة تاريخ قم

ليس ما تقدّم أكثر من تقريب أوّلي لفكرة أن قماً مشروع خطّطة ورعاه الأئمة من أهل بيت النبي (ص) ، لكي يثمر في مستقبل الأمة أكثر ممّا أثمر في تاريخها الماضي . وهو دعوة إلى الكتّاب الفضلاء للقيام بهذا البحث التاريخي الحيوي . . وفي سيرة النبي وتلامذته

الأئمة مشاريع مشابهة لمستقبل الأمة . . وينبغي أن يمهّد لهذه الدراسة :

باستطلاع حالة الأشعريين في اليمن وإسلامهم طواعية ووفودهم على النبي (ص) ثم هجرتهم إلى الحجاز والعراق ، ودورهم في الفتوحات الإسلامية . .

وعلاقة الأشعريين بالإمام علي (عليه السلام) عندما بعثه النبي (ص) والياً على اليمن ، وتطور هذه العلاقة به وبالأئمة من أبنائه (عليهم السلام) ، ودور الأشعريين في الفتوحات وأحداث صدر الإسلام خاصة في مواجهة زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج الثقفي .

إن هذا التمهيد يلقي أضواء على قم التي هي بالآخرة مشروع الأشعريين في وسط إيران، وييسر متابعة عناصر التخطيط للمدينة وأهلها من قبل الأئمة (عليهم السلام) ، وهي فيما أرى عناصر متعددة :

منها ، حرص الأئمة على إنشاء قم واستمرارها ؛ فقد واجهت المدينة مصاعب سياسية وطبيعية هددت وجودها فوقف الأئمة إلى جانبها بإصرار ، كما يفهم من محاولة شيخ القميين زكريا بن آدم أن يترك قم في مطلع القرن الثالث ونهي الإمام الرضا (عليه السلام) إياه عن ذلك ، ومن أحداث أخرى .

ومنها ، اختيار قم مرقداً لواحدة من حفيدات الزهراء (عليها السلام) ، كانت شخصيتها طاهرة أشبه ما تكون بجدتها ، وهي فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم ، التي بشر بها وبدفنها في قم الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) قبل ولادتها !

ومنها ، ظاهرة هجرة الهاشميين من أبناء أهل البيت (عليهم السلام) منذ صدر الإسلام إلى قم ، وسكن المسلمين الإيرانيين فيها ، متقارناً مع تناقص دور الأشعريين القيادي حتى تحولوا إلى عائلة عادية من عوائل قم .

ومنها ، استقصاء دور القميين الواسع في حفظ علوم الإسلام وتدوينها ونشرها ، وبشكل خاص في إيران .

ومنها ، تهيئة الأئمة للقميين لنصرة المهدي (عليه وعلى آبائه السلام) وتحرير بيت المقدس ، وهي ظاهرة تحتاج إلى التتبع في نصوص أهل البيت (عليهم السلام) ، وفي مؤلفات القميين وفي سلوكهم وعاداتهم الاجتماعية . . والتي نلمس بعضها في أهل هذه المدينة إلى يومنا هذا ، مثل كثرة تسمياتهم لأبنائهم ومساجدهم ومحلاتهم ومؤسساتهم باسم المهدي (عليه السلام) ، حتى لا يكاد يخلو منه بيت ، وبذلك تحقق قم أكبر نسبة في العالم لهذا الاسم الشريف .

قم في مواجهة الغزو الغربي

من عجائب قم في تاريخها الحديث أنها استطاعت أن تجعل إيران استثناءً نسبياً من الخضوع العام لموجة الغزو الحضاري الغربي التي أصابت بلاد المسلمين . فلو وضعنا درجة نسبية للاستعمار الثقافي الذي استطاع الغربيون فرضه على بلاد المسلمين ومراكزهم ومقوماتهم الثقافية ، وقارنّا إيران بمصر وبلاد الشام وبلاد المغرب وتركيا . . لوجدناها أقل الجميع خسارة . لقد كانت الخطة لتركيا مركز الخلافة ، ولمراكز الثقل الإسلامية الأخرى الخارجة عن حكم الخلافة كمصر والمغرب وإيران . . خطة واحدة ، واختار الغربيون لكل بلد

عميلاً شرساً للقيام بعملية محو الشخصية الثقافية وتغريب المسلمين ، وأبرز عميلين في هذا المجال أتاتورك ورضا بهلوي ، ولكن لماذا نجح أتاتورك في تحطيم أكثر مقومات الثقافة الإسلامية وفرض المسخ الثقافي على تركيا المسلمة العريقة ، فقضى على العلماء والمعاهد العلمية الإسلامية في أنحاء تركيا ، وقضى على الحرف التركي ـ العربي الذي كتب فيه تاريخ تركيا والإسلام ، وعلى أكثر الشعائر الإسلامية . . الخ . بينما لم يستطع زميله رضا بهلوي تحقيق هذا النجاح مع أنه لم يكن أقل دهاءً وبطشاً وإخلاصاً لدوره الكافر . . ؟ كيف تمكن مسلمو إيران من الاحتفاظ بكثير من مقومات الثقافة الإسلامية ، وإن تراجع العديد منها من الظهور إلى الكمون . . كيف احتفظوا بمقام المرجعية والحوزات العلمية وبمكانة العالِم في جماهير الناس ؟ كيف انتصروا في مقاومة استبدال الحرف الفارسي ـ العربي بالحرف اللاتيني ، وفي معركة استبدال الحجاب الإسلامي بالسفور الغربي ؟ وكيف حافظوا على الشعائر الإسلامية . . ؟

قد يجاب بأن طبيعة الفرس في مواجهة الموجات تختلف عن طبيعة الشعوب الأخرى ، فالفرس من أوائل الشعوب التي تجيد التعامل مع الموجة والصبر عليها . .

وقد يجاب بأن المسلمين الإيرانيين قاوموا ببسالة ودفعوا ثمن ذلك دماء الألوف من أبنائهم والمئات من علمائهم . . حتى لقد فاضت أرض أحد مساجدهم بالدماء وجرت إلى خارجه كالساقية . . وحتى أن ألوفاً من المسلمات لم يخرجن من بيوتهن سنين طويلة لئلا يتعرضن للإجبار على السفور . . الخ .

ولكن الجواب الأصح أن السبب هو : قم ، وثقافتها ، واستقلالها ، ونمط مرجعيتها وطلبتها والعلماء المتخرجين منها .

تفاعل حوزة قم مع أهل قم

الملاحظ أن التفاعل والتأثير بين الجامعات والمعاهد الكنسية في الغرب وبين مجتمعات المدن التي تقوم فيها يكون بدرجة قليلة أو لا يكون، بينما يوجد التفاعل والتأثير بين مجتمع المدينة المسلمة وبين الجامعات الدينية التي تقوم فيها بدرجات عالية . . نقرأ عن ذلك في تاريخنا ونلمس بقاياه في جامعة الزيتونة والقرويين والأزهر والأموي والنجف . ولكن التفاعل بين جامعة قم ومجتمعها يفوق الجميع . فقد درجت جامعتها على الانفتاح على مجتمعها بفئاته المختلفة حتى أصبح مجتمعاً موحداً متجانس التفكير ، فلا عزلة بين الطالب والعالم في قم وبين الناس العامل منهم والفلاح والكاسب والتاجر والموظف ، فالعلاقات بين الجميع قائمة ، والروح الأخوية عامة ، وقد نشأت عن ذلك حالة اجتماعية من الأعراف والمفاهيم والتقاليد الإسلامية أصبحت من معالم شخصية مجتمع قم . وزاد ذلك من احترام المجتمع القمي للطلبة والعلماء وتأثرهم بهم بشكل لا نظير له في حاضرة علمية من بلاد المسلمين .

ومن مدرسة قم الاجتماعية هذه يتخرج العلماء والمبلغون ، وينتشر منهم إلى أنحاء إيران حوالي عشرة آلاف عالم وخطيب كل سنة بمناسبة شهر رمضان ومحرم والعطلة الصيفية ، عدا الذين يسكنون في مدنها وقراها بشكل دائم .

وعلى نمط حوزة قم الرائدة سلكت حوزات إيران المتعددة .

العقل والعاطفة في قم

كان بعض الطلبة في حوزة النجف يشكو من الجفافات الخمسة وبعضهم من الجفافات الثلاثة :

جفـاف مناخ النجف ، وجفـاف المجتمـع ، وجفـاف المنـاهـج الـدراسية في الحـوزة من النحو والصـرف والمنطق والمعـاني والبيـان والبـديع ، ثم منـاهج الفقـه والأصول التي يصـرف الطالب فيهـا أكثـر وقته .

ولكن مناخ قم لا يقلّ عن مناخ النجف جفافاً في الصيف وقسوة في الشتاء . . والمناهج الدراسية لا تختلف جوهَريا عن مناهج النجف، والذهنية القانونية الهندسية أو طريقة التفكير التي تنتجهـا حوزة النجف تنتجهـا حوزة قم أيضـاً ، وبقـدر أكبـر من عـادة التـدقيق والمحـاكمـة واستنبـاط الإشكـال من تحت الكلمـــة أو الفكـرة ومن فـــوقهـا ، وعن جوانبها الأربعة ، ومن عند جيرانها ، وأقاربها .

ولكن إن عجبت فـاعجب للطراوة النـديـــة والعـاطفـــة الملتهبـة وأشـواق الروح المشبـوبة في حـوزة قم ومجتمعهـا على رغم عـوامـل الجفاف !

إن العاطفة العميقة توجـد في قم وتتعايش مـع العقلية الأصـولية الحسـابية الكمبيـوتريـة جنباً إلى جنب ! . وإذا كـان من الصعب على عالم الرياضيات أن يكون فنّاناً ، فمن الطبيعي للعـالم والطالب في قم أن يكون عقلانيّاً إلى العظم وعاطفياً إلى الذوبان . إن المجتهد في قم الذي لا يرفّ له جفن لسفك دم بحق . . يبكي ويتأرّق ليله لحالة عزل بعض القـرى في غرب إيـران بسبب الثلوج وتقصير حكـومة الشـاه في إيصال المساعدة إليهم .

ما هي العوامل التي أنتجت مثل هذه العاطفة الجيّاشة في مدينة العقـل والقانـون والجفاف . . ؟ لسنـا بصدد التحليـل . . بـل بصـدد وصف حالة تركيب نادرة تجمـع بين العقلانيـة والعشق ، كما يسمّيهـا

الإيرانيون ، وتصالح بينهما بأن من حق العقل أن يتدخل في مجال العشق ولكن ليس من حقّه أن يتدخل في مداه . .

إن هذه الحالة من التصوف والحبّ بلا حدود والرومانسية ـ إذا صحّ التعبير ـ ليست ضرورية للحياة الاجتماعية العادية فحسب ، بل هي ضرورية للتدين « وَهَلِ الدِّينُ إلاَّ الْحُبُّ » على حدّ قول الإمام الصادق (عليه السلام) . وهي ضرورية للثورة ، وهل الثورة إلاَّ حب الله تعالى والنهوض بأمره ، وحبّ عباده المظلومين والقيام من أجلهم ؟ وهل ثار أهل قم إلاَّ لأنَّ قلوبهم امتلأت حبّاً من أجل الله تعالى وبغضاً من أجله . . وهل يكونون أنصار المهدي (عليه السلام) إلا لأنهم عاشقون ؟

الرجل الموعود من قم

ما تقدّم عن قم يعطي صورة عن أرضية الحدث الذي أخبر الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) أنه يبدأ من قم ، وعن حالة الشهادة على العالم التي تصل إليها قم .

فالرجل الذي يخرج من قم بأصحاب ذوي مواصفات خاصة لا يخرج من عدم ولا يعمل في حقل مجدب ، بل ينطلق من أرضية ذات مقومات .

والوعد بأن تصبح قم حجة على الخلائق ليس بسبب أن فيها مدارس ومكتبات وحلقات درس ومجتهدين ومحققين في العلوم الإسلامية . . بل بسبب أنها تقوم بأمر الله تعالى ، وتدعو المسلمين والعالم إلى القيام .

بسبب أنه يوجد فيها العمق الفكري النافذ وجذوة العشق المتقدة ، والصدق والشجاعة للعيش بهما .

بسبب أن قمّاً سوف تتمكن أن تلهب إيران وتحركها ، وأن إيران ستوصل صوت الإسلام وحجته إلى أسماع العالم ، حتى لا يبقى مستضعف في الدين ، حتى النساء المخدارات في حجال بيوتهنّ .

المكانة الموعودة لقم

الحديثان اللذان اخترناهما تحت رقم (٨) عن مستقبل قم هما حديث واحد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) . . عن رسول الله (ص) روي بصيغتين موجزة ومطولة وبأسانيد متعددة .

ويرتكز الحديث على معتقد إسلامي هو : « أَنَّ الأَرْضَ لا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ » وأصل هذا المعتقد محل إجماع بين المسلمين ، يدلّ عليه عدد من الآيات الكريمة من قبيل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1] ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾[2] ، وعدد من الأحاديث الشريفة . . ويجمع المسلمون على أن هذه الحجة إمّا أن تكون أنبياء أو مؤمنين يقومون مقامهم ، ويضيف الشيعة أن الحجة إمَّا أن تكون أنبياء أو أوصياء فإن غاب الوصي تكون مؤمنين يقومون مقامهم .

على أي فإن احتجاج الله تعالى بالمؤمن على غيره ممّا لا إشكال فيه بين المسلمين وقد ورد أنه تعالى يحتج بالجار المؤمن على جاره ومحلته ، وبالعالم المؤمن على من بلغه علمه ، وبالفئة المؤمنة على من بلغته دعوتهم ، بل هو معنى شهادة النبي (ص) ومن يقوم مقامه على الأمة ، وشهادة الأمة على الناس ، وهو معنى شهادة الشهيد على من قتله ولم يقبل دعوته .

---

(١) سورة الإسراء : ١٥ .

(٢) سورة التوبة : ١١٥ .

ويتركز الحديث على حركة نمو في هذه الحجة قبيل نزول العقاب الإلٰهي بأعداء الإسلام على يد المهدي (عليه السلام) . وأن هذا النمو ينطلق من واحدة من الحواضر العلمية الإسلامية هي مدينة قم « وَيَفِيضُ العِلْمُ مِنْها إلىٰ سَائِرِ البِلادِ فِي المَشْرِقِ والْمَغْرِبِ فَتَتِمُّ حُجَّةُ اللّٰهِ عَلَى الخَلْقِ حَتّٰى لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَىٰ الأَرْضِ لَمْ يَبْلُغْ إليهِ الدِّينُ وَالعِلْمُ » وهذا النمو الكمّي لا بدَّ أن يكون ناتجاً عن نمو كيفي وعن حالة وعي تمكن أهل قم من إيصال الحجة إلى المسلمين وشعوب العالم .

ولا يخفى أن عملية إقامة الحجة على مثل هذا النطاق الواسع ليست عملية فكرية محضة وإن كانت المادة الفكرية أساساً فيها ، فغالبية الناس في العالم لا يقرأون ولا يستمعون حتى لو وفّرنا المادة الإعلامية بين أيديهم ما لم يكن وراء المادة حدث يدفع إليها . فلا بدَّ أن تكون الحجة إذن حركة سياسية وأحداثاً تصل إلى أسماع العالم ، وتدفع الناس إلى القراءة والاستماع والسؤال عن الإسلام ، وقد تتم الحجة على بعض الناس بمجرد أن يصل إليهم خبر الأحداث ويدفعهم إلى التفكير بالإسلام وأحقيته ، ولكنهم لا يفعلون .

هذا المنطق الإسلامي يشكل نقطة قوة لـلأخذ بهذا الحديث الشريف ، حيث يؤيده ما ثبت بالأحاديث المتواترة من حدوث حركة تمهيد للمهدي ذات وقع عالمي ، وأنه (عليه السلام) يظهر بعد أن يكون صوت الإسلام قد وصل إلى أسماع العالم ، فيبدأ الحسم بالآيات المعجزة وبالعمل السياسي والعسكري ، وأنه قد أمر من رسول الله (ص) بأن يقتل من يقف في وجهه ولا يستتيب أحداً لأن الحجة تكون قد تمّت على الناس .

وتوجد قرينتان أخريان في مصلحة الأخذ بالحديث الشريف :

أولاهما : أنه ثبت من أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) أن لقم دوراً مميزاً مرتبطاً بالمهدي (عليه السلام) .

وثانيتهما : أن ما أخبر به الحديث الشريف قد وقع بالفعل ، وأن حاضرة الكوفة وامتدادها النجف قد خلت من المؤمنين العاملين الذين أصبحوا ما بين شهيد ومشرد ومهاجر ، وأن علوم الإسلام والثورة قد ظهرت من قم في حركة وأفكار وأحداث أخذت تهز شعوب العالم وتقيم الحجة عليها . .

ومع نقاط القوة هذه في متن الحديث وموضوعه ووقوعه ، لا يؤثر في الاعتماد عليه ما قد يكون من مناقشة في سنده ، أو في ضعف سبكه ، ممّا لا نعهده في تعبير الإمام الصادق (عليه السلام) وفي حديث رسول الله (ص) . . فإن النبي والأئمة قد أجازوا الرواية بالمعنى ، ويبدو أن بعض الرواة رحمهم الله قد روى هذا الحديث بمعناه ، مضافاً إلى ما قد يكون طرأ على كلماته من تداول النساخ رحمهم الله .

بقية أحاديث قم

الأحاديث الأربعة الباقية تدور حول حركة تمهيدية لظهور المهدي (عليه السلام) ،ونذكر حولها بعض الملاحظات :

أ ـ حديث رجل من قم ، وحديث أتاح الله لآل محمد برجل منّا أهل البيت. . . رويا في مصادر الشيعة عن الإمام الرضا وعن أمير المؤمنين (عليهما السلام) .

ـ حديث رجل من أهل بيته يقصد بيت المقدس فلا يبلغه . . . وحديث رجل من وراء النهر يمكّن لآل محمد . . . مرويان في مصادر

الشيعة والسنة عن الإمام علي (عليه السلام) .

وتوجد أحاديث أخرى تذكر قادة آخرين في حركة التمهيد كما تقدّم في فصل العلامات .

ب ـ نلاحظ أن حديثين منهما يصفان قائد الحركة بأنه هاشمي من أهل بيت النبي (ص) بينما لا يذكر ذلك الحديثان الآخران . أمّا المكان الذي يخرج منه فهو قم في حديث ، والمشرق في آخر وما وراء النهر في الثالث ، بينما لا يحدد الحديث الرابع مكاناً . كما يلاحظ أن حديثين عبّرا بـ « يخرج » ولم يعبّر بذلك الحديثان الآخران .

ج ـ ما وراء النهر كما تقدّم في معنى خراسان مصطلح لمنطقة ما وراء نهر جيحون ، والتي هي جزء من بلاد المشرق أو بلاد خراسان . والأقرب أن يكون اسم (الحارث أو حرّاث أو الحارث الحراث) على اختلاف النسخ اسماً رمزيّاً بمعنى أن هذا القائد خبير بعمله فهو كالحارث الخبير بالحراثة . .

أمّا وزيره منصور فقد ورد اسمه في بعض الروايات ، وأنه يصاحب المهدي (عليه السلام) في سفره من المدينة إلى مكة ، وفي بعضها وزير للهاشمي الخراساني الذي يسلّم راية أهل المشرق إلى المهدي . ويحتمل أن يكون اسماً رمزياً لشعيب بن صالح .

د ـ يترجح في نظري أن يكون حديث « يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهرِ . . . يُمَكِّنُ لآلِ مُحَمَّدٍ » من تحريفات أنصار العباسيين لأحاديث المهدي لأنّه من مصلحتهم ، وأن يكون حديث « يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيتِهِ . . . يَقْصُدُ بَيتَ المقْدِسِ فَلاَ يَبْلُغُهُ حَتَّى يَمُوتَ » من تحريفات الاتجاه الأموي لأحاديث الهاشمي الخراساني الذي يقضي على

السفياني مع المهدي (عليه السلام) ، وأنَّ المحرّف وصفه بأنه يقتل ويقتل ويمثل ثم يموت ولا يبلغ هدفه ! ويؤيد ذلك وجود بعض الأحاديث التي تذم الهاشمي الخراساني وقائد قواته شعيب بن صالح ، وتذكر هزيمتهما أمام السفياني ! ويذكر بعضها أنهما بعد هزيمتهما يختفيان في الشام أو فلسطين ، ثم يلتحقان بالمهدي (عليه السلام) في مكة ، وقد روى كثيراً من هذه الأحاديث ابن حماد في كتابه الفتن والملاحم .

ولكن هذا الإشكال لا يرد على حديث « رجل من قم » لأن قمّاً لم تكن يوماً مؤيدة للعباسيين لا في مطلع الحركة العباسية ولا بعدها . . والواقع أن هذا الحديث أقوى الأحاديث المذكورة سواء من حيث السند أو من حيث عدم احتمال الوضع ، أو من حيث القرائن الأخرى التي تقوي الاعتماد عليه ، والتي منها :

أن الصفات التي وردت فيه لأصحاب هذا الرجل وردت بشكل عام في صفات أهل المشرق وأصحاب الهاشمي الخراساني وشبّان الطالقان أنصار المهدي (عليه السلام) .

ومنها : أن أحاديث الهاشمي الخراساني تدلّ على أن رجلاً قبله أو معه يقود أهل المشرق ويصفه بعضها بالسيد الأكبر « وَتُقْبِلُ رَايَاتٌ مِنْ شَرْقِيِّ الأَرْضِ غَيرُ مُعَلَّمَةٍ لَيْستْ بِقُطْنٍ وَلا كَتّانٍ وَ حَريرٍ ، مَخْتُومَةً فِي رَأْسِ القَنَاةِ بِخَاتِمِ السَّيِّدِ الأَكْبَرِ »[1] والخاتم هو الشعار الذي يكون على الراية .

ومنها : انطباق الحديث بشكل دقيق على ثورة الإمام الخميني وأصحابه ، دون غيرهم ، فبالرغم من تاريخ قم الحافل الطويل ، وما

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ٢٧٤ .

يذكره المؤرخون من أن فقهاءها وأهلها كثيراً ما كانوا يقاومون الوالي الظالم حتى يضطروه إلى العدل أو يضطروا الخليفة والسلطان إلى تغييره . . ولكن حركتهم لم تتسع وتصبح دعوة (للناس) إلى الحق وتواجهها الرياح العواصف ويرافقها قتال . . إلا على يد الإمام الخميني نصره الله .

أما احتمال أن يكون انطباق الحديث على رجل يأتي في المستقبل فهو بعيد جداً ، لأن أي رجل من قم تكون له ولأصحابه هذه المواصفات سيكون امتداداً للإمام الخميني حفظه الله ، وستكون دعوته الناس إلى الحق امتداداً لدعوة هذا الرجل من قم ، ولا تكون أولى منها بانطباق الحديث الشريف عليها .

حول حديث البشارة بالقائد وأنصاره

مع أن حديث « رجل من قم » موجز مقتضب ، تقرأه بتلهّف ، وتتمنى لو أنه تضمن المزيد عن هذا الرجل وأصحابه وثورتهم . . ولكنك عندما تتأمّل فقراته تجدها مركزة مضاءة بنور الوحي والأبعاد .

« رَجُلٌ مِنْ قُمٍّ يَدْعُو النَّاسَ إلىٰ الحَقِّ » .

وكأن الإمام الرضا (عليه السلام) يستشرف مستقبل الأمة ، ويستعرض القرون والبلاد ويطلق هذا القبس من علوم جده (ص) فيقول :

وعما قريب تلتف القرون بالقرون ويغلب أعداء الأمة عليها . . فينهض ثائر من قم يكون خلاصة هذه المدينة ، وضمير فقهائها عبر الأجيال ، وطليعة ثمراتها في آخر الزمان ، وصوتها المدوي في العالم ، يدعو الناس ـ كل الناس ـ إلى الحق المسلوب ، لانتزاعه من غاصبيه بحد السيف . .

أما متى يكون ذلك . . ؟ فمثل هذا الحدث العالمي عندما يكون لا يخفى .

« رَجُلٌ مِنْ قُمٍّ يَدْعُو النَّاسَ إِلىٰ الحَقِّ » عبارة بإيجازها وإطلاقها تلخص وصف هذا الرجل الموعود منذ اثني عشر قرناً ، داعية الإسلام ومجدده ، ونداء قم للمستضعفين ، وصرختها في وجه المستكبرين .

« يَجْتَمِعُ مَعَهُ قَوْمٌ قُلُوبُهُمْ كَزُبُرِ آلحَدِيدِ ، لاٰ تُزِلُّهُمُ الرِّيٰاحُ آلْعَوٰاصِفُ » .

فمسيرة هذا الرجل وأصحابه . . شاقة وطويلة . .

فيها الرياح العواصف . . تعصف عليهم من كل نوع ، ومن كل جهة وإن كان أشدها العواصف الغربية . تريد أن تقتلعهم من الجذور ، ومن شأنها أن تقلع الناس والأشجار والسيارات ، وأن تحطم البيوت والبنايات ، وأن تجعل الجبال جرداء والهواء مكفهرّاً والعمران خراباً . . ولكنهم في وسطها ثابتون لا يتزلزلون ولا يزلون ، أرسى من الأطواد والجبال ، فقد تنال العواصف من الأطواد والجبال ، ولكنها منهم لا تنال .

إن قلوب هؤلاء الأنصار من نوع حديدي لا يرتجف للعواصف . وإذا ثبت القلب اشتدّ البدن وثبتت الخطى ولم تزلّ .

« وَلاٰ يَمَلُّونَ مِنَ الْحَرْبِ وَلاٰ يَجْبُنُونَ » .

وفي مسيرتهم الحرب الطويلة المرهقة ، بكل أهوالها وفتكها وخسائرها ، ومعها الحرب النفسية بأوسع أساليبها ووسائلها . . ولكنهم لا يملون من غمراتها وإن طالت سنوات وسنوات ولا يجبنون حتى لو قابلهم العدو بأضعاف عددهم وعدتهم . . وحتى لو قابلوا بصدورهم الدبابات . . وحتى لو نثرت القنابل والصواريخ أجساد

عوائلهم أشلاء في الهواء وبين الأنقاض وفي الطرقات !

وفي مسيرتهم الغربة . . التي يستوحش فيها الغريب ، والوحدة التي يضعف فيها الوحيد ، وفيها الخروج على قاعدة توازن القوى أو تقاربها أو معقولية نسبيتها بين طرفي الصراع . . ولكنهم يرمون بحسابات الناس هذه عرض الجدار « وَعَلىٰ اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ » لأن العمل فقط من أجله ، ولأن النصر فقط من عنده . . ولأنهم ليسوا من نوع ذراري المسلمين المنهزمين بل من نوع مسلمي صدر الإسلام ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾[1] .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

إنَّها عاقبة النصر لقائد يدعو إلى الحق ، وأنصار امتلأت قلوبهم بالإيمان واليقين والتوكل على الله تعالى فهي كالحديد الصلب . بها يقفون في وجه الرياح العواصف ، وبها يقاتلون في ساحات الوغى ، بشجاعة فريدة ونفس طويل وعزم لا يلين . .

إنَّها عاقبة قوم سلمان الذين لم تصف الأحاديث الشريفة غيرهم بأوصافهم . . يمهدون للمهدي (عليه السلام) ويسلمونه رايتهم ، ويواصلون جهادهم بين يديه حتى يتحقق وعد الله تعالى ويورث الأرض لمن يشاء من عباده . . والعاقبة للمتقين .

البديل للعرب

حول الأحاديث رقم (١٠ و١١ و١٢)

تَلا رَسُولُ اللَّهِ (ص) هٰذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ .

ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ ﴾ فَقالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هؤُلاءِ الَّذِينَ إِنْ تَوَلَّيْنا اسْتُبْدِلُوا بِنا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلىٰ مَنْكِبِ سَلْمانَ ثُمَّ قالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كانَ الإِيمانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فارِسْ » .

« ما كُنْتُ لأَطْرُدَهُمْ فَأَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ . أَما وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَيَضْرِبُنَّكُمْ عَلىٰ الدِّينِ عَوْداً كَما ضَرَبْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ بِدْءاً . . » .

داء التعصّب القبلي والقومي

قدم الإسلام الحل الفلسفي والعملي لمشكلة القوميات . قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ . . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]

وحرم التعصب القومي والقبلي والأسري تحريماً شديداً . قال رسول الله (ص) : « مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ » .

وقال (ص) : « مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَعَ أَعْرابِ الْجاهِلِيَّةِ »[2] .

« قُلْتُ يارَسُولَ اللَّهِ أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ؟ قالَ : لا ، وَلٰكِنْ مِنَ العَصَبِيَّةِ أَنْ يَنْصُرَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلىٰ الظلمِ »[3] .

« الْعَصَبِيَّةُ الَّتِي يَأْثَمُ عَلَيْها صاحِبُها : أَنْ يَرىٰ الرَّجُلُ شِرارَ قَوْمِهِ خَيْراً مِنْ خِيارِ قَوْمٍ آخَرِينَ وَلَيْسَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ، وَلٰكِنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلىٰ الظلمِ »[4] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٣) مسند أحمد ج ٤ ص ١٠٧ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٠٨ .

وقد تضافرت عوامل عديدة في تاريخ المسلمين على حلّ مشكلة القومية والقبلية وإرساء مفهوم العالمية والمساواة بين الناس وحصر ميزان التفاضل بالتقوى وحدها .

من هذه العوامل طبيعة الإسلام العقائدية العالمية .

ومنها : حرص النبي (ص) والأئمة على تطبيق نظرية الإسلام في تبني العالمية ورفض العصبية بشكل دقيق وحاسم .

ومنها : الطبيعة الجغرافية والسكانية للمنطقة حيث تختلط فيها القوميات المتعددة جغرافياً واجتماعياً وتاريخياً . .

وبذلك تمكن الإسلام أن يقدّم إلى شعوب العالم منهجاً جديداً في القيم والتعايش . ولكن هذا المنهج يبقى متوقفاً على التطبيق . . ولذلك لم يخل تاريخ المسلمين من ظهور مرض العصبية بل ومن استفحاله في عدد من الأحيان . فقد ظهر أول الأمر مرض التعصّب القبلي بين مجموعتي القبائل الحجازية واليمانية ، ثم ظهر مرض التعصب القومي داخل المجتمع الإسلامي بين العرب والفرس والترك والأكراد وغيرهم من قوميات الشعوب الإسلامية .

ثم انتشر تأثير هذا المرض بين المسلمين ، ولم يسلم منه إلاّ أهل الوعي والتقوى من القوميات المختلفة . . .

حتى إذا جاء غزو الغربيين لبلادنا في مطلع هذا القرن ونفذوا من خلال نقاط ضعف الأمة . . وجدوا في مرض العصبية القومية والقبلية مقدحاً للفتنة والتفريق بين المسلمين ، فأضرموا نارها بين الشعوب الإسلامية أيّما إضرام ، وكانت إحدى أبرز أدواتهم للسيطرة علينا جميعاً .

منطق العصبية

للعصبية تأثيرات متعددة على الفكر ، نذكر منها : الأساس اللاإسلامي الذي يعتمده المتعصبّون في المقايسة والمفاضلة بين أهل قومية وأخرى ، أو قبيلة وأخرى ، أو بلد وآخر . . من قبيل أن يتفاخر العرب والفرس بملوك تبّع وحِمْيَر والأكاسرة ، مع أن الجميع في نظر الإسلام مشركون ظالمون . ومن قبيل التفاخر بالغنى على الفقر وبالكثرة على القلة وبجودة مناخ منطقة على منطقة أخرى . . . مع أن هذه الأمور خارجة عن مقياس التقوى الإسلامي ، وعن الفضائل الشبيهة بالتقوى قبل الإسلام .

ونذكر منها : اتجاه التعميم اللامنطقي في المقايسة بين الأقوام . . وهو تعميم مكعب يشمل عادة ثلاثة أنواع من الخطأ : الخطأ في تعميم الحكم على كل أبناء القومية مع أنهم وجود كبير متنوع وليسوا سواء في الصفات . والخطأ في تعميم الحكم على كل صفات القوم مع أن وجود صفة أو صفات سلبية لا تعني بالضرورة أن تكون بقية الصفات سلبية ، وكذلك أمر الصفات الإيجابية . والثالث خطأ تعميم الحكم عل كل تاريخ القوم وحاضرهم ، مع أن أهل أي قومية أو قبيلة أو بلد يمرّون في تاريخهم بظروف وعوامل متعددة تؤثر فيهم تغييرات كثيرة قد تكون جذرية . .

ولا نريد الإطالة بضرب الأمثلة على منطق العصبية الخاطىء عند المتعصبين من مختلف القوميات .

أهم نقاط القوة والضعف في العرب

إن أعظم إيجابية في تاريخ العرب أن الله تعالى اختارهم منطلقاً لأعظم رسالاته وأنهم حملوها ونهضوا بها أفضل ممّا حملت الأمم

السابقة رسالات أنبيائها ونهضت بها .

فمهما يقل في الأسباب التي من أجلها اختار الله تعالى مكة والحجاز ومحيطهما العربي قاعدة ومنطلقاً للإسلام ، فإنَّه يدلّ على وجود مجموع كليّ من المقوّمات المطلوبة في العرب يجعلهم آنذاك أنسب وسط لتنزّل الرسالة وانطلاقها .

ومهما يقل عمّا لاقاه النبي (ص) من العرب من تكذيب وأذى وقتال . . وعمّا تحمّله في حياته وما حدث منهم بعده . . فإن المجموع الكليّ لتصديقهم به وحملهم للإسلام لا يقاس بموقف الأقوام الآخرين مع أنبيائهم وبعد أنبيائهم ، من قبيل الكنعانيين مع نوح ، والبابليين والأقباط مع إبراهيم ، وبني إسرائيل مع موسى وعيسى وبقية الأقوام مع الأنبياء والمرسلين على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام .

ويتفرّع عن هذه الإيجابية إيجابيات متعددة بطبيعة الحال .

كما أن أعظم سلبية في تاريخ العرب وحاضرهم هي ابتعادهم عن الإسلام ، ولكي لا نقع في التعميم الخاطىء ينبغي أن نميّز بين مجموعتين ، مجموعة أصحاب النفوذ السيئين من الأمراء والفقهاء والأثرياء ورؤساء العشائر والوجهاء ، وبين مجموعة الجماهير المستضعفة التابعة لهم ثقة بهم أو خوفاً منهم أو سعياً وراء النفع الدنيوي ، أو المناهضة لهم ، كما نرى في مجتمعاتنا العربية اليوم ، فالحاضر يشبه التاريخ والعصور تشبه بعضها مع تغيرات قليلة أو كثيرة لا تؤثر جوهرياً على مسار التاريخ بهذين الخطين أو المجموعتين : المجموعة المترفة الذين هم أساس كل انحراف ومصائب وويلات وقعت وتقع على العرب ، والمجموعة المستضعفة التي هي معدن الأمل ومعدن الخير ، وإن كانت تتحمّل مسؤولية الإطاعة والتبعية

والرضا بـالاستضعاف . وتتحمّـل مسؤولية النهـوض للأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر والثورة .

لسنا بصدد التاريخ لبـداية انحـراف الفئة المتـرفة من العـرب ، ولكن مؤشرات هذا الانحراف بدت واضحة في التأثر بالرفاهيـة وإغراء السلطة بعد الفتوحـات الإسلاميـة ، وأخذت تتسـع في العهد الأمـوي حتى أصبحت هذه المجموعة ، وكانت كثيرة في العرب ، تشكّل طبقة من الحكّام والمترفين تعتمـد في مختلف القطاعـات على اليد العـاملة والفنية من العبيد والموالي (أي غير العرب) ثم اعتمدت على جيوش غالبية جنودها من المـوالي . . حتى صارت حـالتها مـع الموالي تشبـه حـالة حكّـام دول النفط العربيـة ووجهـائهـا وأثـريـائهـا مـع المسلمين الأجانب (!) الذين تقوم بهم حياتهم . لأن القدرة السياسية لهذه الفئـة يومذاك كانت على جانب عظيم لا يقاس بقدرة هؤلاء اليوم .

إن غلبـة هذا الاتجـاه المتـرف تفسـر لنـا قلة نسبـة العلمـاء من العــرب في مختلف العلوم والفنـون الإســلاميـة وارتفــاع النسبـة من غيـرهم ، وتفسـر لنـا السبب في أنـه لم يكتمــل القـرن الثــاني حتى أصبحت السلطة العسكـرية ثم السيـاسية بيـد غير العـرب من الجنـود والموظفين وصار منصب الخليفـة مقامـاً شكلياً لـه مخصصات شهـرية ممن يغلب من القادة العسكريين ويسمي نفسه بأسماء الوزارة والإمـارة والسلطنة !

إذا قمنا بإحصـائية على امتـداد ألف وأربعمئة سنـة من تاريخنـا الإسـلامي لمعرفـة عدد السنـوات التي حكم فيها العـرب آخذين بعين الاعتبار المساحـة الكاملة للوطن الإسـلامي . . فربّمـا لا نجدهـا تبلغ ربع هذه المدة أو خمسها !

وإذا أحصينا الفعّاليات العسكرية للقادة العرب والجنود العرب عبر هذه المدة . . وإذا أحصينا علماء المسلمين ابتداء بأئمة المذاهب ومروراً بمؤسسي العلوم والفنون المختلفة وأئمتها والنابغين فيها . . نجد أن مساهمة العرب لا تتناسب مع دورهم الطليعي في الإسلام ، ولا حتى مع نسبة عددهم إلى الشعوب الإسلامية الأخرى . . وما سبب ذلك إلاّ هذه المجموعة المترفة من أصحاب النفوذ من العرب الذين تراجعوا عن موقعهم الطليعي الذي كانوا فيه في صدر الإسلام ، وواصلوا تراجعهم جيلاً فجيلاً حتى عاد أكثر قومهم العرب في عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية إلى حياة القبيلة والأرياف العادية .

لا أقصد بذلك تبرير فعل أصحاب القوميات الأخرى وانتزاعهم مقدرات قيادة المسلمين من العرب ، واتجاهاتهم الشعوبية المعادية للعرب . . ولكن لأقرر أن هذا الانحسار في قيادة العرب للمسلمين كان بسبب انحراف أصحاب النفوذ فيهم ، وتراجعهم عن الإسلام تراجعاً تفاقم مع الزمن وأفقدهم منطق الإسلام المهيمن ، وجعل منطقهم على السواء مع منطق القوميات والعصبيات الأخرى ، أو دونها !

يأخذك العجب عندما تنظر إلى حالة القبائل الحجازية واليمانية والعراقية والشامية والمصرية والمغربية . . وتسأل نفسك : ما بال هؤلاء الذين حملوا الإسلام وفتحوا العالم وأزالوا الامبراطوريات الكبرى وأنقذوا الشعوب من ظلمها ، وعلموها منهاجاً جديداً للحياة . . قد عادوا إلى مثل هذا التخلف ؟

ولكنك تجد الجواب في الفارق الهائل بين المستوى الذي كان عليه الرجل العادي والوجيه العادي من العرب في صدر الإسلام مثل ربعي بن عامر الذي يصف التاريخ منطقه الإسلامي القوي مع قائد

جيوش كسرى إذ يقول له « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه . . فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه وتركنا له أرضه يليها دوننا . . ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله »[1] .

. وبين منطق مترفي العرب اليوم من الأمراء والحكام عندما يؤذن لأحدهم فيتشرف بزيارة البيت الأبيض وقصور العواصم الغربية أو قصر الكرملن ، أو عندما يشرفهم في عواصمهم وقصورهم معالي سفير دولة كبرى بزيارة توجيهية !

إن هذا الفارق الهائل بين المستويين وبين المنطقين يفسر لنا مدى جريمة هؤلاء الطغاة بحق العرب في أجيال التاريخ وفي عصرنا الحاضر .

إن الخطبة رقم ١٩٢ من نهج البلاغة تمثّل إحدى الإنذارات المبكرة من الإمام علي (عليه السلام) للشعب العربي إذا هو أطاع هؤلاء المترفين المستكبرين وتحول من طليعة عقائدية عالمية إلى شعب مستضعف ومجموعات متخلفة ، تتبع أصحاب النفوذ الذين ينفخون فينا العصبية القبلية والإقليمية والقومية ، لا لشيء إلاَّ لأنهم يستفيدون منها في استمرار تسلطهم .

من فقرات هذه الخطبة :

« فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ . .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٠٧ .

« . . أَلا فَالْحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَتِكُمْ وَكُبَرائِكُمُ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَن حَسَبِهِم وَتَرَفَّعُوا فَوقَ نَسَبِهِم . . . . فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ العَصَبِيَّةِ وَدَعَائِمُ أَركَانِ الفِتنَةِ . . . . الَّذِينَ شُرِبتُمْ بِصَفْوِكُم كَدَرَهُم ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُم ، وَأَدخَلتُمْ فِي حَقِّكُم بَاطِلَهُم . .

« . . . وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجدتُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيءٍ مِنَ الأَشيَاءِ إِلَّا عَن عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاءِ ، أو حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ ، غَيرَكُم ، فَإِنَّكُم تَتَعَصَّبُونَ لأَمْرٍ مَا يُعرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . . . فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ العَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُم لِمَكَارِمِ الخِصَالِ وَمَحَامِدِ آلأَفْعَالِ وَمَحَاسِنِ آلأُمُورِ آلَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا المُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ العَرَبِ وَيَعَاسِيبِ القَبَائِلِ . . بِالأَخلَاقِ الرَّغِيبَةِ ، وَالأَحْلَامِ العَظِيمَةِ ، وَآلأَخْطَارِ الجَلِيلَةِ ، وَآلآثَارِ المَحمُودَةِ . فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الحَمْدِ مِنَ الحِفْظِ لِلْجِوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ ، وَالأَخْذِ بِالفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ ، وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ ، وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ . .

« . . . فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ آلأَحوَالِ ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالَ .

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِيَ كَانَتْ آلأَكَاسِرَةُ وَالقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَن رِيفِ الآفَاقِ وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا ، إِلَىٰ مَنَابِتِ الشِّيحِ وَمَهَافِي الرِّيحِ وَنَكَدِ المَعَاشِ ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ ، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً وَأَجدَبَهُمْ قَرَاراً ، لَا يَأْوُونَ إِلَىٰ جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا وَلَا إِلَىٰ ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ عِزِّهَا . . فَالأَحوَالُ مُضطَرِبَةٌ ، وَالأَيدِي مُختَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ . . فِي بَلَاءٍ أَزْلٍ وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ ، مِن بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ .

« انـظُرُوا إِلىٰ مَوَاقِـعِ نِعَمِ ٱللَّهِ عَلَيهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُـولاً فَعَقَـدَ بِمِلَّتِـهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَـعَ عَلىٰ دَعْوَتِـهِ أُلْفَتَهُمْ : كَيْفَ نَشَـرَتِ النِّعْمَـةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَـوَائِدِ بَـرَكَتِهَا ، فَـأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَـا غَرِقِينَ ، وَفِي خُضْـرَةِ عَيْشِهَـا فَكِهِينَ . قَـدْ تَـرَبَّعَتِ ٱلأُمُـورُ بِهِمْ فِي ظِـلِّ سُلْطَانٍ قَـاهِـرٍ ، وَآوَتْهُمْ الْحَـالُ إِلىٰ كَنَفِ عِـزٍّ غَـالِبٍ ، وَتَعَـطَّفَتِ ٱلأُمُـورُ عَلَيْهِم فِي ذُرىٰ مُلْكٍ ثَـابِتٍ . فَهُم حُكَّـامٌ عَلىٰ العَـالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْـرَافِ الأَرَضِينَ . يَمْلِكُـونَ ٱلأُمُورَ عَلىٰ مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُمْضُونَ الأَحكَـامَ فَيمَن كَانَ يُمْضِيهَـا فِيهِم . لاَ تُغْمَزُ لَهُم قَنَاةٌ ، وَلاَ تُقرَعُ لَهُم صَفَاةٌ » .

« . . . وَاعْلَمُوا انَّكُم صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً . . . تَقُولُونَ النَّـارَ وَلاَ الْعَـارَ ! كَأَنَّكُم تُـرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُـوا الإِسْلاَمَ عَلىٰ وَجْهِـهِ انْتِهَاكـاً لِحَرِيمِـهِ ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِـهِ الَّذِي وَضَعَـهُ ٱللَّهُ لَكُم حَرَمـاً فِي أَرْضِهِ ، وَأَمْنـاً بَيْنَ خَلْقِهِ . وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلىٰ غَيْرِهِ حَارَبَكُم أَهْلُ الْكُفْرِ ثُمَّ لاَ جَبْرَئِيلُ وَلاَ مِيكَائِيلُ وَلاَ مُهَـاجِـرُونَ وَلاَ أَنصَـارُ يَنْصُـرُونكُم إِلاَّ الْمُقَـارَعَـةُ بِـالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَكُم ، وَإِنَّ عِنْدَكُمْ ٱلأَمْثَالُ مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ وَقَوَارِعِهِ » .

كيف نعود إلى موقعنا

إن طـريق العودة إلى مـوقعنا الـطليعي في قيادة العـالم والشهادة على شعـوبه طـريق واحدة ليس أمـامنا ـ وأمـام غيـرنـا من المسلمين ـ سواها ، وهي : العودة إلى الإسلام .

والعــودة إلى الإسـلام ، كلمــة خفيفـة على اللســان ثقيلة في الميـزان وفي التكـاليف . . ولهـا طـريق واحـد أيضـاً هــو منـاهضــة المجموعة المترفة المتسلطة علينـا ، الذين هم دعـائم أركان الفتنـة ،

الذين شربنا بصفونا كدرهم ، وخلطنا بصحتنا مرضهم ، وأدخلنا في حقّنا باطلهم !

لقد كانت مشكلتنا مع هؤلاء قبل عصر الاستعمار الغربي مشكلة (بسيطة) تتلخّص بانحرافهم عن الإسلام الذي كان معترفاً به كقاعدة للحكم والحياة اعترافاً عاماً شاملاً عند المستضعفين والمترفين . . ولكنها أصبحت بعد الغزو الغربي مشكلة (مركبة) دخلت عليها ثلاثة أبعاد جديدة إذا نظرت إلى كل واحد منها تراه أسوأ من صاحبيه :

البعد الأول : بعد كمّي ، فقد زادت كمية مخالفات الإسلام التي يرتكبها هؤلاء عن عصر ما قبل السيطرة الغربية أضعافاً مضاعفة . . سواء في سلوكهم الشخصي ، أو في سرقتهم لأموال الناس وظلمهم إياهم ، أو في إشاعة الفساد بين الناس . . فقد كان الوضع الاجتماعي العام يفرض على أصحاب النفوذ في بلادنا مستوى من الرقابة أكثر ممّا هو اليوم ، ويشكل قدراً من التأثير على مواقعهم ومناصبهم أكثر ممّا يشكل اليوم . ولعل الفساق السابقين في عصر الدولة العثمانية من الأمراء والفقهاء والوجهاء ورؤساء القبائل يعتبرون متدينين بالقياس إلى إخوانهم اليوم !

والبعد الثاني : بعد نوعي ، فالأصل الذي كان مسلّماً به قبل عصر الاستعمار الغربي وهو أن الإسلام قاعدة الحكم والحياة ، والذي كان يرجع إليه الجميع في قياس الأمور وفي محاسبة أصحاب النفوذ . . أصبح غير مقبول لدى أصحاب النفوذ بعد الغزو الغربي . . إمَّا كفراً بالإسلام ، وبهتاناً عليه بأنه لا يصلح لعصرنا ، أو اعتذاراً بعدم إمكان تطبيقه بسبب الظروف الاجتماعية في هذا المجتمع أو ذاك ، أو اعتذاراً بالظروف الدولية من هذه الدولة الكافرة أو تلك ! أو غير ذلك من الأعذار الواهية !

ولكن السبب الأساسي في ذلك أن أعداءنا يريدون أن يقضوا على أصولنا الحضارية والثقافية ويبعدوننا عنها ويقطعون صلتنا بها ، وينشرون بدلها ثقافتهم في شكل الحكم والمجتمع والقيم والعلاقات والتبعية لهم ، بل وقتل الذات من أجلهم ! وكل ما نسمعه من مناقشة في بديهة أن يكون الإسلام قاعدة الحكم والحياة في بلاد المسلمين هو من تأثير الغزاة الغربيين ثم الشرقيين ، إمّا تأثيراً ثقافياً مسخ ذهنية وشخصية بعض أبنائنا ، أو تأثيراً سياسياً زرع الخوف من نفوذهم وشبكاتهم في بلادنا ، ومن قوتهم خارج بلادنا ! .

والبعد الثالث : نوعي أيضاً وهو أن أصحاب النفوذ في بلادنا العربية كانوا يعتمدون في نفوذهم على السند المحلي ، ولذلك كان تأييد الناس وعدمه يؤثر عليهم بشكل وآخر . . أما بعد السيطرة الغربية فقد (استغنى) هؤلاء الظلمة عن أي سند محلي لأنهم صاروا يستمدون نفوذهم من الخارج ، من أعداء الأمة المسيطرين عليها . . وأصبح الرأي الشعبي العام لا يعني شيئاً أساسياً بالنسبة إليهم ما دام الأسياد يساندونهم ، وما دام بإمكانهم خنق أنفاس الرأي العام ومنع تحوله إلى تيار سياسي وعمل ثوري مضاد لهم ، وما دام يمكنهم تزويره وإظهار نقيضه بوسائل الإرهاب والإعلام التي يحتكرونها !

إن هذا التركيب في المشكلة ، من اندفاع هذه المجموعة في مخالفة الإسلام بلا حدود ، ومن تبنّيها لإشاعة الثقافة الغربية ومحاربتها للثقافة الإسلامية ، واعتمادها في كل ذلك على الإسناد الغربي . . وغيرها من الأمور . . تجعل نهضتنا وعودتنا إلى الإسلام مجدداً أكثر صعوبة ، وتجعل مقاومتنا لهؤلاء أكثر تكاليف . ولكنها اعلى أي حال الحلّ الوحيد لمشكلة حياتنا ، والطريق الوحيدة لإرضاء

الله تعالى ورسوله (ص) التي يرخص فيها كل غال ، وتحلو فيها الأتعاب والآلام والسجون والتشريد وبذل الدماء .

*

إن الحديث عن العمل الإسلامي المطلوب في بلادنا العربية حديث طويل . . وفي نفس الوقت ليس حديثاً عن أمر جديد ، فالعمل للإسلام لم ينقطع في مجتمعاتنا منذ صدر الإسلام والحمد لله . . وحتى في أحلك ظروف الأمة عندما تمكن أعداؤها أن يسيطروا عليها في مطلع القرن ويقوّضوا كيانها السياسي المتمثل بالخلافة . . فقد كانت هذه الهزّة سبباً لأن تراجع الأمة ذاتها مراجعة عميقة شاملة ، وأن ينطلق العمل للإسلام فيها مجدداً بأساليب تطمح أن تكون في مستوى التحدّي الكبير لوجودها وعقيدتها وحضارتها . .

إن هذه النقطة بالذات (أصالة أساليب العمل الإسلامي وكونها بمستوى تحدّي العدو ومستوى هدف الإسلام) هي في اعتقادي أهم النقاط التي تحتاج إلى جلاء وإلى حديث بين العاملين للإسلام . وقد طرحت علينا تجربة الثورة الإسلامية في إيران مسائل أساسية في هذا المجال ينبغي أن نناقشها بصدر منشرح ، حتى نصل إلى وجه الحق فيها فنتبناه ونسلكه .

*

من هذه المسائل : مسألة (قيادة العلماء) ليس في مقابل قيادة السياسيين الغربيين فقط ، بل وفي مقابل قيادة المثقفين والسياسيين المسلمين غير العلماء أيضاً ، وفي مقابل قيادة الأحزاب والتنظيمات الإسلامية أيضاً .

لماذا لم يعط العاملون للإسلام في بلادنا العربية هذه المسألة حقّها من الاهتمام والبحث ؟

وهل صحيح ما يقال من أن الفرق بين موقع عالم الدين في الأمة في إيران وموقعه في مجتمعاتنا العربية فرق نوعي وليس كميّاً ؟
وأياً كان هذا الفارق فهل من الصحيح أن يبقى ؟
وما هي الأساليب التي يجب أن نتبعها لاستعادة موقع عالم الدين في الأمة ؟

وما هو المقياس الإسلامي الذي نعلمه للناس في التفافهم حول العلماء وإطاعتهم لقيادتهم ؟ . .

وما هو الموقف من علماء السوء المضلّين المنظرين لحكم الطاغوت والساكتين عنه ؟ .

وكيف يمكن لعلماء الدين أن يقوموا بدور القيادة والتبليغ والهداية والتوجيه في فئات الأمة ، ويحافظوا على مقام الأبوة للجميع ولا يكونوا طرفاً داخل الأمة ؟ .

وما هي الضمانات أن لا يتحوّل علماء الدين إلى طبقة فيصبحوا عاملاً سلبياً في حركة الأمة بدل أن يكونوا عاملاً إيجابياً في قيادتها وإطلاق كل طاقاتها وتحريك جميع فئاتها ؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير من فروع مسألة قيادة العلماء يجب أن تشغل مفكري وقياديي العمل الإسلامي في بلادنا العربية ، وأن يصلوا فيها إلى إجابات مبلورة ، ويقدموها إلى الأمة .

ومن المسائل التي طرحتها الثورة الإسلامية في إيران مسألة (عدم كفاية العمل التنظيمي الحزبي منه والحركي ، السياسي منه

والمسلّح) وحجتها في ذلك أن ركائز التحدّي الغربي الكافر في بلادنا من القوة بحيث لا ينهض بإزالتها تنظيم أو حزب أو فئة مهما كانت كبيرة . . وأن تحطيمها يحتاج إلى موج أكبر وزلزال أشد ، إلى كتل جليدية هائلة وقطع جبلية ضخمة . . وليس ذلك إلاَّ موج الأمة بكامل فئاتها وطاقاتها . . والعمل الفئوي الذي لا يشمل الأمة عمل نافع ، ولكنه جزء من عملها وليس كل عملها . . وقيادته جزء من قيادتها ، ولكنَّها ليست كل قيادتها . .

كنَّا نطرح في التنظير للتنظيم الإسلامي أن التنظيم وسيلة لتحريك الأمة وليس غاية . . وأنَّه طريقة لاستيعاب وشمول طاقات الأمة وليس بديلاً عنها . .

وأنَّه بالنتيجة نفس قيادة العلماء للأمة ولا اثنينية بين قيادة التنظيم وقيادة العلماء .

ولكن ما مدى انطباق هذا التنظير على واقعنا التنظيمي وعلى واقع أمتنا ؟

ما مدى الموازنة التي توفقت لها الحركات الإسلامية في بلادنا بين وسيلية عملنا التنظيمي وبين غائية عملنا الجماهيري . . ؟ وكم استهلك العمل التنظيمي من سنوات عمرنا وجهدنا وإلى الآن ، وكم بذلنا من وقت وجهد مع جمهور الأمة في مساجدهم وأسواقهم ومفاهيمهم وقراهم وحقولهم ومناسباتهم وأزماتهم السياسية والاقتصادية وعطشهم الفطري الصافي إلى الإسلام والتحرك به . . ؟

وما هو السبب الكامل في أن الأمة لم تتحرك معنا كما يجب في حالات صراعنا ومحنتنا ؟ ولم تتحرك كما ينبغي في حالات مدّنا وقوتنا ؟ هل صحيح أن كمية الخير في الأمة لا زالت قليلة ، وهي

معدن كل خير ؟ أم أننا لم نبذل الجهد المطلوب مع الأمة ، واستهلكنا طاقتنا في التنظيم فتحول عن كونه وسيلة . . ؟ وقدمنا إلى الأمة قيادة التنظيم أو قيادة المثقفين ، والأمة بفطرتها تريد قيادة العلماء ؟

هل يمكن أن نحافظ على وسيلية التنظيم وإبقائه مجرد (أداة) لإيصال الإسلام وتحريك الأمة به ؟ وما هي الحدود المحرمة التي إن تجاوزها الأعضاء أو القيادة وقع الاختلاط بين الوسيلة والغاية ؟

ما مدى إصابتنا بأعراض وأمراض النخبوية والنوعية وزهدنا في جمهور المستضعفين من سكان الأكواخ والأحياء الفقيرة والأمّيين . . ؟ وهل يمكن لتنظيم في ظروف مجتمعاتنا أن يستوعب فئات الأمة وطاقاتها بدون أن ينتهي إلى نظرية الحزب الواحد فيقع في مشكلة فرض السيطرة ، أو إلى نظرية الحزب الحاكم فيقع في مشكلة الطرفية في مقابل بقية الأمة ؟

وما معنى نفي الاثنينية بين قيادة التنظيم وقيادة العلماء ، والتنظيم يقتضي أن يكون مركز القرار لقيادته المحددة في مجموعة أشخاص أو شخص واحد ، وقيادة العلماء تقتضي أن يكون مركز القرار لأكفأ علماء الدين أو لعدد محدود من العلماء ؟ .

*

ومن المسائل التي طرحتها الثورة في إيران (أسلوب تربية الكوادر التي تقود الأمة) ، فقد طرحت الثورة أن إعداد كوادر الدرجة الأولى يتمّ بأن يتوافد أبناء الأمة الراغبون في طلب العلم على المعاهد الدينية ، ثم يمارسون عمل التبليغ في الأمة بإمامة الناس في المساجد والخطابة والتدريس . . الخ . والذين ينبغون من هذا المحضن ويثبتون كفاءتهم وتقواهم يقودون الأمة . . وأما كوادر الدرجة الثانية

فهم الـذين يتربـون على أيـدي العلمـاء والمبلغين ويتثقفـون بثقـافتهم ويعملون معهم ، من المتعلمين والمختـصيـن وأصحـاب الـمـواهب والقابليات القيادية في قطاعات المجتمع المختلفة .

بينمـا نعتمـد نحن في الحـركـات الإسـلاميـة أسلوب محضن التنـظيم يدخـل فيه العضـو فنعدّه لقيـادة الأمة بتثقيفـه بثقافـة الحـركـة وتـوجيهه في عمله التنـظيمي وعمله مع الأمـة ، إذا كان لـه عمل مـع الأمة .

تـرى أي الأسلوبين أصـحّ وأبعـد عن الـوقـوع في الافتـراض النظري المجرّد ؟ .

وهل يمكننا أن نجمع بين حسنات الأسلوبين ؟ .

وهل يتحمل أسلوبنـا في إعداد الكـوادر قدراً من المسؤوليـة في إخفاق كوادرنا في الالتحام مع الأمة وتحريكها ؟ .

*

ومن المسـائل التي طـرحتها الثـورة في إيـران مسـألـة (الـطرح العبادي ، والطرح الأخلاقي للإسلام) .

ينبغي أن نسأل أنفسنا لماذا تستجيب الأمة للاتجاهـات الصوفيـة والروحية أكثر ممّا تستجيب للحركة الإسلامية ؟ هل يكفي في الإجابـة أن نقول : إن الحركة الإسلامية أكثر كلفـة على المسلم من الدعـوات الصوفية ؟ أم ينبغي أن نكتشف أيضاً أن الأمة تبحث عن البعد العبادي الروحي في الإسلام فتحس به عند غيـر الحركـات أكثر ممّـا تحس به لدى الحركات ؟ .

وينبغي أن نسـأل أنفسنا : هـل يكفي أن نقدّم إلى الأمـة البنـاء القاعدي للإسلام من دون البناء الفوقي ؟

أن نقدّم عقيدة الإسلام وشريعته (معقلنة معلمنة) بدون صرحها العلوي الذي توجّها به الإسلام من الأخلاق والعاطفة ؟

أن نقدّم لها الجذور والجذوع والفروع بدون الخضرة والنضرة والعطر والنسيم ، في الأغصان والأزهار والثمرات . . ؟

هل يكفي أن نقدّم لها الطرح الإسلامي السياسي (ممنطقاً مقنناً مقنعاً للعقل) بدون نبض القلب وخفق الضلوع وحرارة الدموع وأشواق الروح اللامحدودة . . ؟ بدون أن نعلمها البكاء بين يدي الله تعالى في المحاريب وفي البيوت لظلامة عباد الله المستضعفين من النساء والرجال والولدان . . ونعلمها الغضب والحنق على ظالميهم وغاصبي حقوقهم ؟ .

إن البعد العبادي والأخلاقي في الإسلام ليسا من الأبعاد العادية التي تشكل جانباً من الإسلام ، نلتفت إليه بقدر ونعيش فيه بعض الوقت ونقدّمه إلى الأمة كذلك ، بل يشكلان طابعاً وإطاراً وصيغة لطرح الإسلام . . يشكلان جذوة متقدة ملتهبة ومخزوناً خاصاً في شخصية العاملين والعمل ينتج عنه أنواع من اللهيب والنور والالتياع والحنين والبكاء والأشواق . . فيشكّل ذلك تياراً من العاطفة الربانية الإنسانية يملأ أجواء العقل والنفس ، ويسري في الأمة شبيهاً بما سرى فيها من رسول الله (ص) ، ويحركها كما فعل في صدر الإسلام .

فهل كان اهتمامنا بتفجير هذا التيار في الأمة بالمستوى المطلوب ؟ أم أنا صببنا أكثر جهودنا على التوعية الفكرية والسياسية بأسلوب رياضي ، وعلى التوعية التربوية بأسلوب فيه الكثير من الميكانيكية والقليل من الروح ، ولم نوف قضية التعبد وقضية الأخلاق في الإسلام حقّها .

لماذا استطاعت الحركة الإسلامية في إيران أن تفجّر تيار الروحانية العابدة وتيار الأخلاقية المرهفة في الجماهير . . ولم نستطع نحن تحقيق ذلك في بلادنا العربية ؟ .

*

ومن المسائل التي طرحتها الثورة في إيران مسألة (العلاقة بالأنظمة التي لا تحكم بالإسلام) .

فقد طرحنا في الحركة الإسلامية في بلادنا مسألة جاهلية الثقافة غير الإسلامية وجاهلية الأنظمة التي لا تقوم على الحكم الإسلامي . . وحتى جاهلية مجتمعات المسلمين التي يحكمها غير الإسلام .

كما طرحنا مسألة استعلاء الإيمان ونمط تعامل المسلم مع الطاغوت ، هذا الاستعلاء الذي يقوم على معادلة : أن المسلم العادي أعلى من أئمة الطاغوت ، أي أعلى من ريغان وأندربوف وأضرابهما . . فكيف بالمسلم القيادي ؟ وكيف بالطواغيت الصغار الذين يستمدّون قوتهم من إسناد الطاغوت لا من الإسلام واختيار الأمة ؟

ولكن بقي علينا أن نتقدّم خطوة من مرحلة المفاهيم الاعتقادية هذه إلى مرحلة الفقه واستكشاف الأحكام الشرعية ، التي تحدّد علاقة المسلم وعلاقة الحركة الإسلامية وعلاقة الدولة الإسلامية بهذه الأنظمة على ضوء الواقع المعاصر .

فما هو النظام الذي تصفه بالجاهلية والطاغوت . . هل أن أشخاصه الحاكم والوزراء فقط ؟ أم يشمل الذين هم جزء من سلطة الحاكم ومظهر لسلطانه من كبار ومتوسطي الموظفين ؟ وما هو حكم الوظيفة والعمل في أجهزة الدولة التي لا تحكم بالإسلام ؟ الأجهزة

التي تشرع القوانين الوضعية ، والأجهزة التي تنفذ الظلم على المسلمين ، والأجهزة التي تؤدّي أعمالاً هي في الأصل خدمات للمسلمين ؛ مثل شقّ الطرقات وإنشاء المرافق العامة وصيانتها ، وأعمالاً صارت بسبب الظلم خدمات للمسلمين مثل تخليص المعاملات وأخذ إجازات العمل والسفر . . إلخ .

بقي علينا النقدّم خطوة نحو فقه التعامل مع النظام ، تعامل المسلم العادي ، وتعامل المسلم القيادي ، وتعامل الحركة الإسلامية والدولة . . فحالة الفراغ الفقهي أمام الحركة الإسلامية وأمام الأمة تنتج عنها أضرار كثيرة . . ويختلط فيها الحلال بالحرام ، والجاهلية بالإسلام .

وبقي علينا أن نقدم هذا الموقف الفقهي إلى الأمة في طرح سياسي وعملي يجسّد مصداقيتنا . لقد قدّم الشهيدان مصطفى شكري وجماعته وخالد الإسلامبولي وجماعته موقفاً فقهياً من النظام والمجتمع ومصداقية . . ومهما ناقشناهم فلا نستطيع إلّا أن نحترمهم لأنّهم ملأوا مساحة الفراغ هذه وقدّموا أطروحة متكاملة ، وصدقوا مع أنفسهم . . وكتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم رحمهم الله .

وقدّمت الثورة الإسلامية في إيران موقفاً فقهياً آخر من النظام والمجتمع ، وممارسته بمصداقية ، ودفعت الأمة في إيران إلى ممارسته . .

وبقينا نحن في الحركة الإسلامية في الوطن العربي نخشى أن نملأ منطقة الفراغ الفقهي والسياسي في العلاقة مع الأنظمة ، حتى لا نخسر أعضاءنا وحركتنا ، مع أن هذا النوع من التفكير خطأ استراتيجي في العمل للإسلام ، وخضوع لحساب ومعادلة غير إسلامية . .

وكانت النتيجة أن أصبحت هذه المنطقة الفراغ بحراً يغرق فيها مقياسنا الإسلامي ، ثم تغرق فيه الحركة . . ! .

*

ومن المسائل التي طرحتها الثورة في إيران مسألة (الحالة الاستشهادية) في المسلم وفي الحركة وفي الأمة .

هذه الحالة الربانية التي تقدس المسلم والعمل للإسلام وتباركه ، والتي تعني لنا الكثير الكثير :

تعني أن نكون على استعداد حقيقي للموت ومغادرة الدنيا .

تعني أن نجعل عدّونا في حيرة حقيقية أمام منطق ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ . إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ .

تعني أن يبرز في عملنا طابع ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ .

تعني أن تكون جاذبية أشواقنا إلى لقاء الله ونعيمه أقوى من جاذبية الحياة الدنيا ، بما فيها عمل أحدنا للإسلام .

تعني أن نفرح فرحاً حقيقياً لموت من يموت منّا وأذى من يؤذى في سبيل الله ، ونشيع هذا الفرح في الأمة .

تعني أن يكون في يدنا دائماً المبادرة والإقدام والفعل والسيطرة على المعادلة مع العدو ، وأن لا تستقر الكرة في مرمانا ، ولا تخرج من مرماه إلاَّ لتعود بعد حين .

لقد قدمت الحركة الإسلامية في بلادنا أفواجاً وأفواجاً من الشهداء بلغوا الألوف ، وهم من خيرة أبناء الإسلام ، وفيهم معجزات إسلامية في الصمود أمام التعذيب الوحشي والإغراء . . ولكن المسألة

هنا : لماذا لا نصل إلى الحالة الاستشهادية إلاَّ في يد الجلاد ؟

لماذا مارست الحركة الإسلامية في إيران حالة الاستشهاد بطريقة الفعل والمبادرة ، فقدمت أكثر من ٩٠٪ من شهدائها في حالة الفعل في الشوارع والساحات والأزقة . . وقدّمنا أكثر من ٩٠٪ من شهدائنا بطريقة تلقّي الفعل والترقب حتى يقبض علينا الظالم كما يقبض الذئب على فريسته المظلومة ويقتلها ؟

*

ومسائل أخرى عديدة طرحتها الثورة الإسلامية في إيران ، ليس هنا مجال تعدادها وتفصيلها . . ينبغي للحركة الإسلامية في بلادنا العربية أن تبحثها في إطار المراجعة الشاملة والأطروحة الكاملة التي تحتاج إليها ، إذا أردنا حقاً أن نعيد أمتنا إلى موقعها الطليعي الشاهد على الأمم . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ ﴾ .

أهم نقاط القوة والضعف في الفرس

مهما يقل عن حضارة الإمبراطورية الفارسية قبل الإسلام فإنَّها من الإمبراطوريات الطاغوتية التي أدانها الإسلام وجاء لإنقاذ الشعوب من ظلمها .

ومهما يقل عن الديانة المجوسية التي كان عليها الفرس واعتبرهم الإسلام بسببها نوعاً من أهل الكتاب . . فإنَّها ديانة جاهلية مشركة جاء الإسلام لإزالة ظلامها بنوره .

وقد كان من أبرز مقومات تلك الإمبراطورية والجاهلية التعصب القومي والمنطق القومي الذي لم يكن عند الفرس أقل منه عند غيرهم ، إن لم يكن أكثر بحكم كونهم أصحاب امبراطورية استعمارية .

ولا نستطيع القول إنه بانهيار الإمبراطورية الفارسية السريع بالفتح الإسلامي ودخول الفرس في الإسلام أفواجاً . . قد حدث فيهم تحول جذري ، فعوفوا من مرض التعصب وتبنوا منطق الإسلام العالمي ، فإن مثل هذا التحول يحتاج عادة إلى وقت أطول ، خاصة أن المجتمع الإسلامي الذي دخلوا فيه لم يكن معافى من مرض التعصب .

لقد شكل الفرس في مدة قصيرة قطاعاً هاماً من مجتمع الدولة الإسلامية ، ولكنهم كانوا كغيرهم من الشعوب في الابتلاء بمرض التعصب الذي لم يسلم منه كما ذكرنا إلّا الأوساط الواعية المتقية من الأمة .

وعلى امتداد تاريخنا الإسلامي ظهرت من الفرس تحركات ونشاطات لا نستطيع أن نبرئها من مرض التعصب القومي . فحركة أبي مسلم الخراساني ، وحركة البرامكة ، وحركة الفضل بن سهل والفتح بن خاقان ، وغيرها . . ليست بعيدة في اعتقادي عن مرض التعصب القومي .

ويحسن في هذا المجال أن نلاحظ المواقف الحاسمة للأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) من هذه الحركات وقادتها ، والذي وصل إلى حدّ مساعدتهم للخلفاء العباسيين ـ مع رأيهم السلبي فيهم ـ من أجل إحباطها والقضاء عليها .

نعم تستوقفنا في القرون الأخيرة ظاهرة أن الفكر القومي والحركات القومية في إيران لم تعد تلاقي إلّا نجاحاً محدوداً وموقتاً ، في حين أن الفكر الإسلامي والحركات الإسلامية تلاقي تجاوباً كاسحاً . .

ففي الوقت الذي كان العالم الإسلامي يئن من مرض الانقسامات القومية والإقليمية ، نجد الإيرانيين يثورون في حركة الصفويين الهاشميين ويسلمونهم حكم إيران .

وفي الوقت الذي نجح الغربيون في بعث الروح القومية لتفتيت الدولة العثمانية وكانت الأفكار القومية في سوريا ومصر والعراق وتركيا وغيرها . . مقبولة عند جماهير شعوب الأمة ، كان الإيرانيون يخوضون صراعاً مع النفوذ البريطاني ومع الملوك القاجاريين القوميين الغربيين ، واستطاعوا بعد أحداث دامية أن يفرضوا في سنة ١٩٠٦ م مادة تنصّ على رقابة خمسة من الفقهاء على الدستور ، وتعطيهم حقّ نقض القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية .

وفي الوقت الذي كانت مخططات التغريب ذات الأثواب القومية والإقليمية تسير في العالم الإسلامي على قدم وساق على يد أتاتورك وأشباهه . . كان الإيرانيون يقاومون رضا خان القومي الغربي مقاومة ضارية ، وكانوا ينظرون بإعجاب وتقديس إلى منظمة (فدائيان إسلام) التي يرئسها طالب علم هاشمي (الشهيد السيد نواب صفوي) لأنها أردت برصاصها فيلسوف الحركة القومية الكسروية ! .

ومن أواخر هذه الظاهرة أن النشاطات القومية لرضا خان وابنه محمد رضا من قبيل محاولات إحياء أمجاد كورش والأكاسرة وربط الشعب الإيراني بها ، كانت مواد إدانة لهما في نظر الشعب الإيراني وأحد العوامل التي دفعتهم إلى الثورة الإسلامية بقيادة مرجع هاشمي ! . .

عوامل الظاهرة الإسلامية في إيران

ليست ظاهرة تراجع العصبية القومية التي تحدثنا عنها إلاَّ جزءاً

من ظاهرة أكبر هي الظاهرة الإسلامية في إيران التي شهدنا انفجارها في الثورة . فما هي العوامل التي أنتجت هذه الظاهرة ؟

إن فطرة الإسلام وسرّه الذي يفعل الأعاجيب في النفس البشرية وفي الشعوب هي الأصل ما في ذلك شك . . ولكن ما هي العوامل التي جعلت قلوب الإيرانيين تحمل هذا السر بحيوية وفعالية ؟

قد يخطر ببال الباحث في تاريخ إيران أن يرجع ذلك إلى الحركة الصفوية التي كانت في بداياتها أشبه بالاتجاه الصوفي ، وأثرت في جماهير الإيرانيين ، وتعاظم أمرها حتى حكمت إيران . فقد أولى ملوكها اهتمامهم بالحوزات العلمية وبالعلماء والخطباء في أنحاء إيران ، وأعطوا المراجع مكانة خاصة ، حتى أن الشاه طهماسب أصدر مرسوماً أمر فيه أجهزة الدولة بإطاعة أمر المرجع المعاصر له المحقق الكركي العاملي رحمه الله ، وذكر فيه أن الفقيه الجامع للشرائط هو الحاكم الحقيقي ، وأنه يتشرف بامتثال أوامره وتوجيهاته ، وأنه يحكم بالنيابة عنه بإجازة منه . .

ولكن الصحيح أن الحركة الصفوية وإن أثرت في تعميق الظاهرة الإسلامية في إيران فقد كانت هي نتيجة لهذه الظاهرة أكثر من كونها سبباً . . فلو لم يكن تيار التدين قوياً في جماهير الإيرانيين لما قبلوا بالصفويين حكاماً وهم هاشميون من أصل عربي ، ولما قبلوا بمرجعية المحقق الكركي والشيخ البهائي وهما عربيان من لبنان .

في اعتقادي أن عوامل الحالة الإسلامية هي أبعد زمناً وأعمق من الحركة الصفوية ، وهي خمسة عوامل : سلمان الفارسي . والقضاء على الكسروية . وقم . وهجرة الهاشميين إلى إيران . وقابلية الإيرانيين . . وأن هذه العوامل أشبهت أن تكون خطة تلاقت نتائجها

وتفاعلت في شخصية الإيرانيين في التاريخ البعيد والقريب تفاعلاً هادئاً وعميقاً ، ولم نشعر بها إلاَّ عندما حصل في تراكمها الكمي تطور نوعي ، وفاجأنا الإيرانيون بثورتهم الإسلامية .

فسلمان الأصفهاني الذي تشبه قصته الخيال ، المهاجر في طلب النصرانية إلى الشام ثم إلى نينوى وعمورية . . ثم هاجر في انتظار النبي الموعود إلى الحجاز فباعه الأعراب إلى يهود خيبر على أنه عبد لهم ، ثم باعه يهود خيبر إلى أقربائهم من يهود المدينة ، وكان يتسقط أخبار ظهور النبي (ص) في مكة ، وفي أول فرصة أمكنته ذهب خفية عن مالكيه لرؤية النبي (ص) في قباء أول هجرته إلى المدينة ، ولمّا رأى فيه العلامات والآيات أسلم على يده ، وساعده النبي (ص) والمسلمون حتى أعتق نفسه من اليهود ، وحتى بلغ سلمان الفارسي رضوان الله عليه مكانة جعلته من حواريي النبي (ص) فقال فيه : « سلمان منَّا أهل البيت » .

وشارك في معارك الإسلام مع النبي (ص) وفي معارك الفتوحات ومنها فتح بلاده والقضاء على الكسروية ، التي كانت حاجزاً يمنع الفرس من سماع صوت الإسلام ورؤية نوره .

ولقد أقر الله عين هذا الفارسي المشرّد ، فلم يرحل من الدنيا حتى صار باقتراح علي (عليه السلام) وأمر الخليفة عمر بن الخطاب والياً على المدائن وحكم عاصمة الأكاسرة بالإسلام !

لقد كان سلمان الفارسي شخصية ذات وقع خاص في قلوب المسلمين ، وذات جاذبية خاصة للفرس ، شدتهم لأن يسمعوا إليه ويشعروا أنه رسول النبي (ص) إليهم ، بعد أن منعهم كسرى أن يسمعوا من النبي (ص) مباشرة ، ولم يقتصر هذا التأثير على فترة حياة

سلمان بل امتدّ في أمّتنا الإسلامية وفي أجيال الفرس خاصة . .

وقد أشرنا في الحديث عن قم إلى هجرة الهاشميين إليها ، ونستطيع بنظرة فاحصة في تاريخ إيران الإسلامي وفي تاريخ الهاشميين أن نلمس التأثير العميق الواسع للسادة الهاشميين في تركيز الإسلام وتعميقه في الإيرانيين .

فمن ناحية زمنية بدأت هجرة الهاشميين منذ صدر الإسلام وتواصلت بكثافة على مدى القرون الثلاثة الأولى . . وكانت بين مدّ وجزر في القرون القريبة . ومن ناحية نوعية وعددية كان المهاجرون الهاشميون في الغالب من نوعية الرواة والفقهاء والثائرين الذين يطلبون حقلاً لتبليغ معارفهم الإسلامية ، أو وسطاً للنهوض معهم في ثورة ، أو ملجأ يحميهم من السلطة الحاكمة .

ولعل عدد هذه النوعية من الهاشميين بلغ في مجموع إيران منذ صدر الإسلام إلى اليوم عشرات الآلاف ، ممّا يجعل إيران المركز الأول للثورة والفقه لدى بني هاشم ، بالرغم من انتشارهم في أجزاء الوطن الإسلامي الأخرى .

ويتضح ذلك بمراجعة ثورات الطالبيين في أمثال كتاب (مقاتل الطالبيين) وكتاب (مناقب آل أبي طالب) وكتاب (روضات الجنات) في تراجم العلماء وغيرها . . وبمراجعة هجرات بني هاشم إلى القارة الهندية وشرق آسيا التي انطلق أكثرها من إيران . ويبلغ عدد أبنائهم اليوم في إيران بضعة ملايين نسمة ! ويكفي أن نعرف أن منهم الإمام الخميني دام ظلّه والسادة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والعديد من الوزراء وكبار المسؤولين وعدد كبير جداً من العلماء والمسؤولين في أنحاء إيران .

ومن ناحية جغرافية غطّت هجرة الهاشميين كل مناطق إيران : من بلاد ما وراء النهر التي هي تحت الاحتلال الروسي فعلاً ، إلى محافظة خراسان فامتداد ساحل قزوين إلى حدود تركيا شمالاً ، ومن حدود باكستان وأفغانستان إلى سيستان وبلوشستان وهرمز والأهواز وايلام جنوباً . . إلى كل مدينة ومنطقة هامة في إيران . . !

ويهتم الإيرانيون باحترام العلماء والصالحين ، والهاشميين منهم بصورة خاصة ، ويسمون الهاشمي (السيد أو الشريف) كما يسميه العرب أو (إمام زاده) أي ابن الإمام لأنّه من ذرية أحد الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) .

وعن قابلية الإيرانيين التي توفّرت لها العوامل الأربعة المتقدمة نقتصر على الصفات الثلاث التي يدلّ عليها الحديث النبوي الشريف المتواتر « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَو كَانَ الإيمانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِن فَارِسٍ » هي : الإيمان . والهمة العالية . والنفس الطويل .

صلّى الله عليك يا رسول الله ما أبلغ منطقك وأجمعه . إن الإيمان الذي هو التصديق بالإسلام والتفاعل معه منسجم مع الفطرة البشرية وسهل التناول على الناس ، فلماذا افترضت أن يكون معلقاً في الثريا وأن رجالاً من الفرس يتناولونه لا محالة ؟ .

ولكن حديث النبي (ص) ليس عن حركة شخص نحو الإيمان ليقال إن الإيمان في متناول يده ، بل عن حركة شعب يكون بديلاً للعرب إن هم تولوا عن الإسلام « فَقَالُوا : يَارَسُولَ آللَّهِ مَن هَؤُلاَءِ الَّذِينَ إِن تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدِلُوا بِنَا ؟ فَضَرَبَ عَلىٰ مَنْكِبِ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ : هٰذَا وَقَوْمُهُ . . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإيمَانُ مَنُوطاً بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِن فَارِسٍ » ومثل هذه الحركة قد تكون طويلة ودونها الصعاب ، فهي تحتاج إلى

مثل هذه الصفات التي يتحرك بها الإيرانيون نحو الهدف ، ويصلون . . مهما تكن الطريق والصعاب .

وقد اعتبرناها ثلاث صفات : الإيمان الذي هو الهدف . والهمة العالية التي تدفعهم إليه . والدأب والنفس الطويل الذي به يصلون . وقد ورد في بعض صيغ الحديث الشريف لفظ العلم والحكمة بدل الإيمان ، ولم نعتبرهما صفتين مستقلتين لأن الإيمان بمعناه الكامل يتضمّن العلم والحكمة ، ولأن تناوله من الثريا يتوقّف على العلم والحكمة . .

ولكن ما يريد النبي (ص) أن يقوله في هذا المثل البليغ ليس تعداد صفات وأنها ثلاث أو خمس أو عشر . . إنه يقول : إن في هؤلاء القوم (حالة أو نزعة حبّ الحق والسعي إليه بدون شروط وبدون حدود) وهي تتضمّن وتستلزم عدداً من الصفات سوف توجد في قوم سلمان بأعمق ممّا توجد في غيرهم ، ولهذا يصل رجال منهم إلى مستويات إيمانية لا يصل إليها غيرهم ، ويقودون قومهم ويحملون الإسلام إلى العالم .

ولكن . . هل يتحدث النبي (ص) عن إمكانية هذا البديل أو عن حتميته ؟ أمّا الآية الكريمة : ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ فهي تتحدث عن بديل العرب كإمكانية وفرضية مشروطة بأن يتولّى العرب عن النهوض بمستلزمات الإسلام .

وأمّا النبي (ص) فهو يتحدّث في تفسير الآية بشكل يوحي بحتمية وقوع هذا الاستبدال الإلهي في المستقبل . ويمكن القول إن الفرضيات الإلهية في القرآن الكريم أو القضايا المشروطة ليست سواء من حيث احتمال وقوعها وعدمه ، وإن أنواعاً من الفرضيات السياسية

والاجتماعية في القرآن تدلّ على حتمية وقوعها ، كما يدلّ عليه استقصاء هذا النوع . ولكن الأفضل أن نأخذ في هذا الموضوع بالقدر المؤكد المسلّم به وهو مجرد الإمكانية في الآية ومجرد الإيحاء بوقوع استبدال العرب بالفرس ، في التفسير النبوي وهما لا يشكّلان دليلاً .

فلا بدَّ لإثبات حتمية وقوع الاستبدال من دليل من غير الآية والحديث الشريف ، والحق أن هذا الدليل موجود أولاً في بداهة تولي العرب عن الإسلام في عصرنا الحاضر ونهوض قوم سلمان به . وثانياً في الأحاديث الشريفة المتعددة التي تدلّ على أن الفرس ينهضون بالإسلام في آخر الزمان ، ويقاتلون العرب عليه عوداً كما قاتلهم العرب عليه بدءاً ، وأنهم يمهدون للمهدي (عليه السلام) ويكونون أنصاره . . إن مجموعة هذه الأحاديث المتواترة في المعنى على الأقل تدلّ على حتمية وقوع هذا الاستبدال وتفسّر لنا القضية الشرطية في الآية الكريمة ، والحالة التي يقسم عليها النبي (ص) بقسمه الحاسم المقدّس « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » .

بل توجد أحاديث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير الآية تصرّح بأن عملية استبدال العرب قد تمّت « بأبناء الموالي المعتقين » الذين أقبلوا على الإيمان وعلوم الإسلام في حين بدأ تراجع العرب[1] .

---

(١) تفضل الصديق العلامة الخالصي ببعض المناقشات حول عوامل الظاهرة الإسلامية في إيران تضمنت ملاحظات قيمة ، وأسجل تقديري بالخصوص لعامل جديد ذكره سماحته لم أجده عند غيره وهو : أن التكوين الجغرافي لإيران يختلف عن غيره ، فبينما تشكل المدن في بلادنا العربية مثلاً واحات في وسط الصحراء وتقوم الصحراء بدور تبديد المخزون والتجربة الحضارية والاجتماعية . . تشكّل المدن في إيران حزاماً دائرياً للصحراء ممّا يجعل الصحراء الإيرانية تتأثّر بحزام المدن ولا تستطيع تبديد المخزون الحضاري . ولذلك يحتفظ الإيرانيون بالتجربة بدرجة عالية جدّاً .

كيف يتناول الفرس الإيمان من الثريا

نستعرض فيما يلي بعض الملامح لثلاثة أنواع من الحركة جرت وتجري في المسلمين الإيرانيين : حركة في النفس ، وحركة في المجتمع ، وحركة نحو هدف الإسلام . . لكي نرى فيها كيف يتناول الفرس الإيمان من الثريا .

في ميدان النفس :

زرت طهران في فصل الشتاء ، وكنت سمعت عن الأجواء الروحانية الخاشعة في مجلس دعاء كميل ليلة الجمعة ، وهو دعاء ومناجاة علّمه الإمام علي (عليه السلام) لكميل بن زياد النخعي رحمه الله ، ويعقد المسلمون في إيران مجالس لقراءته ليلة الجمعة . . وتأسفت عندما حلت ليلة الجمعة وكان البرد شديداً والثلج غزيراً ، لأن ذلك سيمنع من انعقاد المجلس ، ولكن قيل لي إن المجلس لا يتعطّل والناس يقصدونه في كل الظروف ! .

اتجهنا إلى مدرسة الشهيد مطهّري في وسط طهران فرأينا أن حركة السير تزداد كلّما اقتربنا من المكان . .

ترجّلنا بعيداً عن المدرسة لأنهم أخلوا الساحة والشوارع المحيطة بها من السيارات . كانت قراءة الدعاء قد بدأت والناس ملأوا المدرسة بمسجدها الكبير وساحاتها الواسعة وامتدوا إلى الخارج وجلسوا في الساحة والشوارع ، يتقون تساقط الثلج بما يتيسّر من مظلّة أو غطاء للرأس أو معطف ، ويقرأون الدعاء . .

هل يصدق الناس في العواصم الباردة أن الألوف أو عشرات الألوف من الطهرانيين يخرجون من بيوتهم في مثل هذا الجو ويجلسون في الشوارع ساعتين تحت الثلج لقراءة الدعاء ؟!

نعم تحت الثلج ، وفوق الثلج أيضاً ، فقد رأيتهم يجلسون على ما تيسّر لهم : بساط عادي أو مفرش من السيارة ، أو معطف يجلس عليه اثنان ويغطيان رأسيهما بالمعطف الآخر ، أو قطعة نايلون أو كارتون . . وبعضهم يجلس القرفصاء . . والكل باتجاه القبلة يتابعون فقرات الدعاء مع القارىء ، وتشعر أنَّهم يحفظونها ويفهمون معناها ، أو يتابعون الموضوعات التي يطرحها القارىء بالفارسية تعقيباً على مفاهيم الدعاء . . أو يأخذ الواحد منهم البكاء فينطلق في التضرّع إلى ربّه عزَّ وجلَّ يطلب منه المغفرة ويطلب حاجاته . . ثم يعود إلى متابعة الدعاء . .

لولا الحياء لتجوّلت بين الناس أنظر في وجوههم ودموعهم وأسمع ضراعاتهم ، وأتعلّم منهم كيف يدعو المسلم ربّه . .

وقفت خلف شاب في حوالي الثلاثين من عمره ، كان جالساً ويرتدي معطفاً يغطّي رأسه ، وتحاشيت أن يشعر بوجودي حتى لا أزعجه في دعائه . . ولكنه كان في حالة لا يشعر معها بالثلج المتساقط على رأسه وبعض وجهه ولا يشعر بأحد . . كان منفصلاً عن متابعة الدعاء مع القارىء ويتكلّم مع الله تعالى ويبكي حتى ينقطع كلامه . . ثم يعود إلى الكلام . . وأي كلام . . كان يتكلّم مع الله تعالى بكل وجوده ، ويتوجّه إليه بكل مشاعره ، وإن الكلمة الواحدة لتخرج من صدره وجوداً حيّاً يحمل من أجزاء روحه وينبض بها ؟ .

سمعته يقول : خدايا ، أي : إلٰهي ويطلقها نداءً عميقاً حزيناً طويلاً . . وينفجر بعدها بالبكاء . . ثم يمسك بكاءه ويواصل دعاءه . . فهمت منه أنه يقول : يا إلٰهي أنت رحيم محب . . وأنا بعيد عنك . . ذنوبي . . ليلة الجمعة . . العفو . . جئت إليك . . أريد

منك التوفيق . . النجاة من النار . . الشهادة . .

أرى أمامي ظاهرة وليس شاباً طهرانياً . . أرى عالماً يموج بالأفكار والمشاعر يخاطب ربّه . . أين عنه علماء النفس والاجتماع والتصوّف . . بل أين عنه المسلمون المتدينون . . ليتعلّموا كيف يقولون : يا إلٰهي . .

آه لو كان ندائي لله تعالى يحمل حرارة وحرقة وأشواق هذا الشاب . لقد قالها مرة وهو يرمق بنظره إلى السماء وبكى . . فأحسست كأني في مشهد القيامة ، وأن المنطقة المغطاة بالثلج جزء من ساحتها ، وأن هذا المسلم جاثٍ بين يدي الغفور الرحيم يرفع إليه قضيّته ، وستنزل عليه الرحمة وتشملني معه . .

وفي داخل مسجد المدرسة كان المشهد أعظم وأكثر تأثيراً . . فعندما يصل القارىء إلى مقاطع يرددها الحاضرون معه مثل : يارب يارب يارب ، أو يارب ارحم ضعف بدني ، عن النار . . يتجاوب الدوي والدموع إلى عنان السماء . . وعندما يطلب القارىء ـ عنهم ـ طلباً من الله تعالى فيرفعون أيديهم وأصواتهم بقولهم (إلهي آمين) . . تشعر بعبوديّة المسلمين الضارعة الراغبة . .

خرجنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، ونظرت إلى الساحات والشوارع فرأيتها ممتلئة بالحركة والنشاط كأنها في وسط النهار ، وسيارات النقل الحكومي تنقل الناس مجاناً إلى مناطق طهران المختلفة . . ولكنها حركة أكثر سروراً وأكثر تهذيباً من حزكة الناس في النهار ، إنَّك تحسّ الرضا في قلوب أفواج الناس . . فقد جاء الواحد منهم إلى مجلس الدعاء ، ووضع نفسه بين يدي الله عزَّ وجلَّ ، وطرح قضيّته وقدّم طلباته . . لقد اتّصل هذا الجزء المحدود

المقصّر ببحر الوجود المطلق والحبّ المطلق والفيض المطلق عز وجلَّ . . ومن كانت له قضية كهذه فلماذا لا يأتي إلى مكان طرحها ولو تحت هطول الثلج أو حرارة الشمس ؟ .

ما هذا التحوّل في مسلمي إيران ؟ إنَّه الإيمان يفعل العجائب في الشخصية . .

ومن أين يأتي الإيرانيون بالإيمان إنَّهم يتناولونه في ليلة الجمعة من الثريا ، وصدق رسول الله (ص) .

فماذا يتناول أعداؤهم تلاميذ الغرب في ليالي الجمعة ؟ .

*

أحد القضاة برز اسمه في محاكمة أعوان الشاه . . زار مدينة الأهواز ، وعند مدخل المحكمة الثورية شكت إليه امرأة أن حرّاس الثورة منعوها أن تقابل زوجها المتَّهم بالمشاركة في مؤامرة شاهبوربختيار ، وتوسّلت إليه أن يسمح لها بمقابلته . فأمر القاضي مسؤول حرس المحكمة أن يسمح لها بذلك ، ولكن الحارس لم يقبل فغضب عليه القاضي وضربه . . فقال له الحارس سوف لا أقول لك شيئاً ، ولكن لا تجعل ثقتي بك تتزعزع .

ودخل القاضي في موكبه إلى ساحة المحكمة ، ولكن الحارس كان سبقه وأخبر قاضي الأهواز بوصول القاضي المعروف وبما حدث معه عند الباب . . فخرج القاضي واستقبل زائره وسأله عمّا حدث مع الحارس فأخبره . قال له قاضي الأهواز : إنَّ الحق مع الحارس لأن ارتباطه الشرعي بقاضي الأهواز ، والقاضي الزائر قد عيّن قاضياً خاصاً لمحاكمة أعوان الشاه ، وهذا التعيين لا يشمل المتهم الذي أرادت زوجته مقابلته .

عندئذ التفت القاضي الزائر إلى خطئه فقال على الفور : إذن أنا أستغفر الله ، ومن حق الحارس أن يقتصّ مني فيضربني .

وكان مشهداً رائعاً عندما استدعوا الحارس ووقف أمامه القاضي المشهور بسطوته ، وكلّمه بأن له الحق أن يقتصّ منه وأدار له خدَّه ، فتقدّم الحارس . . وقبّله وعفا عنه !

لقد تناول هؤلاء الإيمان من الثريا . . فكانت قصة من قصص صدر الإسلام .

*

في حركة المجتمع :

أكمل الناس إحدى تظاهراتهم العديدة الشديدة . . وكانوا منصرفين إلى منازلهم ، فحصل حادث اصطدام بين سيارتين لم يصب بسببه أحد ولكن إحداهما تضرّرت ، وحدثت منازعة طويلة بين صاحبيهما ، فقصدا ضابط البوليس القريب وعرضا عليه الأمر وطلبا إليه أن يرى الحادث ، ففاجأهما الضابط بقوله :

أنتم ضد هذا النظام ولا تثقون بنا ، فنحن غير مسؤولين عنكم . . اذهبا إلى الخميني لكي يحكم بينكما ! وكان الإمام يومها في باريس .

عندما سمعا كلامه ، رجع كل منهما إلى نفسه ، فما كان من أحدهما إلاَّ أن أخرج دفتر شيكات وكتب لصاحب السيارة المتضررة شيكاً بمبلغ يكفي لتصليح سيارته ، وقدّمه إلى صاحبه قائلاً :

ـ أرجو أن تسامحني فالحق عليّ ، وهذا الشيك من الإمام الخميني .

فتناول الرجل الشيك وقبّله ووضعه على رأسه وقدّمه إليه قائلاً :

ـ شكراً ، وهذا هدية لك من الإمام الخميني ، ولا أريد منك شيئاً .

وصافح كل منهما الآخر ، وانصرفا تاركين ضابط البوليس مذهولاً . . لقد هزهما ابن النظام ، وذكرهما أنهما عائدان من عبادة إسلامية . . فارتقت نفساهما فتناولا الإيمان من الثريا وعالجا به المشكلة ! .

*

قال أحد زملائه :

كان بين مجموعتنا في الجبهة أشبه بملاك متوهّج بالنور . . يخدم الجميع بحب ويريد أن يحتضنهم في قلبه . . يصلّي فيبكي . . ويقرأ القرآن وتفسيره بالفارسية فتضطرم نار الإيمان بين جنبيه . . ويقرأ الدعاء فتحلق روحه بأجنحتها البيضاء ، وتكاد من أشواقها إلى ربّها أن تفارق جسده . .

كانت هذه حالته ليل نهار ، كأن روحاً ملائكية ألقيت عليه . . وكأنّه جاء إلينا من الجنة فهو لا يستطيع أن يكتم حنينه إلى مَلَئِها الأعلى . . يدعو بالشهادة بفرح من نوع عجيب ، ويقول : ادعوا لي يا إخواني . لا شك أنّكم تحبون لي أن أذهب إلى الجنة . أحبّ أن أكون معكم . ولكني أحبّ أن أذهب أمامكم إلى لقاء الله . .

فإذا تساقطت القنابل وهطلت زخات الرصاص طفح بالاستبشار والأمل . وإذا شارك في قتال أو عملية اندفع أمامنا كأسد أفلت من قيوده ، أو كمتيّم مشتاق يخطو إلى حبيبة عمره . . أو كطائرة اندفعت من مدرجها لتعانق الفضاء . .

قلت له وقد أردت أن أزور أهلي في إجازة ، يا محمد هل معك صورة تهديها لي للذكرى ؟ قال لا يا أخي . قلت لا بأس ، اكتب في الرسالة لأهلك أن يعطوني صورتك . . فأطرق محمد لحظة ثم قال : يا أخي ليس عندي في البيت إلاَّ صوري من أيام الجاهلية . قلت له : لتكن أي صورة . . وأعطاني أهله صورة له من عهد الشاه ، لشاب على آخر طراز من الخنافس الغربيين ، الذين يقضون وقتهم بين السينما والملهى ومحلات الفليبرز والحانات .

كيف حدث هذا التحوّل في ابن شمال طهران المترف ، ومن أين جاءه هذا الإيمان ؟ لقد تناول الخميني الإيمان من الثريا ونثره على شباب إيران.والذين امتلأت قلوبهم من نثاره صاروا ملائكة في أثواب شبان وفتيات ؟

في الحركة نحو هدف الإسلام :

ذهبنا بعد فتح منطقة البستان لنتفرج على المناطق المحررة . . وبعد مدينة سوسنكرد بقليل قالوا : هذه (مرتفعات الله أكبر) وهي ربوات وكثبان رملية ترابية تمتدّ على يمين الطريق في أرض مبسوطة كالصحراء .

كانت هذه المرتفعات لبعض الوقت الحد الفاصل بين القوات الإسلامية وقوات نظام صدام ، وقد شهدت كل واحدة منها ملاحم بطولية حتى حررتها الله أكبر .

ولكن المشهد كان فيما بين المرتفعات والطريق . . في مسافة بضعة كيلومترات من الأرض المبسوطة المستوية التي لا زالت حقلاً واسعاً مملوءاً بالأسلاك الشائكة والألغام . في طرف هذا الحقل من جهة الطريق كان المشهد :

نحو ثلاثين جثة لأبناء الإسلام متناثرة . . بعض أجزائها بين الألغام ، وبعضها بين الأسلاك ! فقد احتاجوا إلى عبور هذا الحقل أثناء المعركة وطلب قائدهم أن يتقدّم ثلاثون مقاتلاً يضحّون بأنفسهم ويفتحون لإخوانهم الطريق ، فتقدّم جميع من كان في مقابل الحقل وقدّموا أنفسهم ! وكان عددهم حوالي تسعمئة فاختار القائد منهم هذه المجموعة للعبور على الألغام !

أي ناس هؤلاء . . وأي إيمان دفعهم إلى إقامة هذا العرس الإسلامي . . ؟

بعض الناس لم يستطع أن يواصل النظر إليهم فأدار وجهه . . ولكني أمسكت تأثري فرأيت الساحة مغطاة بأجزاء الأجساد الطاهرة ، حفلة عرس إلٰهية ، وكأن الملائكة لا زالت قائمة تظللها بأجنحتها ، وأفواجهم لا زالت تهبط بالرياحين والورود وتتمسح في هدوء بالأجساد والتراب ، وتعود مزغردة إلى السماء ؟

والجزء الآخر من المشهد : نقله الضباط الأسرى العراقيون ، كانوا نحو ثلاثين ضابطاً سمعت منهم وتحدثت إليهم ، وسألتهم :

ـ هل كنتم تعرفون بموعد الهجوم الإيراني ؟

ـ قالوا : لم نكن نعرف بالضبط ، ولكن كنّا نتوقع ذلك ، وكنّا في حالة استنفار .

ـ قال أحدهم : قبل الهجوم بيوم شعرنا بذلك لأنّا وجدناهم في الصباح قدّموا الساتر الترابي إلى حدود حقل الألغام .

سألته : في أي منطقة كان ذلك ؟

ـ عند المرتفعات التي يسمونها مرتفعات الله أكبر من جهة طريق البستان ـ سوسنكرد فعرفت أنه يتحدث عن حقل الألغام إياه الذي رأيته بالأمس . سألته :

ـ قـدّموا السـاتر التـرابي في طول عـدة كيلومتـرات ولم تشعـروا بهم ؟ .

ـ قال لم نشعر بذلك حتى رأيناه في الصباح .

سألتهم : كم طول الساتر الترابي وكم عمقه ؟

ـ قالوا : طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات . وارتفاع التراب يتراوح بين متر وثلاثة أمتار .

ـ قـال أحـدهم : أنـا أيضـاً كنت في المنـطقـة وقـال لي أحـد الجنود : سيدي يوجد صوت (بلدوزر) . فقلت له : إنه من جهتنا .

سألته : كم قدّموا الساتر الترابي .

قال : كانت المسافة ١٨٠٠ متراً قدّمـوه ألف متر إلى قرب حقل الألغام الذي يبلغ عرضه ٨٠٠ م .

قلت : كم عـدد جنودكم الخفـر الـذين كـانـوا مقـابـل السـاتـر الترابي ؟

فحسبوهم على حسب الأفواج فبلغ عددهم ستين جندياً ، ولكن أحدهم اعترض وقال : كنّا في استنفار والمفروض أن يكـون الأكثريـة مستيقظين .

قلت لهم : أنتم مثقفـون فـأرجـو أن تفسـروا لي كيف أن عـدة مكائن (بلدوزر) عملت ليلاً على مقربة من مئات الجنود ولم يشعـروا بها ؟ هل لذلك تفسير مادي ؟

قال أحدهم : في حين أن أي (بلدوزر) لنـا كان يـريد العمـل تأتيه قنبلة ضوئية ثم يضرب .

قالوا : لا يـوجد لـذلك تفسيـر مادي . . فـأظهرت التعجب من إمداد الله لجنوده .

قـال أحدهم : لمـاذا تتعجب . . ؟ أنـا وخمسـون جنـديـاً معي

أسرنا إيرانيان اثنان . .

قلت : وكان معكم أسلحتكم ؟

قال : نعم أسلحتنا وذخيرتنا ، وأحدهما بقي في الشاحنة ونـزل الآخر وأنذرنا فرفعنا أيدينا وسلّمنا .

قلت : ولم تدافعوا عن أنفسكم ولم تطلقوا طلقة واحدة ؟

قال : أبداً .

قلت : لماذا ؟

قال « معنويات ماكو » .

قلت : لماذا لا توجد لديكم معنويات ؟

قال : لماذا نكذب على أنفسنا . الجماعة على حق ، وعنـدهم عقيدة يقاتلون عنها ، أمّا نحن فعلى ماذا نقاتل ؟

وسـألتهم عن سبب كثرة (البلدوزرات) الجـديدة التي أخـذهـا الإيرانيون غنائم ؟

فقالوا : طلبت قيادة القاطع مئات (البلدوزرات) من أجل إقامة ، سدود ترابيـة عاليـة تحيط بقطاعـاتنا ، وخصصـوا لمنطقـة البستان مئـة وعشرين (بلدوزراً) ، ولكنها لم تستطع العمل بالشكل المطلوب .

وعادت بي الذاكـرة إلى قصص الفتح الإسـلامي لبلاد فـارس ، وإلى تحصين الفـرس لمدنهم وقـواتهم بالخنـادق وحسك الحـديـد ، واختـراق المسلمين العرب لهـذه التحصينات في المـدينة تلو الأخـرى والمـوقعـة تلو الأخـرى . . وأنهم كـانـوا يعبـرون الخنـادق والمنـاطق المزروعة بحسك الحديد بخيولهم أو مشاة ويستشهد العديد منهم . !

وذكـرت منها قصـة في فتح السـوس وتستر وهي منـطقـة شـوش وشوشتر التي تشملهـا الحرب الآن ، وأن الفـرس كانـوا يقتلون الجنود

الفـارّين ، وأنهم أمسكوا أحـد الجنود في هـذه المنطقـة فأتـوا بـه إلى حاكم مدينة شوش فبادرهم الجندي وكان رامياً للنبل :

ـ لا تقولوا إنّي جبان ، ولا تقولوا لست ماهراً في رمي السهام ، ضعوا لي حجراً على بعد كذا . . فوضعوا له حجراً فسـدد إليه سهمـه فأصابه وفلقه ، وقال :

ـ والله إن سهمي يفلق الحجر ، ولكنه لا يؤثـر في هؤلاء العرب شيئاً ؟

قالوا : لماذا ؟

قال : لأنهم على حق .

وعـادت بي الذاكـرة إلى أن النبي (ص) وعـد المسلمين بـأنهم سيهـزمون كسـرى ويأسـرون الفرس أفـواجاً بـالسـلاسـل وأن الفـرس سيدخلون الإسلام . . قال (ص) : « رَأَيتُ نٰاسـاً مِنْ أُمَّتي يُساقُـون إلىٰ الجَنَّةِ فِي السَّلاسِلِ كَرْهـاً ، قِيلَ : يـا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ ؟ قَـالَ : قَومٌ مِنْ العَجَمِ يَسبِيهِمْ المُجَاهِدُونَ فَيُدْخِلونَهُمْ الإِسْلام »[1] . . .وقارنت ذلك بما أراه اليوم :

سبحان الله . . إنَّ ما يقوله جنود صدام نفس ما كان يقوله جنـود رستم وهـرمز ، وحـالتهم كحالتهم . ومـا نقـرأه عن بـطولات الجيش الإسلامي العربي الفاتح نراد في القوات الإسلامية الإيرانية !

إنها حقاً القـادسية كمـا يقول صـدام ، ولكن الإسلام فيهـا هذه المرة من هذا الجانب والجاهليـة من الجانب الآخـر . وها هم العجم يضـربوننـا على هذا الـدين عوداً كمـا ضربنـاهم عليه بـدءاً . . فكيف

---

(١) سنن أبي داود ج ٣ ص ٥٦ .

جرى التاريخ ؟ وكيف تبادلنا المواقع ؟

لعن الله حكّام العرب الخونة وأئمتهم أئمة الكفر العالمي ، ولعن معهم العلماء الفسقة . . إنهم يتناولون الجاهلية والكفر من أبي جهل وأئمة الكفر العالمي ويسوقون بها جماهيرنا العربية . . بينما يتناول الفرس الإيمان من الثريا ويأخذون به موقع آبائنا في صدر الإسلام !

*

قال الإعلام الأمريكي : إن الخميني استطاع أن يلعب مع الإيرانيين لعبة الموت ، وأن يقنعهم بالشهادة والجنة !

وقال أحد العراقيين الظرفاء :

أي شعب يتحمل من قيادته ما تحمله الشعب الإيراني من الخميني ؟ من أول الثورة إلى اليوم تظاهرات وتضحيات ، ثم حدثت الحرب فجعلهم يشدّون الأحزمة على البطون ، ويقدّمون ألوف الشهداء . . وها هو يقول لهم : بعد العراق أمامنا القدس وفلسطين . . ومن العجيب أنهم يتحملون ويصبرون !

فقيل له : لقد تحمل الشعب العراقي من صدام أضعاف ذلك !

قال : أتكلم عن التحمل الطوعي الاختياري .

وقال الإعلام الأوروبي : إنَّ الذي جعل الوضع الاقتصادي في إيران متماسكاً فلم يحتاجوا إلى الاقتراض من أحد وجعلهم يسددون أثمان مشترياتهم من السلاح وغيره ، ورفع سمعتهم التجارية ، ووفّر لهم احتياطياً بضعة عشر مليار دولار . . يعود إلى سببين :

الأول ، أنهم حافظوا على تصدير نفطهم . والثاني ، أنهم تمكنوا من خفض الاستهلاك على صعيد الحكومة والشعب .

وقال بعض ناقصي الإيمان : إن الإمام الخميني جعل الإيرانيين يعيشون في موجة تصوّف ، فيضحون برفاهيتهم وأموالهم في سبيل الثورة . . ولكن إلى أين ستصل موجة التصوّف هذه . . ؟

وعندما أراد أحدهم أن يناقشه أسكته بعصبية وقال : يا أخي لا يمكن للناس أن يعيشوا على الغيبيات . . إن موجة التصوّف والغيبيات التي في إيران غير معقولة ، ولا بدَّ أن يعود الناس إلى الواقع المادي الملموس .

ولكن المسألة في الإيرانيين أعمق من مثل هذه النظرات الخاطئة والمغالية والمجزوءة . المسألة في الموقع الذي أصبح فيه المسلمون الإيرانيون . الموقع السياسي العالمي الذي يدركون أنهم فيه ، ومنه يتحركون .

المسألة في الأمر الذي يفكر به الرجل العادي في القرية والمدينة ، والموظف في الدوائر الحكومية ، والمسؤولون على رأس الأجهزة ، والجندي وحارس الثورة وقياداتهم . .

سل الرجل العادي والمرأة والشاب . . أصبحوا حملة قضية المسلمين والمستضعفين في العالم ، وقضية محاربة أمريكا واسرائيل وبقية القوى الكافرة . . يعيشون هذه القضية عيشاً حقيقياً ويعتقدون أنهم سائرون في العمل لها بدون توقف ، في خنادق الجبهات الداخلية كما يعبرون عن عمل غير المقاتلين ، وفي جبهات القتال . . وأنهم بعد تحرير العراق سوف يتوجهون حتماً إلى القدس . . وأن رأس الأمر في هذه القضية أن يطيعوا الإمام الخميني ، ليس فقط فيما يأمر ، بل فيما يشير ويومىء ويرغب ويحب . . فهو المجتهد الجامع للشرائط ، وهو المرجع المقلَّد ، والحاكم الواجب الإطاعة ، وهو

نائب الإمام المهدي (عليه السلام) .

المسألة أنهم أخذوا موقعنا في صدر الإسلام ، وأن طموحاتهم أصبحت عالمية ، واستعدادهم للعمل والتضحية من أجلها عميق طويل بلا حدود . . وأن مظاهر العطاء التي تراها منهم هي جزء من مخزون كبير وزخم كبير . . لقد أصبح الرجل القروي في إيران يفكّر على مستوى العالم تفكيراً عملياً لا شكلياً . . فحب المسلمين والمستضعفين وعداء أمريكا والكفر العالمي يتوقد لهيباً في داخله ، وما نراه من أنواع التضحية وخفض الاستهلاك ، ومن الحب الحقيقي والشعور بالأخوة مع الثائرين في وجه أمريكا وروسيا ، والذي يسميه بعضهم بالتصوف والتعلق بالغيبيات . . ما هو إلاَّ جزء من مخزونه الكبير من هذا الحبّ والبغض ، وهل الدين إلاَّ الحب والبغض ؟

وهل انطلق المسلمون الأوائل لتحرير العالم بالإسلام إلاَّ بهذا الحب والبغض الكبير المقدس ؟ وهل قال عنهم الإعلام الكافر آنذاك ، ورماهم بالتصوّف والجنون والقومية التوسعية إلاَّ كما يقول عن قوم سلمان ومؤيديهم اليوم . .

*

الذاكرون والضياطرة

الصورة القديمة الجديدة

نرسم أولاً صورة الحادثة التي يرويها ابن أبي الحديد وغيره . يقول :

« جاء الأشعث إليه وهو على المنبر فجعل يتخطّى رقاب الناس حتى قرب منه ثمّ قال له : يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك ـ يعني العجم ـ فركض المنبر برجله حتى قال صعصعة بن صوحان : مالنا وللأشعث ؟ ليقولن أمير المؤمنين اليوم في العرب قولاً لا يزال يذكر ! فقال (عليه السلام) :

« مَنْ عَذِيرِي مِنْ هٰؤُلاءِ الضَّياطِرَة ؟ يَتَمَرَّغُ أَحَدُهُمْ عَلىٰ فِراشِهِ تَمَرُّغَ الْحِمارِ ، وَيَهْجُرُ قَوْماً لِلذِّكْرِ ! أَفَتَأْمُرُني أَنْ أَطْرُدَهُمْ ؟! ما كُنْتُ لأَطْرُدَهُمْ فَأَكُونَ مِنْ الْجاهِلِينَ . أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ لَيَضْرِبُنَّكُمْ عَلىٰ الدِّينِ عَوْداً ، كَما ضَرَبْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ بَدْءاً » .

الزمان : في خلافة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، أي بعد فتح بلاد فارس بنحو خمس وعشرين سنة دخل أثناءها أكثر

الإيـرانيين في الإسلام ، وأقبـل العـديـد منهم على تفهمـه واستيعـاب علومه .

والمكان : مسجد الكوفة ، الـذي يروى أنـه منزل نبي الله نـوح (عليـه السلام) ومسجـده ، وأمير المؤمنين يخـطب على منبره ، وقـد احتشـد المسلمون ليغتـرفـوا من فيض علوم رسـول الله (ص) ، وبكّـر الإيـرانيون بـالحضور إلى المسجـد فكانـوا مجموعـة بارزة في مقـدمة المصلين والمستمعين .

في أثنـاء الخطبـة جـاء الأشعث بن قيس متـأخـراً ، وهـو رئيس عشيرة كندة الكبيرة وأحد زعماء العرب البارزين ، ولم يجلس في آخر المصلين كما تقضي الآداب الإسلامية ، بل قصد مقدمة المجلس . . يشق الصفـوف ويتخطّى الـرقاب . . حتى إذا رأى احتشـاد الإيـرانيين وحـرصهم على القرب من المحـراب والمنبر لم يتمـاسك غيـظه فقال بصوت مرتفع مخاطباً أمير المؤمنين وقاطعاً عليه خطبته :

ـ يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك !

فضرب أمير المؤمنين برجله على المنبر يقول بذلـك للأشعث : مـاذا قلت ! ماذا فعلت ! ثم أطـرق يفكّر في معـالجة المـوقف بعـلاج الإسلام .

أمـا صعصعة بن صـوحان وهـو من خيرة تـلاميـذ أميـر المؤمنين (عليـه السلام) فقـد أدرك خـطورة مـا حـدث . لقـد طـرح الأشعث خـلافة المسلمين على أنهـا قيمـة دنيـويـة يملكهـا العـرب الـذين هم الأشعث وأشبـاهـه ، وأنهـا أصبحت مهـددة بهؤلاء المسلمين الجـدد الذين أحاطوا بالمنبر والإمام ، وصاروا أقرب إليه من الأشعث .

كمـا أدرك ابن صوحـان المعادلـة الإسلاميـة التي يؤمن بها أميـر

المؤمنين (عليه السلام) : فلا الإسلام ومنصب الخلافة قيمة دنيوية ، كما يطرح الأشعث . ولا ميزان الأولوية بالإسلام والإمام هو القومية ورئاسة العشيرة والثروة ، كما يريد الأشعث . ولا هؤلاء الإيرانيون المقبلون على الإسلام هم بالصورة التي يراها الأشعثيون وتزدريها أعينهم .

وكأنَّ أمير المؤمنين استعرض في سكوته صورتين ممتدتين في تاريخ الأنبياء (عليهم السلام) ، صورة المؤمنين المستضعفين المتعطشين إلى معرفة رسالة الله تعالى ، فهم يلتفّون حول الأنبياء والأوصياء والعلماء . . وصورة المترفين المنافقين الذين يتكبرون عليهم ويحتقرونهم . .

وكأنه (عليه السلام) وهو مطرق في مسجد الكوفة ، تجسدت له في هذا المكان صورة المؤمنين المستضعفين حول نبي الله نوح (عليه السلام) وهم يواجهون منطق المكذبين من قومه . . فرأى نفسه في ذات الموقف ، ورأى الأشعث وريثاً لأولئك الأشاعثة . . فقرر أن يضع حداً لهذا المنطق الكافر الذي تبجح به صاحبه في بيت الله تعالى !

رفع أمير المؤمنين (عليه السلام) رأسه معرضاً عن الأشعث ، ووجه خطابه إلى المسلمين ، وبين لهم معادلة الإسلام ومعادلة الأشعث ، وختم ذلك بالقسم على بعض ما أخبره به رسول الله (ص) عن مستقبل هؤلاء الملتفين حول المنبر !

عناصر شخصية الضيطر

في شخصية الأشعث وأفكاره عناصر متعددة تجعله في طليعة القوميين المنافقين ، مثل محاولته أن يرشي أمير المؤمنين ليوليه على

بعض بلاد المسلمين ، واشتراكه مع ابن ملجم وقطام في قتل أمير المؤمنين ، وما عرف عنه من شربه الخمر،كما أن ابنته جعدة قتلت زوجها الإمام الحسن (عليه السلام) بالسمّ ، واشترك ابنه محمد بن الأشعث في قتل الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء . . ولكنا نتخطى ذلك إلى العناصر الثلاثة التي ذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهي : فراغ الشخصية ، والسلوك الحيواني ، والتكبر على عباد الله الذاكرين .

« مَنْ عَذِيرِي مِنْ هَؤلاءِ الضَّياطِرَةِ ، يَتَمَرَّغُ أَحَدُهُمْ عَلىٰ فِراشِهِ تَمَرُّغَ الحِمَارِ ، وَيَهْجُرُ قَوماً لِلذِّكْرِ » .

إن لفظة الضياطرة المميزة لترسم صورة الشخصية المجوفة وإن بدا صاحبها هيكلاً ضخماً كالطبل ، فالحقيقة الأولى في هؤلاء الأشعثيين فراغ شخصياتهم من الفكر والهدف . . فلا هم مسلمون عقائديون يحملون الإسلام ويعملون لهدفه ، ولا هم كفّار عقائديون ، ولا منحرفون عقائديون ، يحملون هدفاً بميزان سياسي ويعملون له !

إن باستطاعتك أن تصنف الرجال من حيث مضمونهم الذي يملأ شخصيتهم ووقتهم إلى ما شئت فتقول : مسلم هادف . وأمريكي هادف . ويهودي هادف . وأوربي هادف . وشيوعي هادف . . ولكن يجب أن تدع مجالاً لنوع من الشخصيات التي لا مضمون لها من الفارغين أو الضياطرة أو الأشعثيين . . فهؤلاء في عالم الفكر والفعل السياسي . . فراغ ، وهواء تصفر فيه الرياح .

فماذا يملأ شخصية الضياطرة إذن ؟

يقول (عليه السلام) : إنه التمرّغ على الفُرُش كالحمير ، بكل ما يعنيه التمرّغ من : بلادة ، وإخلاد إلى النوم والشهوة ، وتقلب من التخمة ، وترف ، وكسل عن العمل . .

يقولها (عليه السلام) بدون تردد ولا مجاملة ، فتلك هي الحقيقة القاسية التافهة التي تملأ شخصيات الضياطرة، والهدف الوحيد الذي تحمله .

وموقفهم من الذكر وأهله ناتج طبيعي عن خوائهم وسلوكهم الحيواني هذا . . فذكر الله تعالى مضمون للشخصية ، وأهله جادون في هدف وطريق . . والضياطرة فصيل مسطح يحب الفراغ والتمرّغ في الغبار ، ويكره العمق والمضمون والجد والهدف . . ويمقت أجواء التدين والذكر والفكر والعبادة . . ويبغض أهل هذه الأجواء .

فهل عرفت السبب الذي من أجله يكره ضياطرة بلادنا العربية التدين والمتدينين . . ؟ يكرهون مجالسنا ولا يطيقونها ، ويكرهون وجودنا ، و . . اسمنا .

*

وهل عرفت السبب في امتلاء المنطقة بالفعل الإسرائيلي والأمريكي وفراغها من الفعل العربي . . ؟ اللهم إلاَّ من غبار المتمرغين يغطي سحابه القصور والدور والملاهي والبارات ووسائل الإعلام !

وهل رأيت كيف عمّ تيار الضياطرة في بلادنا وسيطر عليها ، وها هم لا يتركون تمرغهم على فرشهم إلاَّ ليصبوا على أهل الذكر ازدراءهم واحتقارهم واضطهادهم !

وهل رأيت كيف يلتفّ أهل الذكر في إيران وفي ساحة أمتنا الإسلامية كلها حول منبر الخميني ، يتعلمون منه ذكر الله تعالى وجهاد الضياطرة وأئمتهم أئمة الكفر العالمي ؟

إنَّ الذين ينفخون أبواق النفير لمواجهة خطر المدّ الإسلامي

القادم من إيران ، ويرفعون عقائرهم بالخوف على العرب والقومية العربية من خطر الفرس . . إنَّما هم الضياطرة والأشاعثة .

أمّا الجماهير المتعطشة إلى ذكر الله تعالى واستيعاب تعاليم الإسلام . . فهم أخوة في الله لأب وأم . . عرباً كانوا أم فرساً أم تُركاً وهنوداً وأفارقة . .

« إِنَّ سُرعَةَ ائْتِلاٰفِ قُلُوبِ الْمُؤمِنِينَ إِذَا الْتَقَوْا وَإِنْ لَمْ يُظْهِرُوا التَّوَدُّدَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، كَسُرْعَةِ امْتِزاٰجِ مَاءِ السَّمٰاءِ بِمٰاءِ اَلأَنْهٰارِ .

وَإِنَّ بُعْدَ ائْتِلافِ قُلُوبِ الْفُجَّارِ إِذٰا الْتَقَوْا وَإِنْ أَظْهَرُوا التَّوَدُّدَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَبُعْدِ ائْتِلاٰفِ قُلُوبِ الْبَهٰائِمِ وَإِنْ طٰالَ اعْتِلاٰفُهٰا عَلىٰ مِذْوَدٍ وٰاحِدٍ » .

وصدق الله ورسوله ، وكذب الضياطرة .

*

كنوز الطالقان

« وَيْحاً لِلطَّالِقَانِ فَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰا كُنُوزاً لَيْسَتْ مِنْ ذَهَبٍ وَلاٰ فِضَّةٍ ، وَلٰكِنْ بِهٰا رِجٰالٌ عَرَفُوا اَللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ . . وَهُمْ أَنْصٰارُ الْمَهْدِيِّ فِي آخِرِ الزَّمٰانِ » .

ما أشوق حديثكِ يا أرض الطالقان . . يا واحة تنبت كنوزاً دونها كنوز الذهب والفضة . . وشبّاناً بعمر الورود ينحني أمام معرفتهم العلماء . . وأمام مقامهم كبار المجاهدين والشهداء . . مقام بلغ أن بشر الله تعالى بهم على لسان رسوله (ص) ، وادخرهم أنصاراً ووزراء لوليه المهدي (ع) في عمله الكبير الكبير . .

هل رأيتم يا أهل الطالقان أحداً منهم ؟ هل سمعتم شيئاً عنهم ؟

آه لو عرفت منهم أحداً لخدمته طول عمري . . ولكن الله أخفى أولياءه في عباده إلى أن يبلغ أمره . .

حدّثونا يا أهل الطالقان ، يا أهلهم ، عن السر الذي تنبت به عندكم معرفة الله عزَّ وجلَّ ؟

هل هو موقع منطقتكم على سفوح جبال آلبرز وفي أعاليها ؟ وأنها مجموعة قرى لا مدينة فيها ؟

أم هو اهتمامكم بالقرآن تعلمونه لأبناء إيران ، حتى اقترن في أذهانهم تعليم القرآن بأهل الطالقان ؟

أم هو نمط حياتكم البسيطة الصافية ، والعلاقات التي تكونت بينكم ؟

أم عبادتكم في الليل ، التي عرفت عن الكثيرين منكم ؟

علّمونا كيف انتصرتم على أثقال الطين ، وأصبحتم منبتاً لكنوز النور ؟ . .

قال رجل من الطالقان :

أيّها السائل ، انظر إلى هذا الخير العامرة به قلوب أجيال من الناس ، كيف ينقدح زناده في القلب فيعمر به ويفيض بالبركات . .

إنَّ نور الفطرة ونور التوحيد هما المنبع لهذا الخير الذي تراه في الناس . . . ينابيع ، وسواقي ، وجداول ، وأنهاراً ، وحدائق مورفة مثمرة ، في كل جيل . . ومنهما يصدر هذا النور الذي تراه مشرقاً في ظلمات الأرض . . ينبعث من الناس في القرى والمدن والجبال والسهول . . على قدر مخزونهم . . ومضاً من النور ، أو خيوطاً ، أو حُزَماً أو تياراً ، أو يكون فوّاراً يتوهّج ، أو مشكاة تتوقّد . .

إنَّ الفطرة يا صاحبي غرسة نور إلٰهية في باطن الإنسان . . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . . فإذا مسّتها نار التوحيد أضاءت ،

واتّقدت ، وفاضت بالخير . . على قدر طاقتها المخزونة ، وعلى قدر الوقود .

وقد كان ولا يزال لهذين النورين في كل جيل قصة ، وعند كل إنسان . . كيف يحافظ على نور فطرته وينميه ويحميه ، فيصبح به إنساناً سويّاً . وكيف يتفاعل مع نور الإيمان ويأخذ منه نصيبه . .

وفي عباد الله الخيّرين نماذج لم يقف أحدهم في كدحه إلى ربّه عند أن يغلب نوره على ظلمته وخيره على شرّه . . بل واصل المعايشة والمعاناة بكامل فطرته وبكل مخزونه . . حتى توقّد باطنه بمعرفة الله تعالى ، وأشرق وجوده بنوره .

يا صاحبي ، يتمايز الناس في أمور كثيرة ، ولكن التمايز الحقيقي إنّما هو في شعلة قلب أحدهم ، ما هي ؟ وكم هي ؟

وفي كلّ قلب شعلة ، ولو لم يشتعل قلب الإنسان لمات !

وفي قلب الإنسان بقاع أشبه بتراب المعادن عطشىٰ للنار ، تلحّ عليه الواحدة أن يضرم شعلتها . . فإن هو فعل هاجت به شهوتها تطلب الوقود ، واضطرم القلب ناراً ودخاناً واستعر كالتنور . . ثمّ لم يهدأ أبداً .

وفي قلب الإنسان تربة بيضاء هي معدن الفطرة تناديه أن يقدح شعلتها بزناد التوحيد . فإن هو فعل تطامنت جنبات قلبه ، وأضاءت بنور أنصع بياضاً من الثلج ، وأهدأ انسياباً من النسيم ، وأشد توهّجاً من رأد الضحى ، وأعمق اضطراماً من نار الغضا . .

يا صاحبي . . أطفىء من قلبك شعلة شهوات الدنيا . . واقدح فيه شعلة المعرفة ، وتعهدها ، وضمّ على كنزها قلبك . . فأنت كنز لله في أرضه .

وبعد ، فإن ظاهرة كنوز الطالقان وأمثالها توجب علينا أن نعيد النظر في القيمة التي نعطيها للعلم في بناء شخصيتنا الإسلامية .

ترى ، ألم يسرف الكتاب الإسلاميون المعاصرون في إعطاء القيمة لكمية المعلومات التي يعرفها المسلم عن الإسلام ؟

ألم يسرف العاملون في الحركة الإسلامية في بذل الجهود والأوقات من أجل ضخّ المعلومات الإسلامية في أذهان الناس ، باعتبار أن الثقافة الإسلامية هي المنطلق ، والوعي الإسلامي هو الأساس ؟

هل من الأصالة الإسلامية أن نتجه بمفهوم العلم الإسلامي والوعي الإسلامي والمعرفة الإسلامية والثقافة الإسلامية نحو كمية المعلومات والمهارة العقلية ، أي نحو الحجم الكتلوي والحالة المهنية ، أكثر من اتجاهنا في العمق نحو القلب واضطرام شعلته بمعرفة الله تعالى ؟

هل أخذنا هذا المنحى الكمي المهني في مفهوم العلم والوعي والمعرفة من القرآن والسنة ، أم من غيرهما ؟

وهل حققنا هدف الإسلام عندما خرّجنا جيلاً من الدعاة يحملون في أذهانهم كميات وافرة من المعلومات الإسلامية ، ويملكون مهارات فائقة في الكتابة والمحاضرة والتنظير للإسلام . . ثم لا يملكون في قلوبهم جذوة المعرفة ولهيبها ؟!

قال رجل من الطالقان :

الأمر يبدأ يا بني قبل المدرسة والكتاب والأستاذ . . من هذا القلب الذي بين جنبيك ، وشعلته التي بين يديك . . منه يبدأ العلم والجهل ، والنور والظلمة ، والقرب والبعد . .

والسرّ يا بني ليس في الجامعات والكتب ، وإنَّما في هذه الجذوة التي تقدحها في قلبك من نوري الفطرة والتوحيد . فاعرف قيمتها وبركتها فإنها : علم العلوم ، ونور العلوم ، ومفتاح العلوم .

إنَّما العلم يا بني سقي لما زرعته في قلبك ، فانظر ماذا زرعت ، وماذا تسقي ؟

ووقود للشعلة التي أضرمتها في قلبك ، فانظر على أي شعلة تضع الوقود ؟

والعلم يأخذ لونه وطعمه وحجمه من ظرفه ، والقلب ظرفه ، فانظر أي ظرف تملأ بالعلم ؟

وإنَّما يكون العلم « علماً » ونوراً إذا حلّ في قلب اتقدت جذوته وأضاءت شعلته . . أما إذا حلّ في القلب المظلم فيكون ظلمة ! ألا ترى يا بني أن الأمي الذي أضاء هذه الجذوة في قلبه أفضل من العالم الذي أطفأها كما يقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

« تَرىٰ الرَّجُلَ لا يَكَادُ يُخْطِىءُ بِلامٍ وَلا وٰاوٍ خَطِيباً مِصْقَعاً وَإِنَّ قَلْبَهُ لأَظْلَمُ مِنَ اللَيْلِ الْمُظْلِمِ ! وَتَرىٰ الرَّجُلَ لايَكَادُ يَبِينُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَإِنَّ قَلبَهُ لَيَزْهَرُ كَالْمِصْبٰاحِ » .

أما إذا أضاء مصباح قلبه . . وأوقد شعلته بالعلم . .

إذا غرس فيه شجرة المعرفة ، وسقاها بالعلم . .

إذا نقاه من أهداف الدنيا ، وملأه بالعلم . . فهو من الذين يقول الحق تعالى عنهم : ﴿ يَرْفَعُ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وهؤلاء العلماء هم نور الله في أرضه ، وأدلّاء عباده ، وأمناء رسله وأنبيائه .

وأول الطريق يا بني أن تخرج قلبك من ظلمات الحيرة والخداع

وتجعله صادقاً . فالحيرى من الناس متأرجحة قلوبهم أبداً ، يتلفتون في كل صوب . . ويصغون إلى كل نداء . . ثم لا يعرف أحدهم ماذا يريد ، ولأيّ نداء يستجيب ، وزناد أي شعلة في قلبه يقدح ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ . لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى : ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾[1] .

وحيرة القلب كلها ظلمة ، ابتداء من الحيرة الكبرى بين الكفر والإسلام . . وحتى الحيرة الصغيرة في الاختيار بين عملين أحدهما لله ، والآخر للدنيا .

والمخادعون ، أشعلوا في قلوبهم نار الشهوات فأصبحت الدنيا همهم وهدفهم ، ولها سعيهم . . ويزعمون أن هدفهم الله تعالى والآخرة ، وأن نار شهواتهم هي نور المعرفة ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] .

والخداع كله ظلمة . . ابتداء من الخداع الأكبر عند الذين يقولون آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين . . وحتى الخداع الصغير في فعل أو قول .

والصادقون ، اختاروا طريقهم فنجوا من الحيرة ، وصدقوا مع أنفسهم فسلموا من النفاق . استجابوا لنداء واحد فلا يلتفتون إلى غيره ، وسلكوا سبيلاً واحداً فلا يعدلون عنه .

*

يا أهل الطالقان ، يا منجبي أولياء الله . . ها أنا ألقي معلوماتي ومهارتي ، وألقي قلمي وأوراقي ، لكي أتعلم في مدرستكم . .

---

(١) سورة الأنعام : ٧١ .

(٢) سورة البقرة : ٩ .

فالمعرفة عندكم ، تشع من بيوتكم وحقولكم ، وسوف تشرق على كلّ الأرض من قلوب أبنـائكم . . إني أشم منكم عـطرهـم ، وأرى في جباهكم نورهم . . فكيف يدخل الإنسان في العارفين ؟

قال شيخ منّ الطالقان :

أول المعرفة يا بني : الصدق ، وإن للصـدق طمأنينـة في القلب يعرفها صاحبها ، ونوراً في القول والعمل يراه الناس من حوله . . وفي حياة كل إنسان بعد ذلك مواقف تشبه مواقف الآخرة يمتحن فيها فيظهر معدنه وينكشف سرّه .

سـل قلبك واطلب إليـه أن يصدقـك الجواب : هـل تـريـد الله واليوم الآخر ؟ فإن قال نعم ، فأعد عليه السؤال :

إن ذلك يعني أنك ترفض الدنيـا الحرام : المـال الحرام قـلّ أم كثـر ، والمقـام الحـرام كبـر أم صغـر ، واللذة الحـرام بـأنـواعهـا وإغرائها . .

فإن قال نعم ، فأعد عليه السؤال :

إنَّ ذلك يعني أنك ترفض الدنيا الحلال التي من شأنها أن تلهي عن ذكر الله واليوم الآخر . . فهل أنت كذلك ؟

فإن قال نعم ، فاسأله :

من الناس من يريد الله تعالى ورضاه ولكن بشرط ، أو بشروط . ومنهم من يـريـد رضـاه عـزَّ وجـلَّ بـلا شـروط . . كـمـا قـال رسول الله (ص) : « إنْ لَـمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي » وكمـا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : « اللهم إنك تعلم أني لـو أعلم أن رضاك في أن ألقي بنفسي من شاهق لفعلت . اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع قـائم سيفي في صدري وأتكئ عليـه حتى أموت . .

لفعلت » ، فإن قال قلبك : أريد رضا الله تعالى بلا شروط فاقبل منه ، ثم امتحنه في العمل . .

انظر إلى حالته عندما يقال له عن فعل : هذا حرام لا يرضى به الله تعالى ، هل يمتلىء نفرة وإشفاقاً ؟ أو يقال : هذا واجب يأمر به تعالى ، هل يمتلئ تحفزاً وإشفاقاً ؟

وانظر في أيام حياتك ، وشهورها ، وسنواتها . . لم سعيك ، وماذا تريد من حياتك ، هل أن رضا الله تعالى شغلك الأول وهمّك الأكبر ؟ أم يتقدّم عليه شغل الدنيا وهمّها ؟

سل قلبك ماذا أريد من عملي هذا ، وذاك ، وذلك ؟ الآخرة أم الدنيا ؟

وسل قلبك كلّما قطعت مرحلة من عمرك : ما هو الأمر أو الأمور التي تشغلني فعلاً ،وفي هذه الأيام، وهذه الشهور ؟ هل ما زال هدفي أن يرضى ربّي عنّي . . أم زال ؟

فإذا رضيت عن إجابات قلبك . . ثم نجحت في امتحان المواقف والمنعطفات التي تمرّ بها الحياة . . فأنت صادق ثابت على الصدق ، بريء من ظلمات الحيرة والنفاق . . وما أعظمها درجة !

إن المعرفة يا بني سلوك ، وإنَّما تتجمع خيوط شعلتها من أداء هذا الواجب وترك ذاك الحرام ، وفعل المستحب وترك المكروه ، فاطلبها عن هذا الطريق ، فإن من طلبها عن غير طريق الشريعة تاه في الظلمات .

والمعرفة يا بني نتيجة ، فلا تجعلها هدفاً ، فإن من جعلها هدفاً لم يصل إليها أبداً . .

*

وبعد ، فإن كنوز الطائفان إذ يقدمون لنا النموذج الإسلامي للعارفين بالله حق معرفته ، يكشفون لنا جوانب الخطأ في مفهومنا المألوف عن المعرفة والعارفين .

إنَّ شخصيتهم تختلف عن شخصيات العارفين المألوفة في مجتمعاتنا الإسلامية ، والمجتمعات الأخرى في العالم .

فهم أبناء فلاحين من منطقة ريفية زراعية . . وعارفون .

وهم مقاتلون أشداء . . وعارفون .

وهم سياسيون على مستوى عالمي . . وعارفون .

وعرفانهم يختلف عن العرفان المألوف عندنا ، حتى في بعض أوساط طلبة العلوم الدينية . . .

رأيت بعض الطلبة مشغوفاً ببعض العارفين يتحدثون عن شخصيته وسلوكه وكراماته : شيخ جاوز السبعين من عمره ، بهي الطلعة ، عليه نور الإيمان ، يعيش عيشة متواضعة في بيت عادي ، دائم الذكر لله تعالى ، يقضي أيامه في الصلاة والأدعية وقراءة القرآن والأوراد . . لا شغل له بأمور الدنيا ، لا ينازع أحداً ولا يختلف مع أحد ، يحب كل الناس ، وقد أصبح موضع ثقتهم واشتهر بين الطلبة وعند الناس . . يزورونه لطلب الدعاء والبركة فيرون من دعائه الخير . . وأكثر ما ينتفع به الناس أنه يستخير لهم بالسبحة أو القرآن الكريم على عمل ينوي صاحبه القيام به ، فيخبره هل توجد مصلحة في فعله أم لا ، وربما كشف الله له فعرف الأمر الذي نويته فيخبرك عنه ويوجهك بشأنه . .

سألت عن موقفه من الثورة الإسلامية فقالوا مؤيد للثورة وللإمام الخميني ويقول إنه من العارفين ، ولكنه لا يتدخل في الأمور الاجتماعية والسياسية .

سألتهم كيف أمضى هذا العمر الطويل ؟ فقالوا على هذا النمط من السلوك . . فأوشكت أن أحبّه أو أزوره وأطلب منه الموعظة . . ولكن أهل الطالقان كان لهم فيه رأي آخر . .

قال أحدهم :

يا بني ، إن الله عزَّ وجلَّ أنزل للناس شريعة أمرهم فيها ونهى ، وأحب وكره ، ولن ينال أحد رضاه تعالى أو تنقدح في قلبه شعلة معرفته إلاَّ عن طريق الالتزام بها والعمل لتطبيقها في الناس .

فهل أمرت الشريعة بالعزلة عن الناس ، أم بخلاف ذلك ؟

وهل أمرت الشريعة بترك قضايا المسلمين العامة الاجتماعية والسياسية ، أم أمرت بالاهتمام بها والعمل لها ؟

يا بني كيف يكون عارفاً بالله تعالى من عاش أكثر من خمسين عاماً يرى معاصي الله تعالى من كل نوع ثم لم يغضب لله بفعل ولا قول !

ويرى العاملين لتحكيم شريعة الله تعالى يقاومون أعداءه الظالمين والكافرين ، ويتلقون منهم أنواع القتل والنفي والظلم . . ثم لم يرض لرضا الله تعالى ولم يؤيدهم بفعل ولا قول . . !؟

كيف أفتت له معرفته أن لا يخرج يوماً فيقف في سوق من أسواق المسلمين أو في مجمع من مجامعهم ، أو على منبر من منابرهم . . . . فيصرخ غاضباً لغضب الله تعالى وراضياً لرضاه !؟

يا بني ، إن من لم يجعل هدفه رضا الله تعالى بإقامة دينه في الناس ، لا يكون عارفاً ، ولن يقربه من المعرفة أنه جعلها هدفاً فهو يطلبها بالعزلة عن الناس ، وبالإكثار من الصلاة والأدعية والأوراد . .

يا بني لو كان في قلب صاحبك نور المعرفة لأشرق عندما تفجر

نورها في إيران ، ولذاب في تيارها وإمامها كما فعل الشهيد العارف دستغيب رحمه الله . . وإذ لم يكن كذلك ولم يعرف عنه في حياته أمر بمعروف ونهي عن منكر فهو قاصر الإدراك أو مخادع ، ونور المعرفة لا يحلّ في قلب لا عقل معه ، أو لا صدق فيه .

يا بني خير لك إذا أردت أن تستخير الله تعالى أو تطلب بركة أحد من عباده العارفين أن تقصد مقاتلاً على ثيابه غبار الجبهة وعلى جبهته نورها . . أو عالماً عاملاً للإسلام يتحمل الأذى ويتكبد العنت في سبيل مرضاة الله تعالى . . أو مؤمناً له قلب ينبض لهما يفرح لفرحهما ويحزن لحزنهما . . فتلك القلوب هي الهادفة لرضا الله . . والغاضبة لغضبه ، والمشتعلة بنور معرفته . .

يا بني ، لو أن أنصار المهدي (عليه السلام) من كنوز الطالقان وكنوز قم والري وخراسان كانوا مولودين اليوم لما كانوا إلّا بين هذه القلوب وفي خضم هذه المسيرة العارفة بالله تعالى ، الممهدة لوليه المهدي (عليه السلام) . . وما يدريك أنهم ليسوا بينهم روحي فداهم .

*

الإيرانيون ومعركة قرقيسيا

قرقيسيا ، كما يذكر الحموي في معجم البلدان « بلد على نهر الخابور وقرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ ،وعندها مصب نهر الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات » فهي في شمال سوريا قرب الحدود السورية التركية العراقية ، وهي اليوم أطلال تقع بقربها مدينة دير الزور السورية .

ومعركة قرقيسيا موعودة منذ القدم فقد ورد ذكرها في سفر الرؤيا إصحاح ٩ عدد ١٤ ـ ١٥ قال:« صدر الأمر للملائكة الكبار عند نهر الفرات العظيم لكي يقتلوا ثلثي الناس » .

وورد ذكرها عندنا في أحاديث كثيرة في مصادر السنة والشيعة لا يبعد أن تبلغ في أصل المعركة حد التواتر ، وقد تضمنت عدة تفاصيل ، مثل سبب المعركة والأطراف التي تشترك فيها ونتائجها . وقد ذكرنا في أول الفصل نماذج منها وعدداً من المصادر التي روتها ، وهي أكثر من ذلك حتى لا تكاد تخلو منها أحاديث السفياني في مصدر من المصادر .

أما سببها فهو الكنز الذي يكتشف أو يظهر عند نهر الفرات أو في مجراه « يَنْحَسِرُ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ فَيُقْتَلُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ تِسْعَةٍ سَبْعَةٌ فَإِذَا أَدرَكْتُمُوهُ فَلا تَقْرَبُوهُ » « الْفِتْنَةُ الرَّابِعَةُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عاماً ثُمَّ تَنْجَلِي حِينَ تَنْجَلِي وَقَدْ انْحَسَرَ الفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ تُكِبُّ عَلَيْهِ الأُمَّةُ ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ تِسْعَةٍ سَبْعَةٌ » رواهما ابن حماد (ص ٩٢ مخطوطة) .

وقد عبرت بعض الأحاديث بالكنز مطلقاً بدون تخصيص ، وفسره ابن كثير بكنز الكعبة ، حيث لم يلتفت إلى الأحاديث الأخرى التي تعين المكان في قرقيسيا . وهذا الإطلاق في الكنز المختلف عليه يفتح باب الاحتمال أيضاً لأن يكون معدناً غير الذهب والفضة كالنفط وغيره ، وقد سمعت أن البحث عن البترول جار في تلك المنطقة .

وتوقيت المعركة الوارد في الحديث (عند انجلاء الفتنة الرابعة التي تدوم ثمانية عشر عاماً) يشير إلى فتنة بلاد الشام التي يحتمل أن

يكون ابتداؤها بالحرب الأهلية في لبنان .

وأما الأطراف المشاركة فيها فهي السفياني، والترك والروم ، بينما يكون اليمانيون والإيرانيون على علاقة غير مباشرة بها .

فبعد أن يستولي السفياني على بلاد الشام ويقضي على معارضيه يتوجه بجيشه إلى العراق ، وفي طريقه تكون هذه المعركة ، فهي ذات صلة بالأوضاع المضطربة في العراق من جهة وإن كانت تأخذ صفة خاصة وتصبح السيطرة على الكنز هدفها .

ويظهر من الأحاديث الشريفة أن السفياني والترك والروم هم الأطراف الأساسية في معركة الكنز بينما الأطراف الأساسية في العراق هم : السفياني والخراساني واليماني . ويمكن تفسير كون الترك طرفاً في الصراع بأن منطقة الكنز تقع على الحدود التركية ، أمّا الروم أي النصارى الغربيون فيدخلون طرفاً في المعركة بحجة حماية بعض الأطراف كما نشهد في تدخلاتهم في بلاد المسلمين ، أو بحجج أخرى . .

وما ذكره ابن كثير من أن أطراف النزاع هم ثلاثة من أولاد الخلفاء يقتتلون على الكنز ثمّ لا يكون لأحد منهم ، وردت فيه بعض الأحاديث،وأن اسم اثنين من هؤلاء الثلاثة عبدالله،وأن أحدهما السفياني . . فمن القريب أن يكون هؤلاء الثلاثة هم الواجهة السياسية للروم.وقد ورد أن عبدالله الذي يهزمه السفياني يرجع إلى الجزيرة ، والمرجح أنه يكون إلى جانب جيش الروم .

كما أن مواجهة الروم والترك للسفياني في هذه المعركة لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تدلّ على ارتباط السفياني بالروم ، فإن تعدد الدول الغربية والصراع فيما بينها للسيطرة على بلادنا يسمح أن

يكون السفياني مع طرف منها ضدّ طرف آخر ، مضافاً إلى الروس الذين هم من الروم النصارى أصلاً .

وتذكر الأحاديث أوصافاً ضخمة لمعركة قرقيسيا مثل أنها : « لَمْ يَكُنْ مِثْلُها مُنْذُ خَلَقَ ٱللَّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ »[1] ، « وأنها مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ يَشِيبُ فِيها الْغُلامُ وَيَرْزُقُهُمْ ٱللَّهُ الصَّبْرَ وَيَرْفَعُ عَنْهُمْ النَّصْرَ ، وَأَنَّها يُقْتَلُ فِيها سِتُّونَ أَلْفاً وَمِئَةُ أَلْفٍ وَأَنَّ طُيُورَ السَّماءِ وَسِباعَ الأَرْضِ تَشْبَعُ مِنْ لُحُومِ الْجَبَّارِينَ » . . الخ .

وتذكر عن نتائجها أن السفياني يكسب المعركة ويهزم الروم والترك « فَيَرْجِعُ الْمَغْرِبِي إِلىٰ الْجَزِيرَةِ بَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ مِئَةُ أَلْفٍ »[2] ويقتضي أن يكون انسحاب الأتراك إلى تركيا ، أما الكنز المختلف عليه فلا يكون نصيب أحد من الأطراف المتصارعة ، لأن التطورات السياسية والعسكرية المتلاحقة تمنع الطرف المنتصر ـ السفياني ـ من استثمار الكنز ، وتجعل همّه السيطرة على العراق قبل أن تدخل إليه القوات اليمانية والإيرانية « فَيَسْبِقُ (أي السفياني) الْيَمانِي إِلىٰ الْعِراقِ.»[3] .

« كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانٍ ، فَعَطَفَ عَلَيْها عَطْفَ الضَّرُوسِ ، وَفَرَشَ ٱلأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ . قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي ٱلأَرْضِ وَطْأَتُهُ . بَعِيدُ الْجَوْلَةْ ، عَظِيمُ الصَّوْلَةْ . . وَٱللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرافِ ٱلأَرْضِ حَتَّى لا يَبْقىٰ مِنْكُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ »[4] .

---

(١) بشارة الإسلام ص ١٠٣ .

(٢) البحار ج ٥٢ ص ٢٢٠ .

(٣) البحار ج ٥٢ ص ٢٢٠ والغيبة للطوسي ص ٢٧٩ .

(٤) نهج البلاغة ج ١ ص ١٩٤ .

« إِذا بَلَغَ السُّفْيانِيُّ الْكُوفَةَ وَقَتَلَ أَعْوانَ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَقَتَلَ رَجُلاً مِنْ مُسَمَّيْهِمْ ، خَرَجَ الْمَهْدِيُّ عَلىٰ لِوائِهِ صالِحُ بْنُ شُعَيْبٍ »[1] .

ويدخل السفياني العراق ويسيطر عليه ويقتل فيه خلقاً كثيراً ، قبل أن يصل الجيش اليماني والإيراني . وتذكر بعض الروايات أن جيشه يعيث فساداً في الكوفة ثمانية عشر يوماً ، ويشير بعضها إلى أنه يبقى في العراق تسعة أشهر . . ومن العراق يرسل السفياني جيشه الموعود إلى الحجاز ، فيسيطر على المدينة المنورة ، ثم يتوجه إلى مكة المكرمة للقضاء على حركة المهدي (عليه السلام) ، فيخسف الله بهم قبل وصولهم إلى مكة . . .

ولا تطول مدة سيطرة السفياني على العراق حتى يدخل الجيشان اليماني والإيراني « فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَتْ خَيْلُ الْيَمانِيِّ وَالخُراسانِيِّ يَسْتَبِقانِ كَأَنَّهُما فَرَسا رِهانٍ شُعْثٌ غُبْرٌ جُرْدٌ . . . . وَهُمْ الْأَبْدالُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ فِي كِتابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[2] .

وتتضمن هذه الرواية فقرة تصلح أن تكون إشارة إلى حرب عالمية تقع عند هذه النقطة من سير الأحداث « فَيُقْتَلُ يَوْمَئِذٍ ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ثَلاثَةُ آلاف ألفٍ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْوِيلُ هٰذِهِ الآيَةِ : ﴿ **فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ** ﴾ .

أما سبب تأخر الإيرانيين واليمانيين في دخول العراق فهو التطورات السياسية الهامة التي تتلاحق في الحجاز حيث تبدأ حركة ظهور المهدي (عليه السلام) « إِذا خَرَجَتْ خَيْلُ السُّفْيانِي إِلىٰ الْكُوفَةِ

---

(١) البحار ج ٥٢ ص ٢٠٨ .

(٢) البحار ج ٥٢ ص ٢٧٤ وج ٥٣ ص ٨٣ .

بَعَثَ فِي طَلَبِ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَيَخْرُجُ أَهْلُ خُرَاسَانَ فِي طَلَبِ الْمَهْدِيِّ »[1] .

ويتوفق الخراسانيون للاتصال بالمهدي (عليه السلام) والتنسيق معه ، فيرسل في جيشهم نفراً من أصحابه ويدخلون العراق . .

« بَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تُقْبِلُ رَايَاتُ هُدىً مِنْ خُرَاسَانَ تَطْوِي الْمَنَازِلَ طَيّاً حَثِيثاً وَمَعَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقَائِمِ »[2] .

*

يبقى سؤالان حول معركة قرقيسيا ، الأول ، لماذا لم يشارك الإيرانيون في المعركة مع أن قواتهم تكون على مقربة منها ؟

وجواب هذا السؤال أن المعركة ليست معركتهم لا من حيث هدفها في السيطرة على الكنز ، ولا من حيث أطرافها الذين ليس فيهم راية هدى ، ولذلك يتخذون قرار الابتعاد عن المعركة وانتظار نتيجتها .

والسؤال الثاني ، إن عدم مشاركتهم في المعركة لا يبرر انسحابهم من العراق إلى إيران الأمر الذي يفسح المجال لقوات السفياني لتسيطر على العراق وتعيث فيه فساداً ؟

والجواب أن انسحابهم من العراق كما تذكر بعض الأحاديث يكون إجراء اضطراريّاً بسبب خلل يطرأ في الوضع الداخلي في إيران وهو الخلل الوحيد الذي تذكره الأحاديث في دولة الممهّدين للمهدي

---

(١) بشارة الإسلام ص ٨٤ والحاوي ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) البحار ج ٥٢ ص ٢٣٧ .

(عليه السلام) : « ثُمَّ يَنْفَتِقُ عَلَيْهِمْ فَتْقٌ مِنْ خَلْفِهِمْ فَتُقْبِلُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَدْخُلُوا أَرْضَ خُرَاسَانَ »[1] .

ولم أجد ما يدلّ على نوع هـذا الخلل،ولكن عودة القـوات التي تكون في العراق تكون ضرورية لإصلاحه واستئناف معارك الظهور .

* *

(١) كنز العمال ج ٧ ص ٧٠ .

مصادر الكتاب

١ ـ مصادر وكتب عند السنة :

١ ـ **صحيح البخاري** ، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة المتوفى سنة ٢٥٦ .

٢ ـ **صحيح مسلم** ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ .

٣ ـ **مسند أحمد** ، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي المتوفى سنة ٢٤١ .

٤ ـ **سنن ابن ماجة** ، لأبي عبدالله محمد بن يزيد بن عبدالله بن ماجه القزويني المتوفى سنة ٢٧٣ .

٥ ـ **سنن أبي داود** ، لأبي داود سليمان بن الأشعر السجستاني المتوفى سنة ٢٥٧ .

٦ ـ **جامع الترمذي** ، لأبي عيسىٰ محمد بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ .

٧ ـ **المستدرك على الصحيحين** ، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ .

٨ و٩ ـ **نعت المهدي ، ومناقب المهدي** ، للحفاظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٥ .

١٠ ـ **الفتن والملاحم** ، للحفاظ نعيم بن حماد المروزي المتوفى سنة ٢٢٧ ، توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٢ أدب ، ونسخة في مكتبة دائرة المعارف العثمانية في حيدرآباد الهند رقم ٣١٨٧ ـ ٨٣ ، ونسخة في مكتبة المتحف البريطاني وهي التي نقلنا عنها في الكتاب .

١١ ـ **عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر** ، ليوسف بن يحيى المقدسي السلمي ، فرغ من تأليفه سنة ٦٥٨ ، وقد طبع الكتاب أخيراً في مطبعة عالم الفكر بالقاهرة .

١٢ و ١٣ و ١٤ ـ **الحاوي للفتاوي ، وعلامات المهدي ، والعرف الوردي في أخبار المهدي** ، للشيخ جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى سنة ٩١١ .

١٥ ـ **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول** ، لكمال الدين أبي سالم عمد بن طلحة الشافعي المتوفى سنة ٦٥٢ .

١٦ ـ **تذكرة الخواص** ، لأبي المظفر يوسف بن شمس الدين الملقب بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ .

١٧ ـ **البيان في أخبار صاحب الزمان** ، لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن محمد الكنجي الشافعي المتوفى سنة ٦٥٨ .

١٨ ـ **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى** ، لمحبّ الدين أبي العباس أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري ، شيخ الحرم المكي المتوفى سنة ٦٩٤ .

١٩ ـ **الصواعق المحرقة** ، لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الشافعي المتوفى سنة ٩٧٤ .

٢٠ و ٢١ ـ **منتخب كنز العمال ، والبرهان في علامات مهدي آخر الزمان** ، لعلاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي نزيل مكة المكرمة المتوفى سنة ٩٧٥ .

٢٢ ـ **إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وأهل بيته الطاهرين** ، للشيخ محمد علي الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦ .

٢٣ ـ **الفتوحات المكية** ، لمحيي الدين أبي عبدالله محمد بن علي المعروف بابن عربي الحاتمي الطائي المتوفى سنة ٦٣٨ .

٢٤ ـ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، محاضرة موسعة للشيخ محسن العباد الأستاذ بجامعة المدينة المنورة نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية عدد ذي القعدة ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ .

وقد أشرنا إلى أنه لا يكاد يخلو مصدر من مصادر الحديث من أحاديث المهدي (عليه السلام) في أبواب الملاحم والفتن وأشراط الساعة ، بما في ذلك كتب أصحاب المصنفات المتقدمة في الزمن على الصحاح الستة كمصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شبيبة . وأما الكتب المتعرضة للمهدي أو المختصة به (عليه السلام) لعلماء السنة في القرون المتأخرة فتبلغ العشرات ، مثل كتاب الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة للبخاري الهندي ، وأشراط الساعة للبرزنجي وغيرها . . .

٢ ـ مصادر وكتب عند الشيعة

١ ـ الكافي ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ .

٢ ـ الغيبة ، المعروف بغيبة النعماني لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم النعماني المعاصر للكليني .

٣ ـ كمال الدين ، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الملقب بالصدوق المتوفى سنة ٣٨١ .

٤ و٥ ـ الفصول العشرة في الغيبة ، والإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ، لأبي عبدالله محمد بن النعمان العكبري الملقب بالمفيد المتوفى في سنة ٤١٣ .

٦ ـ الغيبة ، المعروف بغيبة الطوسي للشيخ أبي جعفر الملقب بشيخ الطائفة المتوفى سنة ٤٦٠ .

٧ ـ البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان ، لأبي الفتح محمد بن عثمان الكراجكي المتوفى سنة ٤٤٩ .

٨ ـ الملاحم والفتن ، لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاوس المتوفى سنة ٦٦٤ .

٩ ـ غاية المرام ، للسيد هاشم بن السيد سليمان الكتكتاني البحراني المتوفى سنة ١١٠٧ أو ١١٠٩ .

١٠ ـ بحار الأنوار ، المجلد ٥٢ و٥٣ للمحدث محمد باقر المجلسي المتوفى سنة ١١١١ .

١١ ـ كشف الأستار عن وجه الغائب عن الأبصار ، للميرزا حسين المحدث النوري المتوفى سنة ١٣٢٠ .

١٢ ـ بشارة الإسلام ، للسيد مصطفى الكاظمي الحيدري المتوفى سنة ١٣٣٦ .

١٣ ـ منتخب الأثر في أخبار الثاني عشر ، للشيخ لطف الله الصافي ـ معاصر .

١٤ ـ المهدي الموعود المنتظر عند علماء السنة والإمامية ، للشيخ نجم الدين العسكري ـ معاصر .

*

هذا ، ونلاحظ أن الكتب والأبواب الخاصة في الإمام المهدي (عليه السلام) كانت تقتصر في القرون الإسلامية الأولى على نقل الأحاديث بأسانيدها فقط ، ثم أضيف إليها في القرون التي تلتها عنصر المناظرة الكلامية ، ثم أضيف عنصر العرفان والتصوف .

وفي الثلاثين سنة الأخيرة صدرت في الموضوع عشرات الكتب والمقالات في إيران والعراق ولبنان والهند وغيرها ، وحاول عدد قليل منها أن يتخطى أسلوب السرد والمناظرة ويعتمد أسلوب التحليل وإثراء حركة الأمة الإسلامية في نهضتها المباركة . . . . وسوف يواجه الكتّاب المسلمون إلحاحاً من الأمة في اعتماد هذا الأسلوب كلما تصاعدت حركتها في مقاومة أعدائها ، وازداد تطلعها إلى قائدها المهدي الموعود على لسان نبيها (ص) ، وأصبح التمهيد له والتطلع إلى ظهوره الميمون قاسمها العقائدي والسياسي المشترك .

الفهرست

الموضوع — الصفحة

مقدمة ٥

إجماع المسلمين على صحة البشارة النبويّة ٨

البشارة النبوية بين الجانب النفسي والعلمي ١١

الفصل الأول ٢١

دراسة أولية لعلامات الظهور ٢٣

شخصيات ورد ذكرها في علامات الظهور ٢٤

أقوام ورد ذكرهم في علامات الظهور ٣٢

الآيات السماوية ٣٦

الآيات الأرضية ٤١

الفصل الثاني ٤٣

تصور عام لظهور المهدي (عليه السلام) ٤٥

الساحة الجغرافية للحدث ٤٥

الوضع السياسي العالمي ٤٩

القوى الفاعلة في ساحة الظهور ٥٠

١ ـ بلاد الشام وفلسطين ٥٠

٢ ـ إيران ٥٤
٣ ـ العراق ٥٧
٤ ـ الحجاز ٥٨

إلى إيران والعراق ٦٩
الزحف إلى القدس ٧١
نزول المسيح (عليه السلام) ٧٣
المسيرة الجديدة للعالم ٧٧
من ملامح شخصية المهدي (عليه السلام) ٨١

الفصل الثالث ٩٧
المهدون للمهدي (عليه السلام) ٩٧
أحاديث المهدين ومصادرها ٩٩
١ ـ حديث:ترتفع رايات سود في المشرق ٩٩
ملاحظات حول رواية هذا الحديث ١٠٠
٢ ـ حديث:أنها غير رايات بني العباس ١٠٢
٣ ـ حديث هم أصحاب الرايات السود المستضعفون ١٠٣
٤ ـ حديث:فلا يردها شيء حتى تنصب في إيلياء ١٠٣
٥ ـ أحاديث دخول الإيرانيين إلى دمشق ١٠٥
٦ ـ في تفسير قوله تعالى : «بعثنا عليكم عباداً لنا » ١٠٧
٧ ـ حديث:تكون قم وأهلها حجة على الخلائق ١٠٨
٨ ـ حديث:رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق ١٠٩
٩ ـ حديث:يخرج رجل قبل المهدي ١١٠
١٠ ـ في تفسير قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم » ١١١
١١ ـ في تفسير قوله تعالى : «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» ١١٢
١٢ ـ حديث:ليضربنكم على الدين عوداً ١١٣
١٣ ـ كنوز الطالقان ١١٤
١٤ ـ حديث الهاشمي الخراساني وشعيب ١١٥
١٥ ـ حديث باب إصطخر ١١٦
١٦ ـ حديث تبعث الرايات السود بالبيعة ١١٦
١٧ ـ حديث معركة قرقيسيا ١١٨

شرح حديث:ترتفع رايات سود في المشرق ١١٩
رايات هدى :يسألون الحق فلا يعطون ١٢٢
هل أن أهل رايات المشرق هم الإيرانيون ؟ ١٢٦
حول الحديث رقم (٢) ١٢٩
حول الحديث رقم (٣) هم أصحاب الرايات السود المستضعفون ١٣٥
حول الحديث رقم (٤) عن رايات القدس ١٣٩
معنى خراسان والمشرق ١٤٠
حول الأحاديث رقم (٥) عن دخول الإيرانيين إلى دمشق ١٤٨
حول الحديث رقم (٦) ١٥١
خلاصة تاريخ اليهود من سنة ١٢٧٠ق إلى ١٩٢٥م ١٥٣
عهد موسى ويوشع (عليهما السلام) ١٥٤
عهد القضاة ١٥٥
عهد داود وسليمان (عليهما السلام) ١٥٦
عهد الانقسام والصراع الداخلي ١٥٨
عهد السيطرة الآشورية ١٦١
عهد السيطرة البابلية ١٦٢
عهد السيطرة الفارسية ١٦٣
عهد السيطرة اليونانية ١٦٤
عهد السيطرة الرومانية ١٦٥
العقوبات الموعودة لبني إسرائيل ١٦٧
الوعد الثاني ١٦٧
الوعد الثالث ١٧٠
الوعد الأول ١٧٢
مناقشة رأي المفسرين ١٧٣
تفسير الآيات ١٧٨
حول الأحاديث رقم (٧، ٨، ٩) في أهل قم ١٩٩
قصة المدينة المقدسة ٢٠٠
الدور والمكانة ٢٠٣

دعوة إلى كتابة تاريخ قم ٢٠٥
قم في مواجهة الغزو الغربي ٢٠٧
تفاعل حوزة قم مع أهل قم ٢٠٩
العقل والعاطفة في قم ٢٠٩
الرجل الموعود من قم ٢١١
المكانة الموعودة لقم ٢١٢
بقية أحاديث قم ٢١٤
حول حديث البشارة بالقائد وأنصاره ٢١٧
البديل للعرب ٢١٩
داء التعصب القبلي والقومي ٢٢٠
منطق العصبيـة ٢٢٢
أهم نقاط القوة والضعف في العرب ٢٢٢
كيف نعود إلى موقعنا ٢٢٨
أهم نقاط القوة والضعف في الفرس ٢٤٠
عوامل الظاهرة الإسلامية في إيران ٢٤٢
كيف يتناول الفرس الإيمان من الثريا ٢٤٨
في ميدان النفس ٢٤٩
في حركة المجتمع ٢٥٣
في الحركة نحو هدف الإسلام ٢٥٥
الذاكرون والضياطرة ٢٦٣
عناصر شخصية الضيطر ٢٦٥
كنوز الطالقان ٢٦٨
الإيرانيون ومعركة قرقيسيا ٢٧٨
المصادر ٢٨٥
الفهرست ٢٨٩

علي الكوراني

المُمهِّدُونَ لِلمهدي

الدار الإسلامية